ابراهيم عيسى

مقتل الرجل الكبير

ميريت

رواية

الحزن محاوطكى
وهمك تاعبكى
وليه مش قادرة تبكى

الأعيان خانوكى
سارقين طين أبوكى
لعدوك باعوكى
ولإيد الزمن
باعوكى
وشافوكى
وهمه بيدبحوكى
وضحكوا وفاتوكى
وقبضوا التمن

عروكى فى ميدانهم
ولا واحد أدانهم
وعلوا أدانهم
وبقالهم جرس

جلادك محامى
وحاميك حرامى
وبإيه ينفع كلامى
يا ساكنه الخرس

عبد الرحمن الأبنودى
من مسلسل النديم

إهداء

إلى جمل فهمى

الصديق والمناضل ووالد عبلة

أما الصديق فأنا فخور به

أما المناضل فأنا أؤمن به

أما والد عبلة فأنا أحسده عليها

إبراهيم عيسى

١

لم يكن أمامه إلا أن يشعر بالذهول، فشعر..

ماذا يفعل المرء إزاء شيء كهذا سوي أنه لا يفعل؟

طرق علي باب الرئيس بأدب وبتردد.. لقد تأخر في نومه هـذا الصباح فخرق عاداته المقدسة، مرت نصف ساعة كاملة علـي موعد خروجه من الباب مرتديا التي شيرت الأبيض من ماركـة لاكوسـت الرياضية ومن نفس الماركة شورت أبيض ينتهي بلون أزرق سماوي عند حوافه، الرئيس يملك ١٢ طاقما من نفس اللون والشكل،وغالبا لا يتحمل بقاء ملابسه الرياضية علـي جسـده بعد مباراة التنس الصباحية، فيمشي من مضمار الملعب داخل القصر الرئاسي إلي الجناح المنزلي عاريا إلا من لباس داخلي، وفي السنوات الأخيرة لم يعد هناك فارق كبير بين شـتائه وصـيفه (عقـدت العاصمة مؤتمرا دوليا جمع خبراء الطقـس والمناخ في معظم بلدان العالم، الأمر الذي تكلف لست ليال جزءا مبالغا فيه من الميزانية المخصصة لعقد ٣٧ مؤتمرا خلال السنة في عاصمة البلاد، مؤتمراً مخصوصاً تحت عنوان محاولة إعادة الشتاء إلي بلادنا).

آخـــرة الحكايـــة، أن الرئـــيس لم يظهر علي غير عاداته المقدســـة وكان الواجب علي سكرتيره الخاص أن يوقظه وهي أمور من الندرة حتي إنها لم تحدث.

فـــي ذلك الصباح ومنذ سنوات ورغم مأساة الخبر إلا أن ســـكرتيره لم يوقظه من النوم انتظر حتي خرج مرتديا ملابسه الرياضية، واتجها معا إلي ملعب التنس كان سفير قديم للسويد فـــي زيارة للعاصمة بعد أن انتقل منها منذ سنوات وطلب لقاء الرئـــيس لملاقاته في مباراة تنس كانا قد تعودا إقامتها عاما تلو آخـــر أثناء خدمة السفير لبلاده في العاصمة وقد رحب الرئيس فـــورا وتم تحديد الموعد بهذا الصباح، حضر الرجل مبكرا في ســـيارة رئاســـية أقلته من الفندق حتي غرفة خلع الملابس في الملعـــب الرئاسي وخرج إلي الملعب في انتظار الرئيس الذي حضر في موعده بالضبط تصافحا بحرارة وخبط الرئيس سفير الســـويد الســـابق فـــي صدره حتي تنحنح الرجل وقال للسفير بأسلوبه الصارم:

– ما أخبار المقويات الجنسية يا جو؟

ضحك السفير ورد في سعادة:

– اســـأل إدارة الفندق يا فخامة الرئيس عن ليلة أمس في غرفتي.

دارت مباراة حامية سببها أن الرئيس في الغالب كان حاقدا علي الليلة التي لم يعرف تفاصيلها في غرفة السفير بالفندق، لم ينهزم الرئيس منذ عشرين عاما في أي مباراة تنس لعبها، حتي

أنه ذات مرة زار البلاد في جولة سياحية المصنف العالمي رقم واحد في لعبة التنس قرر الرئيس أن تتحمل البلاد كافة تكاليف زيارة اللاعب وإقامته في قصر تابع للقصور الرئاسية واعتباره ضيفا رسميا، الأمر الذي جعل اللاعب يعتذر لارتباطه بالفوج الســـياحي الـــذي جـــاء معه فأمر الرئيس – باعتبار – الفوج الســـياحي وفدا رسميا في ضيافة الدولة وكان طبيعيا أن يخسر بطل التنس العالمي مباراته مع الرئيس – بصعوبة – بعد ذلك بثلاثة أيام.

فـــاز الرئيس – قطعا – بمباراته مع السفير السابق وخرج من الملعب خالعا فانلته، ساعتها كاد السكرتير يفعلها ويقول له الخبر الأسيف لكنه تردد حتي سبقه الرئيس إلي حمام السباحة، كان الحرس متناثرين بانتظام والصمت لغة صاخبة في المكان كلـــه حيـــث تخترقه جلجلة الماء تحت ذراعي الرئيس.. جلس الســـكرتير علي مقعد خشبي في ركن حول حمام السباحة ومر الوقـــت كعجلات قطار علي صدره حتي عنت من الرئيس لفتة إليه وسأله في اقتضاب:

– هل جاءتك أخبار من لندن هذا الصباح؟

كـــان الرئـــيس يقصـــد المستشفي الذي تعالج فيه السيدة الأولي منذ أسابيع في العاصمة البريطانية لندن.. وأخيرا وجد السكرتير نفسه مضطرا أن يتكلم فقال له:

– نعم يا سيادة الرئيس.. وصلتنا أخبار.

– هل هي بصحة جيدة؟

- للأسف يا سيدي الرئيس البقية في حياتك.

قالها السكرتير وهو يخشي التضحية بمستقبل أولاده، حيث يعلم أن الرئيس متي غضب من خبر اعتبر الشخص المبلغ مسئولا عن حدوث الخبر وسواده وسوئه، ولم يكن ليفاجأ كثيرا لو أن الرئيس سجنه عقابا علي خبر كهذا كأنه الطبيب المسئول عن صحة السيدة الأولي في جناحها بالمستشفي الإنجليزي. كان السكرتير يرتعش فعلا وقد ظن لوقت أنه يبول علي نفسه - لحسن حظه كان مجرد إحساس غير حقيقي - لكن الرئيس استمر في سباحته وسادت جلجلة الصمت مرة أخري عبر ذراعي الرئيس وهو يضرب ماء حوض السباحة طال الصمت، وطال العوم، وكأن القصر الرئاسي كله وقتها يمشي علي قطع زجاج مكسورة توترا وترقبا.

أول ما تحدث به الرئيس فور خروجه من حوض السباحة، أن رد علي السكرتير.

- وفي حياتك البقية.

ثم ارتدي الروب الأبيض ومضي يعطي أوامره حول مراسيم الجنازة والحداد الوطني وطلب حضور ابنه إلي القصر فورا.

حتي ذلك الصباح لم يكن أحد قد استطاع إيقاظ الرئيس، وربما لم يكن أحد في حاجة إلي إيقاظه، حيث كان نشطا في يقظته، مبكرا فيها، صحيا ورياضيا رغم تجاوزه الثمانين من عمره (كان عمره سرا قوميا، ممنوع التصريح أو التلميح به في

أي مطبوعة أو قناة تليفزيونية) لكن اليوم كان السكرتير مطالبا أن يطرق بابه وجلا ومذنبا تماما.

لم يستجب الرئيس لطرق الباب.

لا حس ولا خبر.

كان الرئيس قد أمر بإلغاء الكاميرا التليفزيونية التي تغطي غرفته والممر إليها وقال لمدير أمن القصر:

- جري إيه يا تيس.. عايز تصورني وأنا نايم علي سريري.

وعبثا حاول مدير الأمن شرح أنه يمكن توقيف الكاميرا متي طلب الرئيس ذلك في أي لقاءات غرامية خاصة، لكن الرئيس رفض المبدأ تماما وأصر بحزم علي إلغاء الكاميرا (مدير الأمن الذي تدرب في بعثة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية علي أمن الرئاسات والزعماء) تكلفة البعثة ٦ ملايين دولار تقريبا كانت منحة من الحكومة الأمريكية، الأمر الذي جعل الرئيس يدفع ٦ ملايين دولار أخري بنفسه من خزانة الدولة لتدريب شخص آخر حتي لا يقع في قبضة شخص واحد محترف يفرض شروطه ثم مات الشخص وراحت الملايين الستة. توعد الرئيس مدير الأمن لو وصلت إليه أي معلومة عن تصوير غرفة النوم فسوف يعدمه بنفسه (كان الرئيس قد أعدم بنفسه في الأعوام العشرة الأخيرة حوالي ستة أشخاص).

هل كان لذلك أن يحدث؟

أن تفتح بابا لغرفة فتجد مصيبة.

السكرتير نفسه - طيلة عمره - لم يفكر في أي من هذه اللحظات التي تسرق الرجولة، أن تفتح باب منزلك فتجد دبابات في الشارع تعلن احتلال الوطن أخف وطأة من أفظع كوابيس فتح أبواب الغرف المغلقة.

لقد سبق وفتح باب غرفة نومه فرأي زوجته تضاجع عشيقها، صار ساعتها مبهوتا ومذهولا ومنتشلا تماما من الوعي، في حالات يعرفها - طبقا لموقعه الخاص الذي يسمح له بتفتيش خصوصيات الناس وخصاص نوافذهم - كان بعض الأزواج يطلق الرصاص وآخرون يصابون بالشلل أو الذبحة الصدرية، أما هو فقد شعر بالذهول والعجز المريع، ولم يعرف ماذا يفعل؟ عرفت زوجته وعشيقها، نهضا من السرير وارتديا ملابسهما وخرجا إلي الصالة وودعت الزوجة العشيق قائلة:

- روح أنت دلوقتي.

خرج العشيق بسرعة وهو يستكمل ارتداء ملابسه ولم يشأ أن يمضي دون أن يتكلم فقال:

- ابقي طمنيني عليكي في التليفون.

كأن سكرتير الرئيس كان ينتظر تلك الجملة، كأنها كلمة السر، فأخرج مسدسه وأطلق عليه الرصاص، انتثر معها جسده وخر دما أكثر من المتوقع في مثل هذه الإصابات، التفت إلي زوجته التي اغتصبها الذعر كلية وبدا أن شدة ارتجافها تهز أثاث الصالة.

ظل الرئيس يسأله عن تفاصيل تلك الليلة لمدة عام تقريبا، وكان قد أصدر أوامره بلم الموضوع، خصوصا أن العشيق كان طالبا في الجامعة لايزال وابنا لوزير مخلص في الوزارة ورفعت الشرطة يدها عن أي ملابسات في هذه القضية، ولا يوجد سطر واحد في أي ملف رسمي يحكي طرفا من هذا الكلام، بل تم دفن جثة الشاب العشيق بشهادة صحية تثبت أنه ميت بالسكتة القلبية، وبقيت الزوجة زوجة للسكرتير وقتا طويلا بعدها، وكان يحلو للرئيس إذا رآها -وأحيانا يطلب أن يراها- أن يسألها عن الفرق بين زوجها وعشيقها.

لا شيء يمكن أن يحدث أسوأ من أن تفتح باب غرفة فتجد زوجتك عارية في حضن عشيقها، ربما الأسوأ من ذلك فقط هي أن تكون أمك وليست زوجتك.

إلا أن ما شاهده السكرتير بمجرد أن فتح باب غرفة الرئيس الداخلية جعله يدرك أنه لن يفاجأ بعد الآن أبدا، أو أن المفاجأة ماتت في حياته بعد تلك اللحظة.

تسمر بدنه وتثبتت أنفاسه وهو يري الرئيس نائما علي سريره الواسع والفسيح وقد نفض عنه غطاءه وتبعثرت ملاءاته، لكن النومة مستلقية وهادئة تماما.. فقط غزير الدم ينبثق من صدره وبطنه ويمضي لينسكب علي الملابس الحريرية والملاءات ثم يقطر قطرة وراء أخري، حنفية دم خربة علي السجادة المفروشة حول السرير كله، الرئيس واضع ذراعيه بجانبه مفرودتين في راحة وملامحه بلا غضب أو

فــزع. وخنجر كبير عريض مشرشر ولامع مغروس في بطنه ومقبضه الفضي بلا آثار دماء.

تلقي رئيس الحرس مكالمة علي هاتفه المحمول، عرف من الرقم أنه هاتف السكرتير الشخصي للرئيس، رد عليه:

- يا صباح الفل يا بك.

تكلــم السكرتير دون أن ينتظر آخر حروف كلمات رئيس الحرس.

- تعال بسرعة لوحدك غرفة نوم الرئيس.

شــعر رئــيس الحرس بنبرته الملتاعة وهمسه المحفوف بالمخاطر، تساءل:

خير.. الريس زعلان من حاجة؟

في اقتضاب أجاب:

- الرئــيس مقــتول في غرفة نومه وغارق في دمه علي سريره.

تأخــر رئيس الحرس في الوصول إلي غرفة نوم الرئيس عدة دقائق، تأكد السكرتير الخاص أنها طالت أكثر من اللازم، كان علي رئيس الحرس أن يفعل شيئين قبل أن يأتي، الأول أن يدخل الحمام الملحق بمكتبه حتي يغير هدومه الداخلية، فقد بال علــي نفســه من هول الخبر. والثاني أن يقف تائها غارقا في ذهوله يسأل بعض حراسه عن الطريق إلي غرفة نوم الرئيس.. لقــد تــاه في مكان عمل به كل هذه السنوات من الهول الهائل الذي تلقاه.

لــم تكن مشكلة رئيس الحرس أن الرئيس مات مقتولا في غــرفة نومــه حيث مسئوليته المباشرة عن أمنه، لكن المشكلة الكبري التي حطمت ضلوعه أن الرئيس قد مات.

فهــو - مــن بين كثيرين جدا في هذا الوطن - وصل به الظن حد العقيدة أن الرئيس لن يموت أبدا.

٢

تلقـــي سائق السيارة إشارة باللاسلكي تطالبه بالعودة فورا مـــع حمولــته من الضباط إلي القصر الرئاسي، سمع الضباط العشـــرة في السيارة صوت اللاسلكي الآمر والحاد، ارتمي كل واحــد في خندقه من الصمت والتفكير بينما توقفت السيارة في نحيــب عجلاتهـــا العريضـــة الغلــيظة، وفـــي ذلك الطريق الصحراوي الطويل المغرق في وحشته استدارت وباتت جاهزة للانطـــلاق عـــائدة إلـــي القصر الرئاسي، ساعتها أخرج أقدم الضـــباط الموجوديـــن بالسيارة سيجارة وأشعلها فكان ذلك إذنا عمليا بالتدخين في هذا الصباح الذي تمرد علي أن يكون عاديا.

- تفتكر فيه حاجة يا سيادة الرائد؟

خرج الدخان مع نفثات غضبه.

- أكيد فيه حاجة طبعا.. أمال عايزنا نرجع ليه.
- لقد سلمنا خدمة الليل.
- إذن ماذا حدث في الليل؟

ضـــرب بـــيده علي ظهر السائق الذي ضغط علي البنزين وأخـــذت الســـيارة الأمريكية تجري تحاول أن تروي عطشهم لمعرفة سر هذا الصباح الأغبر، كانت القواعد أن يتسلم الجناح

الرئاسي كل ثماني ساعات عشرة من الضباط للحراسة، أي أن ثلاثين ضابطا يحرسون الجناح لمدة أربع وعشرين ساعة.

أما الحراسة المرافقة، فهي فريق آخر تقوده قواعد مختلفة، لكن المسئولين عن الجناح الرئاسي في القصر هم أنفسهم الذين يحرسون أي جناح رئاسي يقضي الرئيس فيه ليله، سواء كان في القصر أو في البلاد أثناء زياراته التفقدية الكثيرة أو خارج البلاد في أي من القصور المضيفة أو الفنادق الفخيمة التي ينزل فيها الرئيس.

كانت الجملة التي يحفظها ضباط الجناح تلك الجملة التي رددها عشرات المرات خبير الأمن الأمريكي الذي دربهم في أحد قصور واشنطن التابعة للمخابرات الأمريكية لمدة شهرين كاملين.

- مهمتكم أن ينام الرئيس مطمئنا تحمونه من تسلل الأعداء والخصوم والاغتيال والأرق والكوابيس.

وكان يضيف عند أي استفسار رذل من أحدهم:

- نعم إحدي مهامكم تفتيش زائريه في الأحلام وإن أمكن ملازمة الرئيس في حلمه حتي نطمئن تماما.

طبعا عبور عشرة آلاف ميل بين واشنطن والعاصمة كان كفيلا بإعادة صياغة هذه الأوامر والقواعد علي نحو يناسب حرسا يحرس الرئيس منذ ثلاثة آلاف سنة حضارة.

كان كل ضابط في السيارة يشعر أنه يركب محفته إلي قبره وليست تلك السيارة التي كانت رؤيتها علامة نهاية اليوم

بالنسبة لهم، يتسلمون العمل بعد وصولهم بساعة، حيث تتم إعادة تفتيشهم وكانت القاعدة أن يخلعوا ملابسهم تماما، ويستحموا بماء مخصوص يسمح بنوع فريد من الأشعة تحت الحمراء أن يكشف ما إذا كان تحت جلدهم أي مادة أو معدن يصلح للتجسس أو للقتل، بعدها يتسلمون ملابسهم التي يتم الكشف عليها بجهاز الليزر، ثم يتسلم كل فرد فيهم في حجرة منفردة سلاحه مع كلمة سر خاصة لاستخدام هذا السلاح فقط، بحيث لا يستطيع أي ضابط استخدام سلاح زميله دون معرفة كلمة السر.

يتم توزيعهم علي الأماكن العشرة للحراسة في الوقت الذي يذهب فيه أفراد الخدمة السابقة للاستحمام مرة أخري وارتداء ملابسهم المدنية ثم كتابة تقرير عن الساعات الثماني كل ضابط عن زميله التالي له في موقع الحراسة، وهي تقارير مكتوبة علي نموذج مطبوع يتطلب فقط مجرد كتابة أسطر سريعة بخط اليد ومجمل تقييمه مع علامات صح وخطأ علي بعض الفقرات ثم يتناولون طعام الإفطار، بعدها يركبون السيارة العسكرية المخصصة للانتقال من القصر والعودة إليه حيث من الممنوع تماما علي أي ضابط استخدام سيارته الخاصة أو التصريح لأي شخص من الأمن بالدخول بسيارته وهي الأمور الصارمة التي لم تستطع قوانين الفوضي التاريخية التي يمارسها أبناء هذا الشعب التحايل عليها، عندما اقتربت السيارة التى تقل الضباط من القصر في قلب الصحراء بدا أول ما بدا صورة الرئيس

تتردد أمام الأعين آلاف المرات، حيث هذا السور بارتفاع ثلاثة أمـــتار ومسافة ستة كيلومترات مكون من ملايين قطع الطوب الذي تم تصميمه علي أن يحمل مقطعا من وجه الرئيس بحيث تتمكـــن أربع قطع طوب، اثنتان فوق، واثنتان تحت من تكوين صورة ملونة للرئيس، ثم تتكرر هذه الصورة مع كل أربع قطع طـــوب بحيث لا تري سورا صخرياً ولا حجرياً، بل سوراً من صـــور الرئـــيس التي لاتخطئها عين علي بعد مئات الأمتار، بحيـــث يصـــنع عالمـــا من الرهبة والهيبة تخلع القلوب علي الداخليـــن والخارجيـــن، والـــركع السجود، كانت فكرة الطوب اختراعاً إيطاليا جاءت به شركة من ميلانو بمجرد انتشار خبر بـــناء القصـــر الرئاسي الجديد، حيث دخلت عشرات الشركات صراعاً مدوياً من أجل الحصول علي صفقة بناء القصر وكانت المناقصة المطروحة تتطلب شركة مقاولات عملاقة مع شركة اتصـــالات لاسلكية وأمنية مع شركة أثاث وديكور، وقد نجحت الشركة الإيطالية في الفوز بالصفقة التي تدر عليها ربحاً لن يقل عن مليار دولار بعد أن قدمت الفكرة الانتهازية العبقرية وهي صـــورة الرئـــيس علي الطوب، لكن الجميع يعرف أن الفكرة وحدهـــا لم تفتح الباب المغلق، بل إن اختيار الشركة الإيطالية لشـــركة مقـــاولات وطـــنية كمقـــاول باطن لها هو الذي دفع بالحكومـــة إلي الموافقة، رغم أن كل الشركات الأجنبية فعلت ذلـــك، إلا أن الشـــركة الإيطالـــية تميزت بأنها اختارت شركة يملكهـــا رجـــل أعمـــال قريب من الرئيس وأشد قربا من ابن

الرئـــيس الـــذي يملك ثلاثين في المائة من أسهم الشركة، ولم تكتف الحكومة بالمليار الذي حصلت عليه الشركة نتيجة رضا الرئـــيس عن القصر في صورته النهائية وبمناسبة افتتاحه، بل منحـــتها كل عقود ترميم المعابد والآثار في البلاد ورغم انهيار أعمـــدة أقدم معبد في جنوب البلاد بعد أن رممته هذه الشركة، إلا أن الذنـــب وقـــع كله علي الرومان الذين بنوا المعبد وليس علي الرومان الذين رمموا المعبد.

الصـــحراء الشاســـعة التـــي تحيط بالقصر كانت اختياراً واضحا من الرئيس الذي خرج ذات يوم من الحمام مقرراً بناء قصر رئاسي جديد يبعد عن العاصمة وفي وسط الصحراء، ولم يحاول أحد أن يسأله لماذا؟ وما عيب القصور الحالية (للرئيس أربعـــة قصـــور فـــي العاصمة ومثلها في أهم مدينتين بالبلاد وثماني عشرة استراحة في أرجاء الوطن) فضلا عن أنه أعجب بموقع إحدي البنايات في وسط العاصمة والتي تطل علي النهر، فأنشئت استراحة فوق سطح الدور السادس والثلاثين يشاهد منها الرئـــيس إذا عـــن لـــه الوحي مشهد العاصمة من فوق البناية المفضـــلة لديـــه، وقد منحها الرئيس بعد عامين لسائحة أجنبية التقـــي بها في إحدي زياراته للمناطق الأثرية في البلاد، حيث طلبت أن تلتقط لها صورة معه وأعلنت عن رغبتها الحميمة في العـــيش فـــي البلاد فأهداها الرئيس هذه الاستراحة وقد تابعت إذاعـــات الوطـــن ومحطاته التليفزيونية هذه الهدية الكريمة من الرئـــيس (لكن أحداً لم يعقب علي ما نشرته وكالة أنباء فرنسية

تؤكـد أن هذه السائحة هي زوجة أشهر مالكي شركات السلاح فـي العالم ونشرت صوراً قديمة لها مع زوجها والعجيب أنها بثت صورة لها مع الرئيس وزوجها فوق ظهر أحد اليخوت منذ خمس سنوات).

وقـد تأسـس القصـر بحيث يضم جناحاً رئاسياً للمعيشة والـنوم، وثانـيا لإدارة شئون البلاد وثالثاً للراحة والاستجمام ورابعـاً لضـيوف الـبلاد المخصوصين والمكرمين وخامساً لموظفـي القصـر وإدارة الأمن، وسادساً متاحف تضم صوره وأوسمته وأوشحته مع وجود ملاعب للتنس وحمامات للسباحة ومسرح ودار عرض سينمائية، حيث كان يدعو الرئيس ضيوفه مـن حكام الجيران لمشاهدة مسرحية يتم عرضها في المسرح الرئاسي لليلة واحدة خصيصا للرئيس أو للرئيس وضيوفه، وقد روي أحد نجوم البلاد المسرحية مرة أنه أثناء إلقاء حواره في مسرحية أمام الرئيس، اعترض الرئيس علي الحوار وناداه من الصف الأول:

– ميـنفعش الكلام ده يا محمد.. قولها حاجة تانية ولما لم يفهـم محمـد ماذا يفعل فقد صعد الرئيس إلي خشبة المسرح وألقـي الحوار بالكلمات التي يريدها فصفق الحاضرون كثيرا، وفـي مسـرحية أخري لم تعجب الرئيس النهاية فغيرها وأعاد إخـراجها ليلـتها حتي يهدأ بالاً، وفي إحدي مشاهدات الرئيس لفيلم من إنتاج شركة وطنية لم يرتح للنهاية وانزعج كثيرا منها إلي الحد الذي طالب بتغييرها، فشرحوا له أن هذا يتطلب إعادة

تصوير مرة أخري ومونتاج وإخراج وبلاوي زرقا، ثم تكاليف مالـية قـد تقـود منتج الفيلم إلي الإفلاس خاصة أن الفيلم يتم عرضـه منذ أسابيع في دور العرض داخل البلاد، لكن الرئيس أصر وقرر تغيير النهاية علي نفقة مخصصات وزارة الإعلام وتم استدعاء المخرج والمؤلف والمنتج، حيث وافقوا بالإجماع علي النهاية الجديدة التي يريدها الرئيس ودعوه إلي أن يشرفهم أثـناء تصوير الفيلم، المدهش بعدها أن الرئيس لم يتح له وقته مشاهدة النهاية الجديدة ثم انسحب حماسه لهذا الموضوع تماماً بعـد طلبه أن تعرض عليه السيناريوهات المقدمة من المنتجين للـتأكد من صحة نهايتها ثم لما فتر حماسه بعدها بأسابيع كان ضـابط شـئون اتصال بالقصريقرأ السيناريوهات ويعدل فيها بطريقـته ويوقـع تحـت تعليمات السيد الرئيس ولما أبلغ أحد الفنانيـن صدفة الرئيس أثناء عشاء علي شرف أحد الضيوف الأجانـب، أخـبره بهذه المعلومات، غضب وثار وقرر سجن الضـابط، وإيقـاف الإنتاج السينمائي في البلاد لمدة عام، لأن الفنانين صدقوا أن هذه التعليمات التافهة علي السيناريوهات هي تعليماته.

وقـد ثـارت واقعتان أثناء بناء القصر الرئاسي كان لهما صخب عالمي وزخم محلي، الواقعة الأولي حدثت بعد أن اختار الرئيس موقع القصر الجديد أثناء تحليقه بطائرة هليوكوبتر كان يقودها فوق العاصمة:

– أنا عايزه في الحتة دي.

ولمـــا فشل خبراء التربة الأرضية وأساتذة العمارة والبناء فـــي إقـــناع مستشاري الرئيس أن هذه القطعة لا تصلح وأصر المستشارون علي تنفيذ رغبة الرئيس ولما تأكد الخبراء أن هذا معـــناه انهيار القصر علي دماغ الرئيس بعد شهور من بنائه، اقـــترح أحد الخبراء أن يحلق مع الرئيس مرة أخري بالطائرة كـــي يشـــير إلـــي المـــنطقة التي اختارها، وقد راهن كما قال لأصـــدقائه أن الرئـــيس لن يتذكر أي منطقة اختار وأنه سوف يستغل ذلك لإقناعه بمنطقة أخري، وقد فاجأ الرئيس الخبير بأنه اخـــتار نفـــس المنطقة التي اختارها من قبل، وقد فاجأ الخبير زملاءه بأنه وافق علي صلاحيتها تماماً وبدأ البناء في المنطقة التـــي أجمـــع الخبراء علي عدم صلاحيتها لكن أحد المهندسين المفصـــولين من الشركة الإيطالية المنوط بها بناء القصر باع قصة لجريدة ألمانية أكد فيها أن عدداً من مهندسي وفنيي جهاز مخابـــرات أجنبي تسربوا إلي الشركة وعملوا في بناء القصر وقـــد وضـــعوا فـــي الجدران والأسقف والتربة أجهزة تجسس خارقة التقدم.

وبـــدأت القصـــة فـــي التسلل إلي آذان العالم فما كان من الرئيس إلا أن هشها كذبابة علي أنفه، فقد قرر هدم ما تم بناؤه وإعادة البناء في منطقة أخري مع تحويل أطلال القصر الذي لم يكـــتمل بـــناؤه إلي متحف دليلا علي قدرة البلاد علي مواجهة الأعداء.

الواقعـــة الأخـــري أن كاتبا صحفيا قدم إلي رئيس تحرير صحيفة يومية من صحف البلاد مقالاً احتوي نفاقا غير مستور لقصـــر الرئيس وقال فيه: «إنني أطالب السيد الرئيس بالتوقف عـــن بناء هذا القصر لأن لديه في وطننا ٨٠ مليون قصر في قلوبـــنا، وأطلـــب منه أن يفعل مثلما فعل الأمريكان حيث بنوا بيـــتهم الأبيض في قلب المدينة، في قلب الناس، وأنت يا سيادة الرئـــيس لاتقل حضارة وعظمة عن كل رؤساء الأمريكان بل تتجاوزهم بحكمتك وتاريخك.. سيدي الرئيس: «لقد أنجزنا بناء ملايين القصور لك في قلوبنا ولا حاجة لك بقصر جديد خارج قصورنا».

هل كان النفاق ملتبساً إلي الحد الذي جرت بعد نشر المقال ثلاثة أحداث متلاحقة:

الأول: أنه قد تم فصل رئيس التحرير الذي وافق علي نشر المقال.

الثاني: أنه قد منعت الصحيفة ستة أسابيع متتالية.

الثالـــثة: أن الرئـــيس أمـــر بترحيل هذا الكاتب فوراً إلي الولايـــات المتحدة الأمريكية طالما أن الحال هناك يعجبه وقام الضـــابط المســـئول برميه في مطار نيويورك - بدون تأشيرة وبدون جواز سفر - فقد أخذه بالبيجاما من شقته إلي أول طائرة أقلعت إلي نيويورك وأنزله في المطار وقال له:

- الرئـــيس بيقولك أهي أمريكا أهه يا روح أمك روح بأه امشي جنب البيت الأبيض في قلب الناس.

عـندما وصلت السيارة التي تقل حرس الليلة الماضية إلي بوابة القصر الأولي سمع الجميع صوت جنازير تزلزل الأرض الأسـفلتية التـي تلـتف حول القصر، نظروا فذهلوا وانفزعوا وارتاعوا وضاعوا تماما، رأوا عشرات الدبابات العسكرية تتقدم نحو القصر موجهة مدافعها صوب الأسوار.

٣

كانـت دقات قلوبهم مثل دقات أحذية عسكرية تسير علي أرض خشـبية، لـم يعرف أيهم الخبر قبل الولوج إلي القصر الشـيء الـذي تمكن أن يفعله مدير القصر الرئاسي بأصابعه، المرتعشـة وزغللة عيونه وارتباكه المفضوح دون أي محاولة للسـتر، أن اتصـل بهم تباعا وبصوت يحاول أن يحتفظ بآخر علامات تماسك الرجال قال لهم:

- الرئيس يريدكم حالا.

فكر وزير الإعلام أن يكون الرئيس قد غضب من برنامج التليفزيون الصباحي الذي يتابعه الرئيس يوميا، في مرات عديدة طلـبه أمين الرئاسة بصورة عاجلة فينخلع قلبه حتي يدرك أن الرئيس يريد لقاء مذيعة هذا الصباح للاستفسار منها عن أشياء بعيـنها، أحيانا يأتي الأمر الرئاسي للمذيعة وهي تقدم البرنامج فتعـتذر علي الهواء مباشرة حيث تمضي للرئيس في صحبتها وزيـر الإعلام وفي الغالب كان الرجل - وخاصة في سنواته الأخـيرة - يلقنهما درساً في مفهوم الإعلام ويحكي عن برامج يـراها في القنوات الفضائية للبلدان المجاورة، وذات مرة ظل يحكي عن برنامج شاهده عن حياة ممثلة وكيف أنه عرف لأول

مرة أن محاولة للاغتصاب قد تعرضت لها في طفولتها أو صباها وأنها تزوجت ست مرات من أزواج في الحياة الفنية أو رجال أعمال وقد دبت في ذهنه فكرة أدهشت الجميع، فقد قرر أن يدعو الممثلة إلي مأدبة عشاء ولما جاءت استقبلها بنفسه أمام المطعم الرئاسي ثم دخل بها إلي ركنه الخاص حيث لطمتها المفاجأة لدرجة أن صدرها - وقد كشفت معظمه في فستان أسود متهتك - راح يصعد ويهبط كمن يلعب في بطولة جمباز، لقد أعد لها الرئيس مفاجأة قاضية، حيث جلس أزواجها الستة في انتظارها علي نفس المائدة، والأدهي والأمر أن الشاب - الذي صار الآن عجوزا- الذي حاول اغتصابها من ثلاثين عاما تقريبا أحضره الرئيس بعد أن داخ عليه جهاز الأمن كله، وحين وصف الرئيس المشهد للمذيعة ووزير الإعلام لم يفته وصف ارتعاشات الأزواج ثم لهجة الحوار التي سادت حتي تفجر من الضحك الليل كله، وندم بعدها أنه لم يسجلها بكاميرا الفيديو الخاصة كي يحتفظ بالشريط ليراه أكثر من مرة، لكنه تذكر أن لقاءات هذا الركن مسجلة كلها بكاميرات الأمن السرية وطلب الشريط الذي تم إعداده ليلتها، وباتت هذه السهرة جزءاً مقرراً من أماسي الرئيس مع ضيوفه من البلدان المجاورة، وكلما عز عليهم الضحك وانفلاتات الحديث عن الجنس المحرم، شغل لهم هذا الشريط حتي أنه تلقي يوما هدية من رئيس إحدي هذه الدول عبر سفيره في العاصمة كانت عبارة عن سهرة حمراء حامية بين مطربة شقراء وأحد عشاقها، كانا يسجلانه لاستثارة

أنفسهما، لكن قوات أمن الدولة المجاورة استطاعت الحصول عليه خصيصا لرئيس الدولة الذي آثر أن يهدي نسخة منه إلي صديقه رئيس البلاد.

حاول وزير الإعلام أن يستفسر من أمين الرئاسة، لكنه بعد أن أتم الكلمة الأخيرة في جملته أغلق أمين الرئاسة السماعة حانقا علي ثرثرة من أجل شفاه أو جسد مذيعة، وكان الرئيس يتابع تليفزيون البلاد إلي الدرجة التي صارت معها المذيعات أهم ما يشغل الرئيس في السنوات الأخيرة وصار شغفه بمتابعة حياتهن وأموالهن جزءا من المهام الرسمية لأمنه الشخصي ووزير إعلامه، لدرجة أنه أصدر قرارا بإنشاء إدارة أمن المذيعات في وزارة الداخلية لا هم لها سوي تقديم تقارير مكتوبة ومصورة عن أفكار المذيعات وآرائهن وسلوكهن وعلاقاتهن الجنسية، وكان مدير أمن المذيعات هو الشخص الأكثر قربا في وزارة الداخلية للرئيس، يختاره بنفسه من قائمة مرشحين يقدمها وزير الداخلية لرئيس الوزراء ثم له شخصيا وأن تقارير أمن المذيعات هي التقارير الوحيدة في شئون الدولة التي تصل إليه عبر مدير الأمن مباشرة، وليس عبر المراسلات الحكومية والرئاسية المعتادة، وكان من أهمية هذا المنصب أن تولي ثلاثة من وزرائه مسئولية وزارة الداخلية تباعاً، حتي إن كل وزير داخلية بات يحاول أن يدس لمدير أمن المذيعات الدسائس والحيل لمعلوميته أنه المنافس الأول له علي كرسي الوزارة، وكان الرئيس يعرف المذيعات بالاسم والصورة

والموقف العائلي، وكان يتصل بهن في منازلهن أحيانا، وكثيرات من المذيعات حضرن إلي قصر الرئاسة كثيرا، ومكثن ساعات في المناطق المحظور تصويرها، وحدث أن فاجأ الرئيس وزير إعلامه ذات مرة في مبني التليفزيون، حيث قرر أن يمتحن بنفسه المذيعات الجديدات حين علم من إحدي المذيعات أن امتحانا سوف يعقد هذا اليوم لعدد جديد من المذيعات، وقد مكث الرئيس وقتها ٦ ساعات يمتحن المذيعات الشابات وصنف الناجحات منهن، إلي مذيعات نشرات أخبار وبرامج مرأة وأطفال ورياضة وغيرها من أعمال التليفزيون، وجلس مع الوزير في مكتبه بعد الامتحان لعدة دقائق، قال له فيها إنه أحيانا ما كان يغضب عندما يري مذيعة صدرها واقع، ولاّ شكلها راجل وتقدم البرامج للشعب، إن المطلوب أن يحب الشعب مذيعاته ويكنَّ واجهة حسنة لسمعة بلادهنّ، ولذلك آثر أن يختار بنفسه المجموعة الجديدة من المذيعات، وعندما قام من جلسته وهم بالخروج من المكتب وخلفه لهاث الوزير، التفت الرئيس وخبطه علي كتفه:

- وأنا أتحداك ياسيدي لو طلعت أي واحدة اخترتها صدرها وحش، وصار اهتمام الوزير بصدور المذيعات عملا قوميا ووطنيا انشغل به فترة، حتي قرر أن يكون حجم ومقاس صدور المذيعات كلهن بدرجة واحدة، ووزع عليهن مجموعات هائلة من الأثداء الصناعية البلاستيكية وأكد أنه لو رأي صدر واحدة مشفوطا أو منفوخا «فنهار أبوها أسود» وكادت إحدي

المذيعات تطيح ذات مرة بوزيرها والحكومة كلها، حيث كانت شابة في أواخر الثلاثينيات علي درجة من الحسن الفتان والتعهر المحبوك والمحتدم، وتمتلك جسارة مقتحمة وطباع ضباع في الافتراس والقنص يحتار الرجل أمامها يغشاها أم يخشاها، بيضاء بحمرة، عيونها جمرة خضراء، وشفتاها عريضتان ممتلئتان نهمتان، وعودها مضبوط في مصنع حياكة رفيع، أدركت عندما دخلت علي الرئيس في مكتبه أن ثلاثة وثمانين عاما قد انحشرت بين فخذيه ساعتها، وأن حبوراً هائلاً قد تملكه فتكلم معها في كلام فارغ وتهتهات تائهة حتي وضعت يدها علي فخذه وتركتها برهة دون رهبة، فانشطر قلب الرجل واحتضنها فى نزق المراهقين فى الثمانين، وبكل ما تبقى له من خيالات الشهوة، كان هناك سباق بين المذيعات حول اعتلال صحة الرئيس الجنسية، لأنه لم يصل مع واحدة منهن لأكثر من قبلات فيها حمى صحيح لكن ليس فيها بعد ذلك شئ - لكن المؤكد أن تلك المذيعة استنفرت نطفا مخزونة من سنين، الأمر الذي أسقط قلب الرئيس في حجر هواها ولاحقها محموما بالسؤال عنها والكلام معهاودعوتها إلي القصر وزيارته لها في منزلها، ثم أعرب لأمين الرئاسة عن عزمه الزواج منها، وقد خبأ مدير أمن المذيعات ملفها بمجرد ما عرف نية الرئيس وأعد ملفا آخر بادر بتسليمه للرئيس قبل أن يطلبه، والأمر لم يكن في حاجة إلي ملف دون ملف، قد كان الوزراء والمسئولون كلهم

يـــتحدثون عن هذه المذيعة وقدومها الطاغي علي دائرة النفوذ والحكم.

وقـــد فـــتح خـــادم حبشي بوابة القصر الخرافي الفخيم في حضن النهر لمدير أمن التليفزيون الذي كان قد عرف نفسه في غرفة الأمن الأمامية للقصر أمام البوابة الكبيرة مباشرة وسمح لــــه بالدخول، وفي صالون هذا القصر الخاص استقبله صاحبه الملياردير الشاب ورجل الأعمال الذي لا يتجاوز عمره السادسة والثلاثيـــن ولا يقل وزنه عن مائة وستين كيلو، رحب به وهو يقدم له سيجارا كوبيا طويلا وسميكا:

– علـــي فكـــرة يا سيادة اللواء: هذا السيجار من مجموعة سيجارات نادرة كانت موجودة في خزانة كاسترو بعد مماته.

لـــم يستعجل الملياردير أن يسأله عن سرحضوره، وتعجل مدير أمن المذيعات أن يلقي حمولته عن ظهره.

– أنا هنا لأخبرك بأنني لم أقدم للرئيس ملف المذيعة.

ضحك الملياردير وهو يطلق الدخان حول حواف كلماته:

– فاهم.. فاهم.

استكمل مدير الأمن ماجاء من أجله:

– ثـــروتكم تتجاوز المليار دولار والعائلة لها ممتلكات في البلاد ومصالح ومصانع وشركات وأراض وعقارات.. أي أن لديكـــم مـــا تخافون عليه لذلك لم أقدم الملف الذي يؤكد أن هذه المذيعة عشيقتك منذ سنوات.

– وما السر في ذلك.. البلد كلها تعرف.

تغور البلد في داهية، المهم ألا يعرف الرئيس .

– أوتظن أن الرئيس لا يعرف؟

شم مدير الأمن رائحة كريهة في أوتظن، فتمهل في كلامه وثبت عينيه علي صورة والد الملياردير وزعيم العائلة وقال:

– وممن يعرف غيري؟

بسرعة وبحسم أجاب:

– من وزير، من مذيعة، منها نفسها!

– هل تظن أنها سوف تخبر الرئيس عن علاقتها بك؟

– احتمال.

– وماذا ستفعل ساعتها؟

– أنت لو مطرحي ماذا ستفعل؟

– ليس في يدك ما تفعله، تحاول أن تجعله ينسي أنها نامت تحتك يوما ما، أو تأخذ بعضك وتخرج من البلد.

صليل ضحكته أربك اللواء

– لا الرئيس ولا الحكومة تتحمل أن تخرج كل هذه الفلوس من البلد، سوف يتجاهل الرئيس تلك الحقيقة لمصلحة البلد.

– ضرب اللواء فخذيه بقوة:

– ولمصلحته.. أما أنا حمار

ابتسم الملياردير:

– ولا حمـــار ولا حاجة.. لكن يبدو أنك لم تتعلم كثيرا من متابعة المذيعات في بلدنا..

نهض من مكانه بسرعة وربت علي كتف اللواء:

– أنصحك الآن وبسرعة أن تعيد الملف القديم والحقيقي للرئيس ولما هم مدير أمن المذيعات بالانصراف، ناداه الملياردير مستمهلا:

– إذا لم يكن لديك مانع، أنا لدي مجموعة أخري من الشرائط مع المذيعة في لحظات ساخنة، إذا كنت تريد أن تزود بها مجموعتك التي سترفعها للسيد الرئيس.

ومشي مدير أمن المذيعات.

ظنت المذيعة خلاص أنها «إيفا براون» الراقصة التي أحبها الرئيس الأرجنتيني وخاض معها كفاحه، فأحبها الناس حتي الهوس، بات تتصرف كذلك.

– لم تكن تعرف شيئا عن إيفا براون لكن منه لله أحد الصحفيين الذي كان قد تعرف عليها في بداية مشوارها حكي لها هذه القصة بعد أن وصلت إلي القصر الرئاسي فأمدها بحدوتة صالحة قبل النوم.

تهيأ الجميع لزواج الرئيس من سيدة تصغره بحوالي خمسين عاماً، كانت عشيقة معتمدة لملياردير شهير في البلاد، لكن شيئا غامضا قد جري حيث اختفت المذيعة من الساحة ولم يعد أحد يراها وكف الرئيس عن الكلام عنها في سهرة مع سفير عربي مغرم بالشعر، كشف الرئيس عن هواية جديدة حطت عليه وهي كتابة الشعر، وبدأ يتلو قصيدة طويلة في حب امرأة، كانت خليطا من الطفولة والمراهقة والتفاهة، ولكنها في النهاية كانت تعبيرا عن ولع بامرأة. حقيقي من ذلك الذي يلحق

به العجائز في آخر أعمارهم كمن يلحق بقطار خرج من المحطة حيث تشبث بعربته الأخيرة. وقد نالت القصيدة بطبيعة الحال إعجاب الحاضرين وتهليلهم، الأمر الذي شجعه علي نشرها في الصفحة الأولي في الجريدة الرسمية اليومية تحت توقيع سيد العشاق (ولم تكن هناك قطة في البلد لم تعرف أن الرئيس كاتب هذا الشعر).

المهم قلق وزير الإعلام أول ما قلق من غياب المذيعة المجهول والغامض وسكوت الرئيس عن ترديد اسمها علي الفارغ والملآن كما كان يفعل، وحاول أن يستفسر من مدير أمن المذيعات لكنه لم يشف غليله، ومن الأمن الوطني لكنه عثر علي أسئلة أكثر مما حظي بأجوبة وأدرك أن كل الأجهزة والمسئولين يسألون عن سر غيابها ولم يجرؤ أحد أن يسأل الرئيس رغم أن الأسئلة كانت محشورة في حلوق الجميع، وكان كلما التقي وزير وزيرا، فإن أول سؤال يحتل مقدمة الحوار «فيه أخبار عن المذيعة» وطارد الجميع رجل الأعمال بحثا عن إجابة فكان يضحك حتي ينفجر الدم من وجهه ثم يرسم ملامح الجدية.

وبدأت شائعات تملأ البلاد أنها كانت جاسوسة دسها جهاز مخابرات عالمي ورغم أن وصول الشائعات للرئيس كان شبه مستحيل لحنقه الغريب علي من يبلغه بأي مما يردده الناس في الشوارع إلا أن هذه الشائعات وصلته وضحك جدا عليها حتي تحرك طقم أسنانه وقال:

– مخابرات عالمية بتتجسس عليّ.. ليه طيب ما أنا بأقولهم كل حاجة.

ثم سرت وانبرت شائعة أخري مفادها، أن الرئيس قد أهدي هذه المذيعة إلي ولي عهد إحدي الممالك العربية جزاء صفقة ضخمة خرج منها الرئيس بملايين الأموال.

وباتت الشائعات تسري وتجري حتي نسي الناس وهمد فضولهم.

ولكن الرئيس نفسه أذاع سره وكشف أمره في اجتماع مع اتحاد رجال الأعمال في الذكري العاشرة لاختياره رئيسا فخريا لرئاسة الاتحاد.. ولقد بهت جميع من حضر وكل من سمع، بل إن الملياردير نفسه غاص في انفعال مكتوم حيث كان يجلس علي بعد رجلين من الرئيس.

قال الرئيس: وبعدين، البلد كلها قالت أصل الريس ح يتجوز فلانة، يا سلام علي النصاحة.. هو أنا لما أعوز أتجوز ح أخبي، وبعدين قالوا لا، دا الكلام صحيح وفلانة المذيعة بتقوله في كل حتة وأنا سكت وصبرت لغاية ما الموضوع كبر وطول، مسكتها من إيدها وهزأتها وقلت لها بقي أنا أتجوز راجل.. سكت ثم واصل..

– إيه مش مصدقين.. المذيعة دي كانت راجل وعمل عملية تحويل جنسي بقت ست.. تفتكروا معقولة أتجوز راجل.

٤

لم تطف طيوف الخوف بقلب وزير الداخلية حين تلقي لحظة استيقاظه من النوم مكالمة أمين الرئاسة التي تحث علي الحضور فورا إلي القصر الرئاسي كطلب عاجل من السيد الرئيس، صحيح أن هذا الحدث لم يحدث منذ ست سنوات هي طول عمره في الوزارة، كان كلما احتسي نصف الكأس الثانية من خمر ناقع الأثر يفخر أنه أكثر وزير داخلية عاش علي عرشه في عهد السيد الرئيس.

لم يرتبك لكنه اندهش، لم يخف، لكنه فكر ودبر، لبس ثيابه الرسمية وأمر السائق بالاستعداد، وضربت نوبة الحراسة كعوب أحذيتها في الأرض، وصهلل حد السونكي في انعكاسات الشمس الطالعة الطازجة، طلب من السائق أن يعجل من سرعته، وبدأ يتصفح الجرائد التي تترك له في العادة علي المقعد الخلفي كي تكون بجواره في مشواره من البيت إلي الوزارة، لكنه بعد برهة ألقي بها جانبا.

كلما كان الرئيس يريد أن يثني عليه، يقوم أمين الرئاسة بالاتصال به تليفونيا ويخبره برضا الرئيس عن موقف أو

تصريح أوقضية، أما إذا كان الرئيس يريد أن يوبخه فإنه يتصل به مباشرة.

- إنت نايم علي روحك

- ليه بس يا سيادة الرئيس؟

- قولي لو أنت مش نافع في الداخلية وعايز وزارة نسوان أديهالك.

- أنا باستسمح سيادتك تهدا بس وتؤمرني فيه إيه.

في كل مرة كان أمين الرئاسة يسبق الرئيس مثل موتوسيكلات المواكب الرسمية الرئاسية، ويطلبه في الهاتف السري، يخبره بأن الرئيس غاضب من الشيء الفلاني حتي ينتبه ويحذر ويستعد. كانت العلاقة قد توثقت روابطها واشتد تعقد عقدة حبلها مع أمين الرئاسة، منذ لجأ إليه حين قتل ابن شقيقه شخصا بسيارته، كان مخمورا وفي صحبته بنت من هؤلاء اللواتي يجبرن القدر علي خذلان من يخضع لهن. كتبت الصحافة في اليوم التالي، وبدا أنها وجدت أخيرا فريسة في غابة مهجورة، لم تلمح للاسم ولم تقل صراحة تفاصيل الحادث، لكن أمين الرئاسة أدرك أنه لو دخل خصومه هذه الحلبة فإن الجلبة الصحفية سوف تدغدغ سمعته وتقدمه ممسحة لحذاء الرئيس. في اليوم التالي خرست الصحافة تماما وانقطع لسانها عن هذا الحادث، قد أفلح في حركة خاطفة ومثيرة للإعجاب في دس أكياس قطن في حلوقهم، بقي كيف يمحو آثار الحذاء من علي جسده، فلم يكن أمامه سوي اللجوء لوزير الداخلية، قال له

إن الحل الوحيد أن يعترف بسرعة ونسرع بإجراء محاكمة تقضي بما تقضي به.

- يعني إيه؟! الواد يترمي في السجن كام سنة ويضيع مستقبله، أنت عارف أنا لم أنجب وأعتبره مثل ابني، وهو شاب نابه وذكي، لا أريد لخطأ مثل هذا أن يقضي علي مستقبله.

رد وزير الداخلية - وهما يرتكنان علي ظهر أريكة في آخر مكتبه الواسع .

مستقبله ولا مستقبلك؟

بسرعة كمن يحثه على الوصول إلى حافة السطح.

- مستقبله ومستقبلي.

وأنت خايف من إيه؟ أهل القتيل وممكن نرضيهم بأي مبلغ، الصحافة واشترت خاطرك، وسكتت، ثم إن الواد مازال صغيرا وكم مليون حادثة مثل تلك منذ سنوات طويلة وأنت غير مسئول عنه ولم تقد سيارته، نهره أمين الرئاسة بعيونه ثم غرس كلماته في نحره.

- سيادة الوزير.. أنت عارف ولاً بتستعبط؟

- عارف وباستعبط

أكمل كأن شيئا لم يكن:

الواد ابن أخي كان شريكا لابن نائب رئيس الوزراء في أعمال تجارية واسعة، انتهت بمخاصمة بينهما كبيرة، لم يتم حلها حتي الآن والموضوع فيه ملايين، لو شم نائب رئيس الوزراء وابنه رائحة فضيحة للواد سوف يقضمون ظهره.

وكانوا قد شموا فعلا واستطاعوا الوصول إلي أهل القتيل ومنحوهم مبلغا ضخما من المال حتي يتمسكوا بالقضية وأخذوا عليهم عهودا وعقودا مما أفشل جهود أمين الرئاسة سواء في دهاليز القضية أوفي سراديب القضاء. وباتت لعبة يتابعها السياسيون كل يوم عم تسفر وهل ستقضي علي كليهما؟

المحاكمة التي أسرعت كل الأطراف في حث سرعتها قضت بسنة سجناً لابن شقيق أمين الرئاسة، وظهر أن المعركة انتهت لصالح نائب رئيس الوزراء وابنه وخاصة أنهما قد حصلا علي نصف التعويضات الواجبة لشركة ابنه من أصول مدير الرئاسة وذلك قبل صدور الحكم بأسبوع حتي لايعملا علي دفع الحكم إلي منطقة نهائية لا رجعة فيها، لكن لولا تدخل وزير الداخلية ما أمكن أن يتم إطفاء الحريقٍ في ستائر حياة أمين الرئاسة، فقد أدخل الولد السجن فعلاً وسود الأوراق اللازمة، لكن من صباح اليوم التالي كان الولد خارج السجن يقضي حياته الطبيعية، بينما تؤكد الأوراق أنه سجين، وبعد انتهاء المدة وبقدرة قادر ضاع الملف الخاص بالقضية وملف السجين نهائياً.. واستقر في خزانة أمين الرئاسة ومعه استقرت علاقته بوزير الداخلية إلي حد بعيد مما كان يستلزم منه أن يقدم بين الحين والآخر خدمة خفية لوزير الداخلية علي سبيل رد الجميل وكف قبضة المبتز عن جيبه.

حتي إنه عند اندلاع أزمة الجاز لم يتخل عنه أمين الرئاسة رغم الغضب الصارم عليه من الرئيس الذي كان يسبه أمام

الجميع ودفعه بقبضة في بطنه ارتج لها قلبه حتي أحس أن مس النار أرحم.. رغم أن الأزمة كلها كانت بسبب خطبة للرئيس، إلا أن وزير الداخلية لبسها وحده وكان مطلوبا منه أن يجد حلاً قبل أن يعقدوا حبلاً علي رقبته.

يومها كان النهار عاديا للغاية والموضوع أسهل من أن يهتم به أحد حين خطب الرئيس أمام البرلمان خطبته السنوية وكان من عاداته أن يستمر في الخطبة أكثر من ثلاث ساعات يحكي فيها تاريخ ولايته منذ ثلاثين عاماً، عاماً عاماً، وكانت تختلط عليه الأعوام والأسماء والأحداث لدرجة أن الخطبة تنشر في اليوم التالي في الصحف بعد أن يعيد كتابتها وزير الإعلام، فضلا عن عملية مونتاج سريعة لحذف القصص الوهمية والأسماء المغلوطة وقد فكروا أن يصدر قرار بعدم إذاعة الخطبة علي الهواء مباشرة، لكن لما علم الرئيس بنيتهم وبخهم وكاد يخلع حذاءه لوزير الإعلام ولم ينقذهم من ثورته سوي حضور مذيعته المفضلة التي اقترحت في غمرة محاولة تهدئة الرئيس أن تقرأ هي خطاباته بصوتها كما كان يفعل الرواة مع الشعراء العظام في التاريخ العربي واستخف الجميع بما سمعوا إلا الرئيس نفسه الذي أخذ الاقتراح علي سبيل الجد وطلب منها أن تردد خلفه افتتاحية خطبته المعتادة فكررت وكركع هو من الضحك وقال – ختاما للموضوع كله– أما عيلة هبلة صحيح.

في خطابه الافتتاحي أمام البرلمان الذي أفاض فيه ومط فيه ونسي فيه وكذب فيه كما يريد، توقف فجأة وصمت تماماً

فاستيقظ النائمون علي صوت هذا الصمت الثقيل، واعتدل من اعتدل وتأكد مهندسو الصوت من عافية أجهزتهم وارتبك مصورو التليفزيون ماذا يفعلون؟ لكن الرئيس أنقذ كل هؤلاء من الارتباك حين تكلم بصوت غاضب حانق ثائر كأنها نوبة صرع سياسي.

– من يومين كده سمعت أن فيه ناس مش عاجبها حال البلد طبعا أنا عارف إن فيه ناس ناكرة للجميل والشعب زي أي حاجة في الدنيا، فيه النظيف وفيه الوسخ، لكن بأقول من هنا لشعبي وبكل تاريخ الصراحة اللي بيننا.. اللي مش عاجبه البلد يا جماعة يولع بجاز.. إحنا معندناش أحسن من كده.. أكثر من كده إيه؟ لذلك بأقول بوضوح وصراحة اللي مش عاجبه يولع بجاز.

أدرك رجال الرئيس ساعتها أن هذا شيء مخالف لكل قواعد اللعبة وأن الرئيس قد تخلي عن حنكته وربما كان لتصلب الشرايين علاقة بما جري (آخر فحص طبي لصحة الرئيس أثبت أنه أكثر شبابا من شاب في الخامسة والثلاثين وأنه لايعاني من أي علة علي الإطلاق).

لكن الجميع راهن علي أن البلد – إذا كانت لاتزال البلد التي نعرفها– لن تثور أو حتي تحس علي دمها وتغضب وتتضايق مثلاً.

من ثم لم يعلق أحد – كائنا من كان– علي كلمة الرئيس في خطبته، ولكن بعد يومين بالضبط جري حادث غريب أمام مبني

البرلمان، حيث كان المارة يمشون في طرقهم المسموح بها أمام البرلمان وسيارات الأمن في مواقعها وحرس الوزارات في أبراجهم والشارع الرئيسي المطل علي البرلمان في حركته اليومية الصاخبة، حين تقدم شاب في العشرين تقريبا من عمره، يرتدي قميصا أبيض وبنطلونا أبيض وأخرج من حقيبة سوداء يحملها عبوة جاز كبيرة، دلقها علي نفسه بسرعة فأغرق جسده تماماً ثم في لحظة خطف وأشعل عود ثقاب وولع في نفسه.

شب حريق مريع في جسد الشاب الذي أخذ يلتف حول نفسه، ويدور ويلف ويحرك ذراعيه المشتعلتين بالنار في الهواء، أثار المشهد الرعب في القلوب، حتي إن كثيرا قد أغشي عليهم وسقطوا علي الأرصفة، بينما شلت أيادي سائقي السيارات واندقوا في الأرض بلا حركة، أما رجال الأمن فأقدموا علي حركة بعد فوات الأوان وحاولوا أن يتدخلوا لكنهم اكتشفوا أن لا حيلة لهم فقط أحاطوه بالمدافع الرشاشة وهو يقفز علي الأرض بجسده المشتعل كحركات الأوكروبات في السيرك.

لم يسمع أحد في هذا الوجود إلا صوت الريح يضرب هواءه في لهب النار المشتعل في جسد الشاب.

حار الناس في الخبر الذي انتقل بسرعة انتقال القنوات الفضائية، لكن لم يلتفت المسئولون للحدث إلا عندما أذاعت إحدي الإذاعات الأجنبية أن خطابا وصلها عن طريق الإنترنت يؤكد أن حادث إشعال الشاب النار في نفسه أمام البرلمان في

بلادنـــا، كان رداً علي خطبة الرئيس التي قال فيها : اللي مش عاجبه يولع بجاز، ولأننا لايعجبنا ما يجري فقد قررنا أن نشهد العالم علي أننا نولع بجاز حسب نصيحتكم.

انقلبـت الدنـيا علـي دماغ وزير الداخلية، فقد صار هو الشخص الوحيد الآن المسئول عن حُسن جمال صورة البلاد في الخـارج، والإمسـاك بهؤلاء الذين استخفوا بمخاطرة مواجهة الرئيس وكان القرار الأول هو إغلاق الشوارع المؤدية للبرلمان والمحـيطة به وعدم التصريح بدخول أحد سوي الموظفين في البرلمان أو الضباط أو أعضاء البرلمان والمسئولين.

لكن الحدث التالي لم يكن في أي من تلك الشوارع، لقد كان مبنـي التلـيفزيون يشـهد ازدحاما يوميا من الموظفين الذين يرغـبون في إعلان شكاواهم وآلامهم علي شاشات التليفزيون للحصول علي أموال من أصحاب الصدقات والمتبرعين للغلابة ورغمِ وجود أكثر من دبابة وعربة مدرعة أمام المبني، إلا أن شـاباً فـي الثلاثين من عمره، تقدم نحو باب مبني التليفزيون الشاهق وأخرج من تحت قميصه كيسا كبيرا من البلاستيك مليئا بالجـاز، أغرق به نفسه متعجلاً وبأصابع مرتعشة وبينما يفيق الناس للحدث إذا به يشعل النار في نفسه فتهب لهبا حارقا خانقا وسط صراخ وعويل وفوضي وصفارات إنذار المبني وحركة الدبابـات الزائفة ولهث أحذية العسكر نحو المكان، كان الشاب يـرقص وهـو يشـتعل ويقفـز علي الأرض ويلوح بذراعيه ويـتحرك يمينا ويساراً ويلف حول نفسه ويقترب من العساكر

حتـي يدنو ويبعد حتي يكاد يلتصق بالناس وكلما حاصر وزير الداخلية مكانا رسمياً أتاه الحريق في مكان آخر.. أغلق المناطق المحـيطة بالـبرلمان والتليفزيون ومجلس الوزراء والوزارات الرئيسـية فجـاءه الحريق مشتعلا في جسد شاب من المولعين بجـاز أمـام استاد كرة قدم أثناء خروج جمهور مباراة مهمة ومـزدحمة أو أمام دار عرض سينمائية تشهد افتتاح مهرجان سـينمائي. جماعة المولعين بجاز التي لايعرف أحد عنها شيئا والتي أتت بعد أعمار طويلة من استسلام المعارضة في البلاد لـرخاوة الحكـم ورخاء السلطة، بدأت في تحديها للحكومة أن تخـبر وكالات الأنباء بمكان وموعد الحريق القادمِ الذي سوف يشعل فيه أحد أعضاء الجماعة نفسه بالنار احتجاجاً علي خطبة الرئيس التي تطالب المعارضين بأن يولعوا في أنفسهم بالجاز.

وقد حاول وزير الداخلية أن يطوق القضية بإذاعة عشرات الأحاديث للشيوخ عن حرمانية الانتحار واستجاب وزير الإعلام وأذاع كل هذه الفتاوي، واشتدت حرب الدين علي هؤلاء، بينما استعمل وزير الداخلية كل إمكانيات التقنيات الحديثة في تشريح الجثـث المحـترقة كي يعرف من هؤلاء، وبينما جاءته مئات الـبلاغات التي تم اكتشاف عدم دقتها أو عدم صحتها، جاءت نتائج التشريح دونما أن تصل لأيٍ شيء سوي بصمات أصابع ضاعت ومعالم أسنان لم تهد أحدا إلي حل، فقط ثبت أن الجاز من النوع سريع الاشتعال وأن جميع الذين أحرقوا أنفسهم كانوا يرتدون اللون الأبيض.

وانتشرت قوات الأمن السرية كالمجانين في كل مكان وبدأوا يشتبهون بالعابرين والمارين، لقد كان الرئيس يوبخ وزيره في اليوم عشرات المرات ويهدد بإقالته إذا لم يجد حلا لهؤلاء الكلاب، حتي تمكنت قوات الأمن من ضبط شاب أمام مصلحة الشهر العقاري يرتدي الملابس البيضاء ومعه كيس بلاستيك ممتلىء عن آخره بالجاز، اشتبهوا فيه فاحتجزوه وبدأوا في استجوابه ولجأوا إلي تعذيبه وبينما أوشك علي الموت أكد أنه لايعرف أن هناك جماعة بهذا الاسم أساساً، وأنه فقط ضج من حياته وبطالته وحال دولته فقرر أن يشارك الموتي موتهم والمحترقين حريقهم وأسرعت جماعة المولعين بجاز بإرسال بيان وقف نشاطهم أولاً: لتمام بلوغ رسالتهم. ثانياً: إنهم لا يريدون لأحد أن يتخذ رسالتهم وشهادتهم ذريعة للانتحار والخلاص من الدنيا.

وبينما بدأت أصداء هذه الحوادث تضمر في الذاكرة إذا بالرئيس يقدم علي فعل آخر اختلطت فيه الغرابة بالطرافة بالسياسة حتي لم يكن هناك شخص في البلاد لايتحدث فيه مع أحد أو حتي مع نفسه.

كان الرئيس في زيارة لافتتاح المعرض الزراعي السنوي حين توقف مع مرافقيه عند جناح مزرعة بط ودواجن، وبينما مال وأمسك بطة يقيسها ويتحسسها كان ينغمس في حوار مع أحد الوزراء أو المسئولين في المعرض واستغرقه الحديث حتي مشي وهو يمسك البطة ينتقل من جناح إلي آخر والكل من

حوله خائف ووجل من لفت انتباهه لضرورة ترك البطة بينما انتهز المصورون ذلك والتقطوا له عشرات الصور ممسكا بالبطة في يده من جانبي جناحيها وهي مستكينة كأحد رعاياه تماماً.

ثاني يوم الصبح كانت صحف العالم كلها تنشر صورة الرئيس مع البطة، فما كان من إعلامنا سوي أن تعامل مع البط بقداسة مريعة وأرجع ذلك لعوامل تاريخية وظهرت مقالة في الصحيفة الرسمية الأولي عن «العلاقة بين الإنسان والبطة.. اختلافات وتشابهات».

وجاء الموضوع علي دماغ وزير الداخلية حين اقتحمت ثلاث سيارات نقل مبني الحزب المركزي الذي كان الرئيس يلتقي فيه مع بعض أعضاء هيئته التنفيذية، لقد كان صاحب السيارات الثلاث أحد أعضاء البرلمان من أرياف البلاد، جاء للرئيس بهدية حوالي ثلاثة آلاف بطة أنزلها من السيارات النقل في أفواج منتظمة ومزدحمة كأنها صفوف مظاهرة عسكرية حتي امتلأت بهم الساحة المحيطة بمبني الحزب وصعدت البطات علي ظهور السيارات وأسقفها ودرجات سلالم المدخل الرئيسي مع أصواتها المختلطة و«كاكات» لاتحصي ولاتعد. ولما بلغ الأمر للرئيس ضحك وأمر بإرسال البط إلي وزارة الزراعة للتصرف وقد أصابت النائب خيبة أمل من تحويل هديته للزراعة فتساهل في قيادة رجاله الذين جلبوا البط فتمردت مئات البطات ودخلت إلي الميدان الرئيسي، فانهار

المـــرور تماماً وتعطل ساعات طويلة حتي إن الأمن فضل أن يرحل الرئيس من مبني الحزب في طائرة هليوكوبتر لأن البط صـــعد الكـــباري وعطـــل سيرها وتكدست السيارات كأنه يوم الحشر.

لكـــن الـــبط لم يشأ أن يرحل عن الساحة السياسية إلا بعد ضـــيق صدر الرئيس بالبط، حيث فوجيء يوم إلقاء خطبة عيد العمـــال، أن العمـــال الحاضرين للاحتفال قد جلبوا معهم مئات البط، كل واحد جالس ممسك ببطة علي حجره، فاستفز الرئيس المشـــهد، فتوقف قبل إلقاء خطبته وفي منصة الاحتفال صرخ فيهم:

– تعـــرفوا أنـــا لو باربي بط كان أحسن من تربية شعب زيكم.

وزاد احمرار وجهه وانفلات صوته وارتجاج يده واهتزاز ميكروفونه.

– كله يخرج بره القاعة، وسيبوا البط علي الكراسي.. أنا ح أخطب للبط يا رعاع.

٥

افتقد الدراجات النارية التي تخلي الطرق أمامه كأن العالم يفـــتح ذراعيه – فخذيه – له، الصوت الذي يدوي معلنا قدومه للعابرين والسائرين كان يذيبه سعادة، نشوة، كأنها ارتقاء جسد ملكـــة، الســـيارات السوداء العالية التي تمنح إحساسا بالارتفاع والعلو والترفع التي تسبق سيارته الطويلة ذات السواد الغامض العمـــيق. آيات السلطة تمخر في عباب العامة، الشوارع حيث تـــتعطل والمـــرور حين ينتظر والمواكب حين يمرق والنفير الزاعق ورنين النجدة، وأسنة رماح المدافع الرشاشة، والملابس الكاملـــة الســـوداء ذات رابطـــات العنق المحكمة وبروزانتفاخ المســـدس فوق خصور الحرس، وعلم الوطن يرفرف لسانا من فم النفوذ النافذ في وجه العاديين الرعية الرعايا، كان يمثل أنه مستغرق في قراءة ملف، أو مهاتفة مسئول، لكنه ببصره كله، بحواسه كلها، يثب علي التفاصيل، يرقب المشهد بسواده الجلي. ملمـــح الفرح خبيء في طيات جلده، يسعد بالسواد الذي يعطي إحساســـاً للجمـــيع بـــالغموض، الســـرية، المجهول، المستور، الممنوع، المحصن.

عندما اقترحوا عليه تغيير لون سيارات موكبه وركبه بلون آخر رفض. قال إن موكب رئيس الوزراء بسواده ساد منذ زمن ولا يصح تغيير عادة السادة. لكن في خباءِ سره وخفاء أمره، كان لا يريد للسواد أن ينزاح شيئا فشيئا، لوناً فلوناً صار يتوحد مع سر السواد وسواد السر، قيادة الأمر كانت تلمس أنامله حينا وتراوغ حينا آخر، دهاء الرئيس ما كان يخشاه، لعل هذا الصباح أكثر ما جرحه وعكر فرحه أن أمين الرئاسة أخبره بالحضور إلي القصر الرئاسي، كان هذا طبيعيا، لكن فسد معه سده العالي من الطمأنة أنه طلب منه أن يأتي دون موكب.

حين كانت مواكب سياراته كانت مراكب سيادته.

لكنه ـــ الآن ـــ في طريقه إلي صحراء زرع فيها القصر الرئاسي، كان قلبه أسيفا وقلقه مخيفا وربيعه خريفا.

هل حل غضبه؟ هل نزل مقته؟

تقلبت أمعاؤه وارتج نبضه ووجل جلده، أيصير كل ما كان هباء منبثا؟! أترحل السيارات والحرس والرهبة والهيبة والسلطة والإمرة والإمارة؟

كان كل يوم يعدي يعدو يحاول هو أن يبقيه، فهو يوم من السلطنة يبرق، هل تفوت الأيام حتي يخلو الزمن من اسمه كرئيس للوزراء.

كان الرئيس متقلبا، لكنه نجح في أن يتقلب علي أي جنب يريده، تعلم مشية القردة، مواء القطة، حتي يرضي عنه فيبقيه علي كرسيه، كان يحلم بهذا المقعد منذ سنوات حين حبا إلي

أول مقعد في مجلس الوزراء، يرتج عمره مع كل تغيير وزاري، يرتعش إيمانه كلما ترددت شائعة عن تعديل أو تغيير، كان مستعدا أن يعمل خادما للوزراء أصحاب النفوذ، وخادما للأقربين عند الرئيس، كان يبعد عن الصراعات ويسلم جسده لمن يركب، فقط ليتركوه هنا، يشم سجاد مبني مجلس الوزراء، طلاء الحوائط، يتحسس بروز الخشب في المقاعد، رسوم البلاط، نقش الأسقف، كل ليلة علي فراش سريره يرتعد خوفا من أن يمر الصبح علي جثة منصبه، تعلق بالوزارة حتي أدرك ـــ قطعا ـــ أنه سيموت لو تخلت عنه، فزاد جريه وجبنه وهضم قلقه من زوال النعمة فرحة بنزولها، وأوقعه توقعه حلول النقمة في براثن العلة، كان يدخل مرضا يخرج من مرض لكنه كان يرفض أن ينام علي وسادة في مستشفي مخافة، أن يعود معافي من مرضه مُعفي من سلطته ووزارته.

حتي جاء اليوم الذي سطع فيه نور شمسه وغار منه غم نفسه واستدعاه الرئيس في عجلة ليخبره بأنه قرر تعيينه رئيسا للوزارة، لايزال يتذكر، قفز قلبه وغمره نهر من السعادة حتي فاض فبلل روحه، انحني علي كف الرئيس وقبلها امتنانا لا حدود له عبودية لا تردد فيها، يتذكر أنه من صباحها لم يمس زوجته ولا أيا من النساء، نشوته بسلطته أشبعته حتي الامتلاء، من صباحها.. كان غرامه موجها إلي بوق السيارات السوداء، إلي لون سيارته، وإلي طريق يخليه الحرس من السيارات والعابرين حتي يمر، كان يهبط بقدميه من السيارة بعد أن يفتح

الحارس بابها مترددا وئيدا، يتمني أن يظل عمره كله في المقعد الخلفي الوثير الطري، يسند ظهره علي المسند ويرقب الموكب مارقا والطريق يخلو من الناس والسيارات.

كم تمنـي أن يطلـب من سائقه أن يبطيء من سيارات حراسـته أن تتمهل، مستعجلين علي إيه؟! أليس الأسفلت يبرق تحت العجلات، أليست تغاريد العصافير تتدني وتتقزم أمام نفير أبواق السلطة، أليس الحارس بخوذته المعدنية فوق رأسه، علي دراجته النارية كرءوس الخيول في مواكب الخلفاء والأمراء.

حيـن انسـحب عـنه موكبه، احتلته الريبة وظنون الشك ورعشة الحمي، حاول أن يخفيها عن حرسه، وسائقه، ظن أنه بـال علـي نفسه اضطرابا، فأخذ يمسح بجنون وتوتر مكبوت بنطلونه بورق المناديل، لم يغضب الرئيس في شيء.. لكن من يعرف؟

آخـر مـرة هـل تجاوز حده من الأحلام في جلسته مع الرئـيس.. هل بان عليه جموح الرغبة، طلب منه الرئيس أن يعد قائمة بتغيير وزاري شامل.

وضـع أوراقـه في ملفه ومضي إليه في القصر وجد أن اللقاء في جناح المتحف، وماله؟ هذا هو المكان الذي يشعر فيه الرئـيس بـتمام لذته وكمال عافيته وعلو ذاته، المتحف يحمل اسـمه ويحتل أبرز مواضع المباني في القصر الرئاسي، بلونه الأبـيض وقبـته السماوية وتضاريسه العربية ومدخله الرحب

وأشـجاره الباسقة وأعلامه المرفرفة وبوابته الأندلسية وخضار أرضه.

يدخـل المـرء ليري قاعات متساوية في دائريتها تمتليء جدرانهـا بصور الرئيس. في كل قاعة مجموعة لمناسبة. في قاعـة الرياضة صورة بكل الأحجام والمساحات والارتفاعات للرئيس وهو يلعب التنس، في ملعبه الرئاسي، في نادي الرفعة فـي ملاعب الرؤساء الأجانب، بالشورتات البيضاء، بقبعة في الصـيف تحمـي من الشمس، تحت ملعب مغطي في الشتاء، صـور مقربة ليده تمسح المضرب، لقدمه تجري علي النجيلة، لعيـنه تتابع الكرة، لظهره ينحني لالتقاط كرة لعنقه يعلو لصد رمـية، لقبضـة كفـه علي كرة يستعد لإطلاقها في الإرسال، لابتسـامته مـع الخصم، لمصافحته مع المهزوم بعد الهزيمة، لمداعبته بطل التنس العالمي، لصورة تجمعه مع بطلات التنس لدي حضورهن لبطولة في البلاد.

وقاعة تجمع صوره وهو يتسلم الدكتوراه الفخرية من شتي جامعـات العالم بروب العالم الأسود الحريري، بقبعة التخرج المثلـثة بوشـاحات شـتي فـي ألوانها تلف كتفيه، بمصافحته للأسـاتذة الذيـن يقلدونـه الدكتوراه، وجوههم تعكس عالميته وشـهرته النابضـة، صـور مع رئيس جامعة بكين، موسكو، برليـن، بروكسـل، كوالالمـبور، واجـادوجو، جوهانسبرج، بنسلفانيا، القاهرة، بوخارست، كييف، الزقازيق، أم القري.

الوجــوه البيضاء والسوداء والحمراء والبنية التي تصافحه وتحتضن صوره.. يلبس روب الأستذة، يتسلم الدكتوراه، يتقلد الوشــاح، يصــافح، يعــانق، يحيــي، ينزل السلالم، يتكلم في المــيكروفون، يخلــع الروب، يعطي الحقيبة الجلدية التي تضم الشــهادة إلـــي ســكرتيره، يعانق طالبة تهنئه، قاعة الملابس العســكرية تضــم صوره وهو يرتدي بذلات البحرية الجوية، الدفــاع الجــوي، الصاعقة، والكوماندز، بذلة القائد العام، بذلة المشاة، بذلة سلاح المهندسين، بذلة الاستعراض العسكري، بذلة ضــابط إنجلــيزي، زي ضابط ألماني، في زي قوات المارينز الأمريكــية، قبعة روسيا القطنية علي رأسه، فوق حصان بزي ســلاح الفرسان، فوق جمل في زي سلاح حرس الحدود، بزي قوات حفظ السلام الدولية.

لا يــرتاح الرئــيس إلا فــي قاعة الشعب، حيث تمتليء الجــدران بصــوره مــع الشــعب في كل مكان، عبر كل هذه السنوات، مزدحمين علي رصيف قطار وهو يطل برأسه مشيرا بيديه بالتحية، عشرات الآلاف يجرون وراء سيارته في موكب يطــوف الشــوارع، مئات الطلاب من الشباب حوله في زيارة للجامعــة، وفــد نســائي يحيط به في مقر المؤتمرات العامة، أعضــاء مجلــس النواب يتزاحمون لمصافحته، مئات الأطفال يرقصون حوله بملابس سندريلا، الجونلات البيضاء المرفوعة والدثــار الحريــري المزركش، الفنانون في طابور لمصافحته أثناء زيارة أحد استديوهات التليفزيون، مئات العمال يلتفون في

مصــنع حوله وهو يرتدي البالطو الأبيض والقبعة البلاستيكية، وآلاف الجــنود يهتفون له في زيارته لموقع عسكري، الأجانب والسياح في أحد المعابد يلتقطون الصور معه، مزاحمة المثقفين والصحفيين حوله وهو يفتتح معرضا للكتاب.

من شدة راحة الرئيس في هذه القاعة، سماها الواحة، وأمر بوضــع مكتــب صــغير في أحد أركانها، وفي الأمور المهمة الخاصــة بمقــدرات الأمــة يستدعي الرئيس المسئول إلي هذا المكان حيث يتباحثان والأمة تشهد عليهما.

وقــد اســتقبل رئيس الوزراء في هذا المكان حتي يستقرا علــي التغيــير الوزاري الشامل بعد أن امتلأت البلد بشائعات حول قرب حلوله ودنو حدوثه.

وضع رئيس الوزراء الورق وقال للرئيس وهو يرتعش من الوجل والفرحة:

– تحب سيادتك نبدأ بمن؟

رد الرئيس في صحة وعافية لاتشي أبدا بسن الثمانين الذي تجاوزه:

بالزراعة؟

قال رئيس الوزراء:

– ســيادتك أنا رشحت أربعة لتولي هذا المنصب الوزاري المهم.

عقب الرئيس:

مهم ليه؟

ارتج رئيس الوزراء

- نعم

- بأقولك مهم ليه؟

حاول أن يجد أي حروف تشكل أي كلمات ترضي أن تجيبه بسرعة.

- إنتاجنا الزراعي انخفض في السنوات الأخيرة.

في حسم:

- وأنت كنت فين؟

ضعف وتحلل رئيس الوزراء تماما.

- سعادتك الأرقام بدأت في الانخفاض قبل أن تشرفني بتكليفي تولي رئاسة الوزارة.

في براءة قال الرئيس:

- ومتي توليت أنت رئاسة الوزارة؟

- من ثلاث سنوات.. آه..

ثم صمت الرئيس قليلا وقال:

- يعني أنت عاوز تغير وزير الزراعة؟

أحس أنه طفل أسنانه مسوسة أمام مدرسة الحضانة فقال بتهتهة:

- يا أفندم أنا مش عايز أغير حد خالص.. سيادتك الذي أمرت بتغيير وزاري.

- فيه وزير الزراعة.

- سعادتك قلت شامل.

- وشامل يعني فيه وزير الزراعة:

في أسي واستئناس قال رئيس الوزراء:

- ليس شرطا يا سيادة الرئيس، ممكن يبقي شامل ولا يشمل وزير الزراعة.

في سرعة سأله:

- ويبقي ساعتها شامل إزاي؟

- يعني فيه استثناءات بالتأكيد.

أطرق برأسه ثم عاجله بحكمة سريعة:

- لأ.. إحنا قلنا شامل يبقي شامل، صحيح محدش حيحاسبنا، لكن إحنا قلنا شامل، خلاص يبقي شامل.. قولي أنت رشحت مين؟

استعاد رئيس الوزراء ريقه الغائب:

- رقم واحد أستاذ بكلية الزراعة اسمه....

حدق فيه الرئيس مستفهما وناقما:

- اشمعني كلية الزراعة:

ارتبك رئيس الوزراء:

- يا أفندم دا عشان وزارة الزراعة؟

علا صوت الرئيس ولقنه درسا:

- وهوه يعني وزير الزراعة لازم يبقي أستاذ في كلية الزراعة.

تراجع رئيس الوزراء فورا:

- لأ.. مش لازم.

فتراجع الرئيس غاضبا:

- مش لازم إزاي.. يعني أجيب أستاذ في كلية الآداب أجعله وزيرا للزراعة؟

لم يعرف ماذا يقول رئيس الوزراء فانكتم، فصاح فيه الرئيس:

- انكتمت ليه.. ماتقول رأيك؟

في استكانة:

- الرأي رأيك يا أفندم!

لف الرئيس برأسه ونظر للسقف وأخذ يشرح لثلث ساعة تفاصيل ازدحام الناس علي أرصفة القطارات لرؤيته ورئيس الوزراء يؤمن علي كلامه، حامدا الله أن موضوع وزير الزراعة لم يفجر غضب الرئيس.

سكت الرئيس فجأة وقال:

- طيب ح أقولك حاجة.. إحنا نأجل تحديد اسم وزير الزراعة لغاية ما نستقر.. هو لازم يبقي أستاذ زراعة ولا لأ.

- أوامرك يا سيادة الرئيس؟

- طيب نتوكل علي الله كده ونختار وزير إيه.

- اللي تشوفه سيادتك.

شاخطا فيه:

- أنت شايف إيه.. أنت رئيس الوزراء.

بسرعة:

- نتكلم عن وزير الداخلية.

بحسم:

- خلاص نتكلم عن وزير الثقافة.

استسلم رئيس الوزراء كمصارع سقط تحت جسد خصمه.

- بالنسبة لوزير الثقافة أنا رشحت ثلاثة أسماء.

في لهجة الناصح قال الرئيس هامسا في رقة أبوية:

- اسمع كلامي.. العالم المثقفة دي محتاجة وزير حاسم حازم.. محتاجين راجل بجد.

أمّن رئيس الوزراء علي كلامه، فلم يعر الرئيس اهتماما لموافقته وأضاف:

- آه زي الوزير اللي موجود دلوقت، هوه صحيح خ.. لكن بستين راجل.

- أنا مرشح لسيادتك اسما هنا لمثقف كبير.

- خول برضه؟

بتردد وفقدان بوصلة التكهن:

- هو سيادتك تؤمر بإيه؟

- في إيه.

- في وزير الثقافة.

- مش فاهم.

- يعني عايزه سيادتك خول ولا مش خول؟

- وهي تفرق؟

- الحقيقة....

ثم سكت كمن حط عليه الخرس، توقف الكلام في حلقه، لا راضي يطلع ولا راضي ينزل.. حل الرئيس الموقف بتدخله في الصمت:

- طيب أنا ح أقولك حاجة إحنا نأجل الكلام في وزير الثقافة لحد ما نعرف إحنا عايزينه خ.. ولا مش خ..

أخذ رئيس الوزراء نفسه بالعافية أخيرا وبلع ريقه وانسحب ضيقه وعاد الرئيس ليتكلم.

- من الوزير التالي؟

- كما تري سعادتك.

في صخب وغضب وحماس قال الرئيس منفعلا:

- نتكلم عن وزير الصحة؟

في أدب جم وهمس نم عن ارتجاج الأمر عليه سأل رئيس الوزراء.

- سيادتك عايزه إيه؟

- هوه مين؟

- وزير الصحة؟

- يعني ح أعوزه إيه!

- سيادتك يعني عايزه دكتور ولا مش دكتور.

شخط فيه الرئيس ونطر:

- أنت بتستهبل.. وزير الصحة عايزه دكتور ولا مش دكتور.. طبعا دكتور.

خلاص داخ رئيس الوزراء تماما وتمتم.

- طبعا طبعا.

لكن الرئيس عاد بظهره للوراء واضطجع.

- لكن والله فكرة وجيهة.. ليه ضروري وزير الصحة يبقي دكتور.. هوه يعني ح يكشف علي الشعب في مكتبه بالوزارة ولا ح يضرب حقن لوكلاء الوزارة والموظفين.. ثم انتفض الرئيس قبل أن يعطي لرئيس الوزراء فرصة في موافقته.

- لكن شوف أنا كل يوم قاعد أقرأ في الجرايد عن الإهمال في المستشفيات والناس اللي بتموت فيها.. اسمع هيه الناس فاكره إيه.. قال يعني عشان دخل مستشفي ميمتش، ليه يعني هوه شعب بيستهبل وعينه فارغة أنا عارف، فاكر إن مادام عندنا مستشفيات محدش يموت ليه يعني ناس معندهاش ريحة العقل ولا الدم.. عشان كده أنا عايز وزير الصحة اللي جاي حتي لو كان كمساري يكتب علي مدخل كل مستشفي الآية الكريمة «كل نفس ذائقة الموت» أما نشوف بأه مين ح يعترض علي إرادة ربنا.

أخذ رئيس الوزراء يكتب هذه الملاحظات كأنه يدون الوحي ولما صمت الرئيس استسمحه رئيس الوزراء سائلا:

- قلت إيه سيادتك في وزير الصحة؟

- فيه إيه؟

- عايزه سيادتك إيه؟

- خ.. ولا مش خ..؟

- لا يا أفندم دكتور ولا مش دكتور.

صمت الرئيس كثيرا وطويلا، تنهد ووضع كفا علي فخذه ثم ضرب بالأخري علي المكتب، ثم عاد بظهره للوراء، ثم حدق في السقف، ثم صرخ في وجهه:

- أنت لم تشرب أي حاجة.

ضرب الجرس فأسرع السكرتير بالدخول، شتمه الرئيس.

- جاي تجري زي دكر البط ولم ترسل السفرجي بأي حاجة يشربها السيد رئيس الحكومة.

تراجع جسده وكلامه، وقال السكرتير:

- سيادتك كنت أمرت محدش يدخل عليكم الاجتماع.

ويقاطع سيادتك

شاعرا بالمفاجأة

- أنا قلت هذا الكلام؟

- نعم سيادة الريس.

سيادة الرئيس لم يعجبه الكلام فسأله:

- ليه يعني محدش يدخل؟

- يمكن عشان أسرار التغيير الوزاري؟

قام الرئيس منتفضا في ثورة بلا ذرة مقدمات.

- أهوه يا سيدي، لا رئيس الحكومة طفح حاجة ولا إحنا عملنا التغيير الوزاري فين السفرجي بقي؟

٦

الغريب أنه تلقي الاستدعاء علي هاتف المكالمات العادية وليس علي الهاتف الخاص كما أن المتحدث لم يكن الرئيس بنفسه وشخصه كما تعود معه كمدير جهاز الأمن الوطني حيث قرر منذ فترة ألا يتعامل مدير الجهاز مع أي مسئول غيره ولا حتي بوسيط بينهما، كان إحساس الشك فيمن حوله يطفو فجأة علي شعوره الساكن الآمن بأنه نجح في إخلاء البلد - نفيا أو قتلا أو قهرا - من الذي يمكن أن يرفع رأسه أمامه، كان من المستحيل أن ينظر فيجد أحدهم محدقا فيه، بات من آخر الممكنات أن ينظر مسئول لعين الرئيس مباشرة، دائما نظره فوق أو تحت، مرمي عند نقطة بعيدة طرف جاكت الرئيس، علي كتفه. علي رابطة العنق، لأنه لم يعد أحد يجرؤ علي وضع عينه في عين الرئيس، وقد ارتاح منذ زمن من التفكير في منافسين أو طامحين في عرشه أو حالمين برحيله، بل صار الكل حوله يخشي رحيله أو موته بعد اثنين وثلاثين عاما في الحكم، صار الناس يصدقون أن الدنيا تقف علي قرني ثور، وأن الوطن يستند علي كتف الزعيم، إذا ما مات أو استغني، أو ضجر، ضاع البلد.. سقط وانهار.. فهو الوحيد الذي عرفوه

رئيسا وزعيما، ولا يتصورون أن البلد يمكن أن تستمر بدونه، يستيقظون في الصباح، فإذا بهم لايجدونه علي شاشة التليفزيون أو في صدر الصفحات الأولي، أو تماثيله علي الطرق الرئيسية، وصوره الزيتية الملونة علي الطرق الفرعية، وخطبه في الإذاعة، والدعاء له في صلاة الجمعة، والاحتفال بعيد ميلاده، وعيد توليه عرش الرئاسة. لهذا كانت مهمة مدير جهاز الأمن الوطني أصعب من أن يتخيل أحد، فليس سهلاً أن تشعر بالتوجس بينما كل من حولك خاضع خانع، وليس سهلاً أن تستشعر الخطر وكل من حولك أرانب.

ومع ذلك نجح الرئيس في تشكيل عقلية وروح مدير الجهاز الوطني، دربه علي الإحساس الدائم بالخطر، علي القفز من السرير لو زقزقت عصفورة علي شجرة في الجنينة، علي تحسس مسدسه لو أخرجت طفلته لعبة المسدس الرشاش من الدرج كي تلهو به أمامه، علي التجسس علي مكالمات طفله الصغير مع زملائه في فصل أولي ابتدائي أول.

استغرق منه الأمر كثيراً.

فالرئيس - حين ينام هادئا يصحو وقد شك في الجميع واستجوب الكل وطلبه علي الهاتف ليحضر فوراً، ليفتحا الملفات، ويعيدا تشغيل الكمبيوتر السري للرئيس الذي يحتوي علي كل منمنمات الوزراء والمسئولين الشخصية، وشرائط الفيديو التي تلتقط للرئيس أثناء حضور المؤتمرات أو افتتاح

المعارض والمصانع، يدققان النظر فيمن يسيرون حوله، من يمد الخطوة أكثر.

- ماله «ص» بيمشي ورايا بيجري كأنه عايز يحصلني.. أنا ملاحظ إن كلامه كتر فعلا.

من يمشي بجواره دونما أن يتراجع خطوة ليقف وراءه كما يقف المصلون وراء الإمام. ألست معي أن «ك» عنده طموحات أكثر من اللازم وحاطط كتفه من كتفي كأنه الرجل الثاني ولاّ ولي العهد؟!

ويسهران الليل بطوله في تتبع نظرات المسئولين في موكب الرئيس، هل ينظر الوزير إلي أعلي حيث السماء والسقف؟ أم يمعن نظره في الأرض حيث السجاجيد ونقوش البلاط؟ هل يقف أمام عدسة التليفزيون سعيداً بكثافة الأضواء عليه وتثبيت الصورة فوق وجهه، أم يفر بنظراته عازفا عن أنواء الأضواء.. يتفحصان أصابع المتحدثين أمام الرئيس من الوزراء أو المسئولين يشرحون له رسوما توضيحية أو خرائط جغرافية أو تشكيلات هندسية، هل ترتعش أصابعهم وترتجف أكفهم أم إنهم ثابتو الكف، مستقرو الأصابع، هل يشوحون كثيرا أم أن حركتهم طبيعية مستكينة؟!

كان الرئيس أحيانا يشعر بنعاس فيأخذ مدير الجهاز الوطني إلي غرفة نومه الرئيسية حيث يستلقي علي ظهره نائما فوق السرير، بينما مدير الجهاز جالساً علي مقعد خشبي كبير يدون الملاحظات والدلالات التي يحللها الرئيس بين غفوة وغفلة،

ومدير الجهاز يسرع بدق سن القلم علي الورقة المسنودة علي لوح خشبي فوق فخذيه ينظر للحائط حيث ذلك الخنجر اليمني في جرابه الفضي المزدان بالنقوش ودرر المجوهرات ومقبض الخنجر بخشبة الأبنوس وانحناءاته الذهبية اللامعة.

حين كلفه الرئيس بهذا المنصب قال له بوضوح وحزم إن كل من يعارضني شخص غير وطني، خائن، وعميل. كل من يحاول اغتيالي أو المشاركة في قتلي ليس من أبناء الوطن حتي لو كان جدوده يعيشون هنا لسابع جد.. هات أوراقا رسمية، أختاماً من عشرات السنين، جوازات سفر قديمة، هويات مزورة، شهادات جنسية أجنبية، اقتل ناساً حتي يكذب ناس آخرون، عذب، شوه، المهم أن تخرج للناس جميعاً تؤكد لهم بالصوت والصورة والورقة والمستند واعترافات المتهمين وشهادات الشهود أن من فكر لحظة في التخلص مني شخص ليس من هذا البلد، أجنبي عميل، حتي لو كان ابن رئيس مصلحة الجوازات والجنسية، تعرف ليه؟ لأنني أريد أن أعلم هذا الشعب، أن أغرس فيه طاعتي والولاء لي، حتي يصبح كأنه مولود به ليس فقط أن يستغرب ويندهش من الذي يعارضني، بل يشك في أنه مواطن مثله، من هذا البلد من هذا الوطن، من أبوين طبيعيين.

كانت الكلمات تخرج من فمه بحمي غضب ورذاذ أعصاب هائجة، كان ذلك بعد يوم واحد فقط من محاولة اغتياله التي رجته أيامها بعنف وحاولوا التكتم عليها وعلي تسربها، حيث

كانت فضيحة يصعب التخلص منها ببساطة، وواقع الأمر - يقول مدير الجهاز- إننا نجحنا أن نقلل من خطورتها للرأي العام العالمي، لكننا لم نستطع أن نخفف من مأساتها.

كان يومها مناسبة الاحتفال بمرور مائتي عام علي إنشاء حديقة الحيوانِ الوطنية، وكان الرئيس يريد لهذا الاحتفال أن يكون عالمياً مذهلاً في محاولة لإثبات اهتمام سيادته بالبيئة والطبيعة، حيث صار الاهتمام بها موضة سياسية في تلك الفترة، لذلك تم تشكيل لجنة دولية للإشراف علي الاحتفال، ورصدت عشرات الملايين من أجل استيراد حيوانات جديدة ومنقرضة للحديقة، وإعادة بناء وتشكيل الأقفاص وبيوت الحيوانات وإعادة حفر البحيرات الداخلية وتجديد المياه في الجنينة كلها وشراء ملابس جديدة لعمال وحراس الجنينة، والاستعانة بشركة أمن خاصة تشرف علي التعديلات والتنقلات، مع اهتمام خاص بجبلاية القرود واستقدام عشرات القرود من إفريقيا لهذه المناسبة خصيصاً، الحادثة التي عكرت هذا الاحتفال قبل أن يبدأ وتمكنا من إخفائها هى ما حدث حين سفرّت البلد مجموعة من حراس ومدربي الحيوانات إلي ألمانيا للتدرب علي حراسة خاصة للأسود والأفيال.. وبعد تمام بعثتهم وقرار عودتهم إلي البلاد وقبل أسبوعين من الافتتاح الجديد، سقطت الطائرة التي كانت تقلهم وماتوا جميعا. الأمر الذي جعلنا نستعين بحراس ومدربين من السيرك الوطني وخاصة لقفص الأسود الذي تم تصنيعه خصيصا وفق رسم هندسي لأحد

فنانـــي العمـــارة والديكور الكبار في إيطاليا، وقد دعا الرئيس شخصـــيات عالمية ودولية معروفة باهتمامها بالحيوانات وقرر أن يصـــطحب معه في هذا الافتتاح والاحتفال كل وزراء البلد تأكـــيداً علـــي العلاقة الطيبة التي تجمع رئيس ووزراء الوطن بالحيوانات.

وكانـــت الأجـــواء الكرنفالية تغمر حديقة الحيوانات التي امـــتلأت بـــالورود والزينات الورقية وشرائط الألوان الطائرة، وعزفـــت فـــرق الموســـيقي الموزعة في جميع أرجاء الجنينة الألحان الراقصة والاحتفالية، وأقامت ثلاث فنانات استعراضات حـــية بالصـــوت والصـــورة مـــع عشرات الأطفال من تلاميذ وتلمـــيذات معاهد الباليه.. وجهوا تحية مفعمة بالحفاوة للنجمة الأمريكية السينمائية التي وهبت نفسها للحفاظ علي فرو وجلود الحـــيوانات في أركان العالم. اشتعلت الفرحة في قلب الرئيس خاصـــة أن رؤيـــة قفص الأسود قد ملأته غبطة وسعادة ربما وصـــلت حد النشوة، حين شاهد سبعا من الأسود ضخام الجثة غزيـــري الشـــعر، أنـــيابهم صلبة ومخالبهم بارزة وشواربهم أســـطورية، وانحـــناءات أبدانهـــم كأنها مغزولة بأزميل مثال، أعجبت عشرات الشخصيات من وزراء البلد وضيوفه الدوليين بهـــذا المشهد الرهيب المهيب وخاصة حين بدأت الأسود تزأر فـــي صيحات الملوك الذين ملكوا غابات العالم كله. كان حرس ومدربـــو الأســـود ثلاثـــة من الشباب في أواخر العشرينيات، رياضـــيى الأجسام ومفتولى العضلات وأنيقى الملابس، يقفون

أمام الأسود ويتحركون حولهم في القفص الواسع الذي يضم في واجهـــته بابيـــن صـــغيرين (أو كأنهما صغيران) أقفالهما من الداخـــل، ثـــم ممر متر من العشب الأخضر الجلي الرطب، ثم وقفـــة الرئـــيس وضيوفه ووزرائه، كان وزير الزراعة يشرح شيئا للرئيس وضيف دولي يحكي عن أصل ونوع وسلالة هذه الأســـود وموطنها حين بهت الجميع، وشلت أفكارهم، وتصلبت أجسادهم، وتوقفوا عن التنفس وخرسوا وصموا في وهلة، حين انفتحت أبواب القفص.. كأنها تدار بالريموت كنترول عن بعد، وقفز أسدان في لحظة منضبطة وبتنسيق خرافي كأنهما يتدربان عليه منذ آلاف السنين، قفزا وعبرا بجسديهما المتر الفاصل بين القفـــص والرئـــيس ونشبت مخالب قدم أحد الأسدين وهو يقفز بكـــتف الرئيس الذي سقط في نفس الثانية التي قفزٍ فوق جسده أســـد ثالـــث نط من القفص، ترنح الوزراء واحداً تلو الآخر، سقطوا في فوضي زلزال نشب، سقط بعضهم فوق بعض وداس آخـــرون يجرون علي أجساد آخرين مرميين علي الأرض. بج الدم من أجساد كثير من الضيوف الدوليين، ذعر أصاب النجمة الأمريكـــية التي كرست حياتها للرفق بالحيوانات، أغشي عليها وقـــد سقطت في حضن رجل واقف، فسقطا معاً متكورين في مـــئات الـــبالونات الموضوعة علي جانب القفص، غطسا ولم يـــتابعهما أحد بعدها. عض أسد رقبة شخصاً ثم التفت فضرب بمخلـــبه شخصـــا آخر، أسد ثان وقف فقط يزأر ويرفع ساقيه الأماميتيـــن والـــناس تعـــدو أمامه وتتأرجح وتترنح وتتمرجح

وتهوي وتقوم وتجري بظهرها مثبتة عيونها عليه، كان ضابط مرور من تشريفة الاحتفالية وحده الذي تذكر أن الرئيس علي الأرض أمام الأسود، فجري بخوذته المعدنية وعصاه الحمراء حتي وصل إليه مبهوتا مبهور الأنفاس، والعجيب أنه قد وجده حياً يقظاً تماماً فقط مزق خفيف عند كتف البذلة، جرّ الضابط الرئيس وهو نائم علي ظهره مترين بعيداً وهو يزحف علي الأرض، تنبهت الأسود لفرار الرئيس فبدأ ثلاثة منهم يولون اهتمامهم بالضابط الذي يجر الرئيس زاحفا بظهره علي الأرض مجرورا مع الرمل والخضرة والتراب وبذلته الممزقة، بدأ الأسود يتحركون نحوهما حين وقفت ذراع الضابط ممسكة بذراع الرئيس، ومذهولا من تنبه الأسود وتعمدها المشي خلفهما كأنها تقصده مرتبكا وموتوراً، مذعوراً، خاطب الرئيس النائم علي الأرض.

- قم اجر يا سيادة الرئيس.

سمع الرئيس ذلك هبّ شبابه من تحت الثمانين عاماً، نهض بسرعة الرغبة في إنقاذ الروح ووقف علي حيله ونظر للأسود وهو يتمتم متهتهاً ومذهولاً:

- مش معقول.. مش معقول.

ثم أخذ يجري، رافعا ساقيه بأقصي ما يستطيع، رامحاً بأقوي ما لديه يسابق ريح الموت، ومخالب القتل، وجد الوزراء الرئيس يجري فكأنهم أفاقوا علي أهمية الجري، أخذ العشرات بالبذل الرسمية والقمصان البيضاء والأحذية اللامعة وعمليات

القلب المفتوح وتصلب الشرايين وسن السبعين يجرون بعزم ما فيهم والأسود وراءهم تمشي وتجري وتقف وتزأر كأنها واثقة من إتمام مهمتها.

في اللحظة التي رأي فيها الرئيس جبلاية القرود أحس أن الله يريده أن يبقي لشعبه.. فقفز وقفز خلفه عشرات الوزراء والضيوف والصحفيين ومصورو التليفزيون، كأن مخططاً كان معمولاً به لمواجهة الأسود بالقرود.

وصل الأسود وقد بلغ عددها الآن سبعة بتمامهم حتي سور الجبلاية، صعدت بمخالبها وأقدامها إلي سطح السور وبدأت تسير عليه ممعنة النظر في مشهد تكدس الرئيس ورفاقه وسط كومات من الصخور وكذا قرد يلاعب رأس الرئيس وآخر يشد الجاكت وثالث جالس علي فخذيه والرئيس آمن معها، رعشته تحيط أجسادها بتدليل مداعب ويربت علي شعورها وظهورها، لم تر الأسود سوي حمار مؤخرات القرود في المواجهة حيث غطت القرود علي رءوس وأجساد البشر.

وقفت الأسود رافعة سيقانها لأعلي كل علي حدة، كل بعد الآخر، وتسلم كل أسد من زميله شعلة الزئير المدوي الغاضب الصاخب.

حتي ظهر الحراس الثلاثة الآن قادمين وقد أعياهم الأسي وخيبت الأسود آمالهم، وقفوا فوق السور ناظرين إلي الجبلاية العميقة التي اشتبكت فيها أذرع حكام البلد بسيقان القرود ووجوههم البضة بمؤخرات القرود، دماؤهم وكسور ضلوعهم

بقفــز وتنطــيط القــرود. الجــبلاية معقدة الصخور، متشابكة المنحنــيات والتضــاريس، والرئيس يتخفي خلف قرود تتعافي عليه.

في تلك اللحظة صرخ الحراس الثلاثة:

– حسبي الله ونعم الوكيل.

أخرجوا مسدسات مفككة من تحت طيات ملابسهم، ركبوا أجــزاءها وأحكموا تثبيتها ثم استداروا للأسود التي هبطت من فــوق الســور بمجــرد رؤية مدربيهم قادمين نحوهم، رفعوا المسدســات فــي الهواء وأطلقوا الرصاص تباعاً بحسرة وألم وخيــبة أمــل وضيعة علي أجساد الأسود، فخرجوا بين ميت وجريح جرح الموت وتحول زئيرهم إلي طن وأن وزن.

ثــم تــبادل الحراس الثلاثة النظرات طويلا وعميقاً رغم خطف اللحظة وارتباك الفوضي وقشعريرة الرصاص ورعشة الموت وانفجار الرعب.

أطلقــوا الرصــاص كــل علــي الآخــر لينتحروا موتي بأسرارهم.

٧

ليلتها كان حاضرا في صالون الجناح الرئيسي في القصر الجديــد الــذي كــان مزدحما إلي حد الفوضي صخب وضجة وتوتر ورهبة وخوف وارتباك كل هذا مبثوث في فضاء المكان تلمحــه العيــن الخبيرة بالأسرار الخبيئة في العيون وحركات الأجساد وتقديم التحيات والكلمات المقتضبة والحروف المدموغة والأنفاس المضغوطة والسكون المرتعد والإحساس بأن نبضات البدن رعد مدو في عروق مخنوقة، كان ولاشك يحس أن شيئا ثقــيلا ومريعا قد جري، إلا أنه لم يبذل جهدا ضائعا في فض كمــون الغمــوض لأن استدعاءه ولاشك كان بسبب هذا الجلل الذي لم يفصح عن سبب كونه ولا حضور كنهه حتي الآن.

كان قد شاهد جزءا من بدايات الاحتفال بمرور مائتي عام علــي إنشــاء حديقة الحيوان الذي افتتحه الرئيس هذا الصباح، لكن الإرسال التليفزيوني انقطع وعاد بعدها بفترة، أكدوا نهاية الاحتفال وعودة الرئيس إلي منزله دونما تفسير للانقطاع سوي الأعطــال الفنــية، حــاول أن يعرف ماذا حدث بحسه الأمني المــدرب، لف المحطات الفضائية عبر الطبق الهوائي لكن لا حــس ولا خــبر، كان يعرف أن الرئيس قد أصدر قرارا بألا

يصور الأحداث والمناسبات التي يحضرها سوي التليفزيون الوطني ومهما كانت عالمية الحدث الذي يجري في عاصمة بلاده، فلا يمكن لأي كاميرا غير وطنية أن تصور شيئا، وكان يعيد بنفسه توليف المشاهد المصورة ثم يعاد بثها، وفي حوادث غير اعتيادية وأمور استثنائية - غالبيتها فرح- كان يسمح بالبث المباشر، من هنا أدرك أن الأمور سوف تدخل خانة التوقعات والاستنتاجات حتي يصدر بيان رسمي يوضح ما غمض، في الطريق بعد تلقيه الاستدعاء الرئاسي عرف من سائقه الخاص أن كلاما يدور وشائعات يتسمعها الناس حول تعرض الرئيس لمحاولة اغتيال أثناء إعادة افتتاح الحديقة، لكن الإذاعات الأجنبية التي أدار لها الراديو خصيصا في السيارة لم تقل شيئا.

في نفس اللحظة التي انتهي فيها من رشف فنجان القهوة، طلب منه أحد سكرتارية الرئيس الحضور إلي قاعة الاجتماعات، عندما انفتح الباب فوجئ بعشرات الكاميرات ومصابيح الإضاءة وازدحام صحفيين، طلب منه السكرتير أن يبقي لحظة، توقف عند ركن القاعة القصي عندما دخل الرئيس ومعه نجمة السينما الأمريكية، كانت في ثوب أبيض نصف عار وزهو العجائز الفاضح ابتسم كلاهما للأضواء والكاميرات، وبدأت وقائع مؤتمر صحفي لم يستمر سوي ثلثي ساعة سأل من سأل واستفسر من استفسر، صحفي واحد فقط سأل عن الاضطرابات التي سمعوا عنها أثناء احتفال حديقة الحيوان، نفي

الرئيس باسما أي اضطرابات، وأضاف بسرعة لعلك تقصد ثورة بعض حيوانات الحديقة أمام الأضواء والكشافات الخاصة بالتصوير، لقد كان أمرا عاديا لايشكل أي تعكير لصفو الاحتفال ثم تدخلت النجمة فشرحت كم كان الاحتفال رائعا وشكرت الرئيس علي اهتمامه بالحيوانات وحرص سيادته بنفسه علي حضور هذا اليوم الذي صار رائعا بمشاركته ووعدت أنها سوف تحضر مرة أخري للبلاد كي تتمتع بجمال شتائها كما هو مشهور عنها.

انفض المؤتمر ورأي الرئيس يلوح له أن يأتي، مشي خلفه حين انصرفت النجمة بعد مصافحة الرئيس بحرارة وطبعت علي خده قبلة ثم أخذه من يده ودخلا قاعة جانبية، جلس عندما أمره الرئيس بذلك ثم فوجئ، بالرئيس يطلق شخرة من أعماقه وبدأ حديثا عاصفا يتهم فيه كل من حوله بالجبن والتفاهة ثم توجه بالكلام إلي وجهه تماما:

- طبعا عرفت ماذا حدث النهارده؟

قال: لا في الحقيقة

صرخ - واضح إنك حمار مثلهم

ثم أضاف بعصبية:

- اليوم يا أستاذ تعرضت لمحاولة اغتيال، ولولا أنه ليس هناك تليفزيون أجنبي بيصور كانت بقت فضيحة بجلاجل، تعرف كم كلفتني تغطية هذا الحادث حتي الآن، أكثر من عشرة ملايين دولار.. رشونا كل من كان موجودا حتي لا يذيع سر ما

حدث، هددنا وسجنا العشرات في أقل من ساعة، تعرف الممثلة القحبة اشتركت في هذا المؤتمر بكم؟ بثلاثة ملايين دولار.. وطبعا ح تطلع إشاعات من هنا للصبح.. كل هذا ليه، لأن رجالتي حمير.. هل أنت حمار مثلهم..قل لي من الأول عشان أكون علي نور؟

سكت الرجل حتي تكلم الرئيس

- أنا قررت النهارده أعينك مديرا لجهاز الأمن الوطني، ومن بكره الصبح عايز تقرير كامل عن العيال اللي حاولوا اغتيالي في الجنينة.. جثثهم في الداخلية وقد أبلغت الجميع بالقرار.

أخيرا فهم.. وبعدها نطق:

- لكن سيادتك أنا تركت الخدمة في الجهاز منذ عامين وكنت في البلد إجازة من إجازاتي سفيرا للبلاد في أوروبا.

قال الرئيس وهو يخرج من القاعة وبمنتهي الانزعاج والقرف:

- كل ده خلص واتغير.. اتفضل روح شوف شغلك.

وراح مدير الجهاز يري شغله، وبعد معاناة أيام طويلة قدم للرئيس تقريره، مروضو الأسود لايوجد أي أرشيف لهم في أي من الجهاز المدني ولا أي جهاز أمني.. لا بطاقات شخصية ولا جوازات سفر، ولا صور لا علاقة لهم بالسيرك، إدارة الجنينة اتفقت مع ثلاثة مروضين آخرين بعد حادث وفاة مروضي الأسود في ألمانيا، يوم الاحتفال حضر الثلاثة الجدد ولم يهتم

أحد بمعرفة هوياتهم أو التأكد من شخصياتهم.. وجدنا الثلاثة الأصليين مخدرين وفي غيبوبة في مستشفي العاصمة نتيجة حادث تصادم وقع لهم في أحد الشوارع المطلة علي النهر.

لم يكن العالم مهتماً كثيرا بما يجري في البلاد، حيث لم يكن الرئيس يؤرق أحداً خارج حدود وطنه، وكان هناك غزو أمريكي لعاصمة إحدي دول أمريكا اللاتينية طغي علي الأحداث، كما أن الرشاوي والتهديدات أدت إلي نتيجة مبهرة في إخفاء حادث ومحاولة الاغتيال.

لكن بعد شهر من تسلمه مسئولية الجهاز الوطني حدث ماهو أسوأ من جنينة الحيوانات، حيث كان الرئيس في زيارة لإحدي المناطق السياحية في شمال البلاد حين دار حوار بينه وبين وزير السياحة في حضور عدد من الوزراء والصحفيين الذين يتابعون الحدث ولا أحد يعرف حتي الآن ماذا قال وزير السياحة إلي الدرجة التي أغضبت الرئيس للغاية، إلي حد أنه نسي نفسه واندفع ناحية وزير السياحة الذي خاف وبهت من اندفاع الرئيس فتأخر قليلا من هول الدهشة والتفت كمن يبحث عن أحد يحميه وهو يلهث فإذا بالرئيس يمد قدمه ويضربه حتة دين شلوت في مؤخرته وهو يصرخ:

- أنت بترد عليّ كمان:

ارتفعت أمواج الفوضي وتلاحمت مشاعر الذهول بين الحاضرين، وأسرع البعض يحاول تهدئة الرئيس فأمسك بذراعيه وكان الرئيس يفلت منهم مقررا - وهو يلعنهم- أن

يضربهم بالشلوت هم أيضا، بينما أمسك الحرس الرئاسي بوزير السياحة حتي لا يفر من أمام الرئيس فتبقي واقعتهم سودا، ربما أراد أن يضربه مرة أخري.

في وسط هذا اللهاث والارتباك، استطاع مصور يعمل لإحدي وكالات الأنباء أن يمر بكاميرته قبل أن ينتزع الحرس كل أفلام الكاميرات الأخري ومضي يومان دون أن ينزعج أحد حتي فوجئ مدير جهاز الأمن الوطني بالصحف الأجنبية تصدر صباح أحد الأيام صورة الرئيس يضرب وزير السياحة بالشلوت في صدر صفحاتها الأولي والغريب أن الغزو الأمريكي لعاصمة في أمريكا اللاتينية كان لايزال مستمرا، إلا أن هذه الصورة طغت علي كل اهتمامات الصحف وقنوات التليفزيون في العالم كله.

كان الرئيس قد أمر وزير السياحة بنسيان الموضوع وقال بعزم مافيه في مجلس وزراء عقد خصيصا لهذه القضية إن أي وزير يعاير زميله وزير السياحة بضربه بالشلوت فلن يتورع الرئيس أن يضرب هذا الوزير الآخر بالشلوت وقصاد الكل.

وحينما أخبرت الرئيس بأن وزير السياحة يشيع أنه سوف يستقيل احتجاجا علي ذلك الشلوت، أمرني أن أقول له التالي:

١- إذا استقلت فسوف نقدم مخالفات الوزارة إلي النيابة وسوف تسجن وأنت تعرف ماذا فعلت وماذا أخذت من ملايين؟

٢- لو استقلت فلن تضمن وظيفة في أي بنك أو شركة كعضو أو رئيس مجلس إدارة ولن تحصل سوي علي معاشك من الوزارة.

٣- لو كنت راجل استقيل.

لكن ظهور الصورة جعل الموضوع يكبر إلي حد حافة الخطورة علي سمعة البلاد الدولية، فطلب الرئيس من مدير جهاز الأمن الوطني أن يتحرك بسرعة، وقد تحرك فعلا، استأجر الجهاز شركة تقنيات الخدع السينمائية والجرافيك وهي الأشهر في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم، ودفع خمسة ملايين دولار من أجل أن يظهر مهندسوها في برنامج دعائي مدفوع الأجر يذاع علي شتي شاشات العالم يؤكد أن الصورة مركبة وهي تحمل خدعة ولاشك.

وتولي الجهاز حملة لمؤسسة صحفية إنجليزية استأجرت عشرات الخبراء فيما يشبه المسابقة حول تأكيد أو نفي الصورة واشتدت الخلافات بينهم مما أربك العالم المهتم تماما.

وظهر وزير السياحة ضاحكا معلقا علي الصورة بأنها دعابة سخيفة.

ثم ركز الجهاز علي مصور الوكالة الصحفية الذي التقط الصورة، فاعترف أنها صورة مزيفة وحصل مقابل ذلك علي مليون دولار بينما اعتذرت الوكالة عن نشر الصورة في بث يومي لها لمدة أسبوع.

لكن المذهل أن تقارير الجهاز التي تم رفعها للسيد الرئيس عـن الـرأي العام المحلي تضمنت مفاجأة حقيقية، فقد استقبل الشـعب هذا الشلوت بفرحة وتشفي وشماتة في الوزارة، وكان سـائقو التاكسي الليلون يبثون تقاريرهم أن مستقلي التاكسيات كـانوا يحيون الرئيس علي هذه الفعلة وأكدوا أن الوزارة كلها عايزة الضرب بالشلوت، أما المقاهي فبدأ زبائنها في اقتراحات محمومـة حـول مـن يستحق من الوزراء الآخرين الضرب بالشـلوت كذلـك.. وكشفت التقارير أن سكان جنوب البلاد قد تحمسـوا لفكرة ضرب المسئول بالشلوت وأنهم أرسلوا برقيات مـبايعة وتأيـيد للرئيس علي خطوته الحكيمة بضرب الوزراء بالشلوت.

وقد ثبت أن أكثر من ستمائة موظف ومدير عام قد تقدموا بشـكاوي في أقسام البوليس ضد رؤسائهم لأن الرؤساء احتدوا علـيهم فـي العمل وضربوهم بالشلوت أسوة بالسيد الرئيس، وانتشـر فـي الـبلاد شعار مكتوب علي كل جدران المصالح الحكومية بخط يكاد يكون واحدا يقول:

«أشتاتا أشتوت.. حكومة عايزة الضرب بالشلوت»

ولمـا بلغ هذا الرئيس كاد يتراجع عن نفي حقيقة الصورة لكنه ضحك لأسابيع متتالية علي وفاء شعبه له ومبايعته لشلوته.

٨

جلسوا في الصالون..

فسـيح ومـريح، مقاعده مبطنة بوسائد من القطن ومغلفة بحريـر مـنقوش بزهور صغيرة دقيقة بين الصفار والزرقة، كانـت فناجين القهوة قد تبعثرت في أرجاء الصالون فارغة أو نصـف فارغـة وخيوط البن السائل مرسومة إثر الشرب علي ظهـر الفناجيـن، وآثـار السجائر ملقاة في كل زاوية، تحت الأحذيـة، فـي الطفايات، وعلي أطراف السجاجيد، عندما قام العمال بتنظيف الحجرة بعد فض اجتماعها، أحصوا أن حوالي سبعة من الأشخاص دخنوا ١٨ علبة سجائر (وصلت أن استلفوا علـبة سجائر الحرس والعمال بأصنافها المحلية) وشربوا ٤١ فنجان قهوة معظمها سادة واستهلكوا ١١ زجاجة مياه معدنية.

وحيـن فتح العمال الباب كان الدخان خانقا يملأ الصالون كأنـه آثـار حـريق والهواء المحبوس في الغرفة بات ملوثاً ومكتوماً، حتي إنه لايوجد أحد دخل المكان لثلاث ليال تالية إلا وقد كح أو تنحنح أو طرد بلغماً أو قال يا ساتر.

رعشة الأيدي وهي ترشف فنجان القهوة وهزة الأعصاب المـتوترة المفضـوحة في طحن السيجارة في الطفاية دون أن

يدخن نصفها، ورفع النظارات عن الأعين وتدليك الوجه بكل الكف، والوقوف والجلوس والمشي في الغرفة ثم التوقف فجأة، وتمدد أحدهم علي ظهره فوق كنبة بعيدة وقد أرهقه الجلوس حتي أنَّت فقرات عموده، كانت شمسهم كأنها تغرب من تلك الغرفة، وكان كل منهم يحاول أن يتشبث بآخر أشعة منهوكة تداري ضعفها في لحظات الوداع فتسرع بالرحيل.. كانت زلزلة الأرض تحت مقاعدهم مؤكدة، وكان كل واحد منهم يحاول أن يجد عموداً يرتكن عليه حتي يتفادي سقوط السقف أو انفجار الأرضية، لاشك أن كلا منهم كان يتمني أن يغمض عينه ويفتحها فلا يجد ما وجده قد وُجد ولا ما سمعه قد جري، أو علي الأقل يغفو فيصحو، فإذا بكل هذا حلم كابوسي عابر أو حادث كارثي وقد نجا منه.

وزير الإعلام عملها، غفا علي الكنبة وهو يدرك أن النهاية حلت والأقدار طلت، لعله رأي فيما يري النائم، أو فيما يستيقظ من ذكري في نفس المستيقظ أنه واقف علي حبل في السيرك محشو بالأضواء المبهرة والأنوار الكثيفة المتقاطعة علي وجهه وجسده وهو يسير علي الحبل مرتديا بنطلونا مما يرتديه راقصو الباليه ولاعبو السيرك، عاري الصدر، يمشي علي الحبل ثم يقفز فوقه ضارباً بكعبيه الحبل الممطوط المدود فيطير في الهواء، يمد يديه - وسط تصفيق الجمهور - إلي اللوح الخشبي العريض المعلق بأحبال متينة في سماء السيرك يلمسه يمسكه تشتد حرارة الجمهور في اندفاع حماسي يهتفون باسمه،

يستدير بذراعيه ثم بجسمه كله علي الزانة الخشبية ثم يطير في الهواء دورة ثم اثنتين ويفرد ساقيه وذراعيه ثم يثني ساقيه إلي صدره ويضم ذراعيه إلي جنبه وينظر للحبل صارماً جاداً سوف يهبط فوقه الآن تماماً ليقفز عليه قفزتين ثم يثبت قدميه ويسير علي الحبل بحرفنة يشتعل فيها إعجاب وحماس المتفرجين، التفت للجمهور فرأي الرئيس جالساً مبتسماً مستهزئا ملوحا بيده أي مع السلامة، نظر الوزير تحته فاختفي الحبل وهو يطير في الهواء وحده يمعن في الأرض تحته حين اندفع جسده نحوها في آخر مراوغات لاعب السيرك حين يكتشف أن اللعب قد انتهي.

استيقظ من غفوته علي صوت يشخط.

- دا مش اجتماع دا سيرك.

نظر فرأي مدير جهاز الأمن الوطني الوحيد الذي بدا أنه يحاول التماسك، هل لايزال مغفلاً يعتقد أن دولته التي دالت بقتل الرئيس سوف تعود فاتحة ذراعيها له، هل يعرف من الذي غرس السكين في قلب الرئيس ليفرغ بالونة نظامهم وحياتهم من الهواء.. هواء المال والنفوذ والسلطة والسلطان.

- لماذا تشعرون أنكم متم معه؟

سأل مدير جهاز الأمن الوطني، فرد عليه وزير الداخلية:

- المشكلة أنه لم يمت موتة ربنا.. لقد تم اغتياله في عقر داره في قلب بيته، هذا معناه أن هناك قوة لانعرفها تمكنت منه، ومن المؤكد أن لديها خطة لما بعد التخلص منه، وبما أننا

لانعرف هذه الجهة فلا نعرف الرصاصة القادمة سوف تخرج من أي مسدس؟

رد عليه مدير الجهاز كأنه يحدث نفسه.

- إذا كنا لانعرف من أي مسدس سوف تخرج الرصاصة القادمـــة فعليـــنا أن نعـــرف من أي مسدس يستحيل أن تخرج الرصاصة القادمة.

- تقصد نؤمن ظهورنا؟

ثـــم عـــاد وكاد يصرخ أو كاد يبكي أو لعله صرخ وبكي فعلاً.

- بس أنا أول واحد فيكم لازم أقدم استقالتي، لأن الرئيس القادم سوف..

ثم هبت ريح صمت.

- ثم قال وزير الإعلام وهو يفك رابطة عنقه:

- الرئيس القادم.

تدخل مدير الرئاسة.

- قبل أن نسأل عن الرئيس القادم يجب أن نعرف مصير الرئيس السابق؟

قال مدير الجهاز:

- أشـــكر مدير الرئاسة لأنه ذكرنا أن هناك رئيسا مقتولاً في الدور الثاني من هذا القصر.

تســـاءل وزيـــر الإعـــلام وهو يدلق القهوة رغما عنه من الفنجان علي المائدة ويلحقها بمنديل ورقي ليجفف ما سال:

- هل سنعلن للعالم وفاة الرئيس؟

وزير الداخلية:

- ح نقول إيه للعالم. رئيسنا اتقتل في بيته وفي سريره؟

وهـــو يكـــرمش علبة السجائر ويبحث عن سيجارة أخري وجدهـــا فـــي علبة بعيدة لاتخصه، سحبها وأشعلها وقال رئيس الوزراء:

- لـــو قلنا إنه مات فهذا أمر طبيعي، لقد وصل عمره إلي ٨٣ سنة، صحيح كانت صحته بمب ولا شاب في الأربعين ولم يـــتعرض لأي مرض طيلة حياته، لكن دي أعمار ربنا، لا أحد سوف يشك فينا.

مدير جهاز الأمن الوطني أفزعته الجملة الأخيرة فهتف:

- يشك فينا.. وهل فعلنا شيئا؟

قال وزير الإعلام:

- يقصـــد الدكتور إن أحداً لن يشك في بياننا الرسمي أنه مات بالسكتة القلبية مثلاً.

وزير الداخلية تدخل:

- وهـــل معقول أن الخبر لن يتسرب، مستحيل! وساعتها نبقي كأننا عاملين عملة ودارينا الموضوع حتي لانتورط.

مديـــر الرئاسة وقد جلس في ركن تحت نافذة مغلقة وهو يشعل سيجارة من سيجارة.

- ألا تلاحظون أننا نسينا موضوعين؟

استفهم الجميع بعيونهم فأكمل:

- كيف سنجد ابنه؟

رد رئيس الوزراء بسرعة ندم عليها:

- ابنه.. الله يعلنه ويلعن أبوه.

لم يكن لدي أي منهم لا الحيل ولا الهمة ولا الرغبة ولا النية في الدفاع عن الرئيس الميت وابنه أمام شتيمة رئيس الوزراء، بل فيما بعد قال وزير الإعلام إنه أحس أن الرئيس مات فعلاً حين تمكن رئيس الوزراء من سب سيرته.

- قال مدير الجهاز:

- صحيح.. هذا موضوع يجب أن نأخذه في اعتبارنا.. وهل نبلغه في أمريكا حيث يعقد آخر صفقاته أثناء حضور جمعية رجال الأعمال أم نستدعيه ونقول له الموضوع هنا وهل سنقول له مات أم قتل؟ وهل سيري جثته أم لا؟

لم يجد أحد جواباً جاهزاً لأي من هذه الأسئلة فصمتوا ثم قال مدير الرئاسة:

- أما الموضوع الثاني فكيف سنبلغ الحكومة الأمريكية بالحدث وهل يمكن أن نكذب عليها إذا كذبنا علي الآخرين؟

قال رئيس الوزراء:

- أنا باقترح استدعاء السفير الأمريكي لهذا الاجتماع وإفهامه أنه اجتماع عاجل وخطير مع الرئيس!

رن جرس اللاسلكي الخاص بمدير الرئاسة الذي تحدث إلي شيء في كمه لعله الميكروفون ثم انتفض قائماً فانتبه الآخرون لحركته فسأله أحدهم:

- هل هناك جديد؟

بينما صرخ رئيس الوزراء:

- أحسن تكون دي لعبة والرئيس صحي.. أنا قلت فعلاً لايمكن يموت.

تجاهلوا ملاحظة رئيس الوزراء وهمس مدير الرئاسة.

- وزير الحرب دخل القصر الآن وهو فى الطريق إلينا.

حدق فيه رئيس جهاز الأمن الوطني.

- هل هذا انقلاب؟

ثم استدار رئيس الوزراء برأسه دورة كاملة كأن دوامة بحر تلفه. متي رجع وزير الحرب؟ ألم يكن في رحلة علاجية بلندن حيث تم تغيير أربعة شرايين في قلبه؟

أجاب وزير الإعلام:

- حقا..

قال وزير الداخلية:

- لقد اتصل بي أمس الأول بعد وصوله للبلاد وقال إنه لن يعلن وصوله قبل أسبوع حتي يسترد بعضا من صحته ويستكمل فترة النقاهة في استراحة الوزارة قبل أن يتوافد عليه المهنئون بشفائه فيشعر بالإجهاد مبكراً.

نهره رئيس الوزراء باعثا روحه الخامدة.

- وكيف لم تخبرني يا سيادة الوزير؟

تدخل مدير الجهاز.

- لســنا في وقت المعاتبة.. إن حضوره ضروري فعلاً..
لكن هل هي الصدفة أم أنه عرف؟
قال مدير الرئاسة:
- كيف تسرب الخبر إذن؟
انفــتح الــباب ودخل وزير الحرب مكدوداً ومرهقاً، كان وزنــه قــد انخفض كثيراً ونحافته بدت مرضاً وليست رشاقة عسكرية، والتجاعيد بانت علي وجهه كاملة، ولاحظ البعض أن انحــناءة قد ظهرت في ظهره تحت عنقه مباشرة وأن أصابعه السمراء كانت ترتعش حين تمسك بأي شيء أو حتي حين يشير بها في الهواء.
ســارع مديــر الرئاسة بإفساح أول مقعد مريح له، وأحكم غلــق الباب وأخذ وزير الحرب نفسه من إرهاق المشوار إلي الصــالون، بينما قام الجميع ليسلم عليه بكلمات ترحيب وتهنئة مقتضبة، وكانت ظهور الجميع تنحني كأنها تريد لموجة البحر العالية القادمة أن تعبرها في أمان.
همس من فرط إجهاده يطمس حروف الكلام.
- البقية في حياتكم!
ثم أضاف بهدوء - ماذا حدث؟
بــدأ مديــر الرئاســة يحكي تفاصيل اكتشاف الاغتيال ثم أضاف:
- لــم أكــن أعــرف أن سيادتك قد وصلت بالسلامة إلي الــبلاد. - فأخــبرت السادة الموجودين هنا بالحضور للأهمية

للبــت فــي الأمــر، وكنــت قد تحفظت علي جميع الحراس المشــاركين في نوبة الأمس واليوم، وطلبت من رئيس الحرس اســتدعاء الدبابات الخاصة بالقصر الرئاسي تلك التي شاهدتها سيادتكم بالتأكيد تحاصر القصر في محاولة لتأمينه.
- تأمينه ممن؟
سأل وزير الحرب فلم يجد أحداً، فعلق:
- عموما هذا إجراء طيب وطبيعي؟
سكت فسكتوا - كل طرف يضغط علي إصبع الآخر بفكه، وانتظرا معاً من يصرخ أولا من الألم.. صرخ رئيس الوزراء طبعا حيث لم يطق صبراً:
- وسيادتك عرفت الخبر إزاي؟
أجاب في اطمئنان:
- هــل تريد يا سيادة رئيس الوزراء أن تتحرك دبابة في البلد دون أن أعرف؟
رغــم النبرة الواهية للتحدي السافر، إلا أن كلمة يا سيادة رئــيس الــوزراء التي ناداه بها أراحت رئيس الوزراء للغاية فتمتم:
- فعلاً.. فعلاً.
ثم سأله:
- وعلي أي شيء استقر المجتمعون؟
أجاب مدير جهاز الأمن الوطني:

– نحن الآن في وضع شائك ودقيق، عندنا رئيس ميت أيا كانت طريقة وفاته، دون أن يكون هناك نائب له تنتقل له الأمور بسلاسة وبساطة، إذن الأمر يدفعنا إلي السؤال من هو الرئيس؟ ومن سيختاره؟ دعنا من الإجراءات الدستورية فهذا وضع إجرائي، لكن المشكلة – إذا كانت هناك مشكلة – تكمن في اختيار الرئيس.

الشق الثاني من خطورة الموضوع أن الرئيس لم يمت موتاً عادياً، لقد مات مقتولا ولمزيد من الأهمية وفداحة الخطورة أنه اغتيل في قصره وفي سريره، مما يلقي ظلال الشك علي كل من اقترب منه ويهز الثقة في ثبات النظام وقوته، ويطرح هنا سؤالا ضروريا بالتأكيد: هل سنعلن للناس وللعالم أن رئيسنا مات مقتولاً ونعترف بحجم هذه المأساة؟ أم أننا سوف نخفي الخبر وهل يمكن إخفاؤه ولمتي؟ وعلي من؟ أما إذا اخترنا إعلان خبر الموت بالاغتيال.. فعلينا أن نقدم المتهم أو نشير إلي المتهم وسوف يظل بحثنا عنه محل نظر وانتظار المجتمع المحلي والدولي، والكل سوف يطالب بالقاتل. وعلانية ذلك قد تقود التحقيق إلي التسرع أو إلي التجني أيهما أو كليهما، أنت كما تري القصة معقدة خصوصا أننا لم ننس أن لنا حليفا استراتيجيا اسمه الولايات المتحدة الأمريكية للدرجة التي فكر فيها بعضنا أن نستدعي سفيرها لحضور هذا الاجتماع.

أومأ وزير الحرب وبدا ارتياحه.

– أشكرك علي هذا العرض الأمين لحجم المشكلة التي نواجهها، لكن ألست معي أنه يستحسن أن نصل لقرار ثم نستدعي السفير الأمريكي لنبلغه به بدلاً من أن يتدخل أو يتداخل معنا في أمور تخصنا نحن أكثر.

قال رئيس الجهاز بسرعة:

– أنا معك تماما.. فقط أحب أن أوضح أنني لم أكن صاحب اقتراح استدعائه للمشاركة معنا.. لكنني كنت أعرض عليك ما تمت مناقشته.

– حسنا.. حسناً.. فقط أرجو أن تكفوا عن التدخين قليلا حتي لا أتهمكم بأنكم تحاولون السيطرة علي قواتي باغتيالي بدخان سجائركم، توجسوا وابتسموا وضحكوا وأدركوا أنهم ليسوا حزاني علي موت الرئيس، لم يضبط أي منهم الآخر وفي حدقته دمعة، أو أسي، أو شجن.. فقط تابعوا الخوف من الآتي والترقب للحوادث الجلل التي ربما تعصف بهم، كان خوفهم علي سلطتهم ونفوذهم أعلي كثيرا من حزن خائب علي رئيس مغرور.. بل ربما كانوا يشعرون بالتشفي والشماتة فيه، كان بعضهم – أو كلهم – يظنون أنه كان يستحق وأن أيا منهم لو كان خارج السلطة الآن لربما زغرد لو علم بموته، أو ربما أغلق علي نفسه باب حجرة نومه ولف خصره بإيشارب زوجته ورقص.. رقص طرباً بموت الملك نمرود.. لكنهم كسبوا منه وعاشوا في كنفه ومصوا دم وطنهم معه وبه ومن خلاله،

فشعروا ليس بالحزن لوفاته ولكن بالحزن لغموض مستقبلهم بعد وفاته، أما هو فلن يفتقده حين يفقده أحد.

كان وزير الحرب قد طلب معاينة غرفة نوم الرئيس ورؤيته للمرة الأخيرة.

صعد معه مدير الرئاسة، بينما انحني رئيس الوزراء علي مدير جهاز الأمن الوطني وهمس مازجا الكلام بدخان السيجارة.

- لقد عرفنا إذن مسدساً جديداً، لن تطلق منه رصاصة ضدنا، مدير الجهاز اختلس من صمته بضع كلمات.

- المسدسات كثيرة يا دكتور.

حين هبط وزير الحرب، أطفأ الجميع سجائرهم بسرعة وأحكم أمين الرئاسة غلق الباب واطمأن علي إقفال كل الكاميرات والميكروفونات المدسوسة في الأركان والأسقف للتنصت وجلس وزير الحرب يعاني من إجهاد الصعود إلي الدور العلوي (منع الرئيس تشغيل المصعد الداخلي بعد وفاة حرمه، بل أمر بعدها بشهور بنزع المصعد، فهو يري أن من يستخدمه لأجل ثلاثين درجة سلم في حاجة إلي أن يموت أفضل له وللمصعد).

قال وزير الحرب وهو ينهج:

- لقد أخبرني مدير الرئاسة بمشكلة ابن الرئيس! وأنا أسأل: هل له أي وضع دستوري أو قانوني؟

عاجله رئيس الوزراء:

- إطلاقا- إنه فقط وزير الشباب ورئيس جمعية المستثمرين ومستشار الرئيس للشئون الاقتصادية ورئيس مجلس إدارة جريدة الشباب اليومية والعضو المنتدب لبنك التنمية المالية وعضو بالبرلمان ومساعد رئيس الحزب الحاكم ويملك أربع مدن ملاه في عاصمة البلاد ومدنها الأولي، والمالك الرئيسي لشركةً في الأدوية وأخري في المقاولات والثالثة في السياحة ورابعة في السيارات وشريك ١٨ رجل أعمال محلياً في مصانعهم وتجارتهم وزوج السيدة كريمة أشهر رجل أعمال سعودي في العالم.

هذا فقط كل ما يمتلكه ابن الرئيس!

رد وزير الحرب باقتضاب:

- لقد كنت تحفظ الأناشيد في المدرسة بسهولة..

عقب وزير الإعلام: خطب الرئيس كذلك، كان يحفظها بسهولة.

أسرع مدير الجهاز بفض حلبة الغمز واللمز علي رئيس الوزراء وقال:

- عموما كل هذه المناصب أكثرها تشريفي وورقي وبلا تأثير حقيقي، فضلا عن أن قوته كلها كان يستمدها من أنه ابن الرئيس، وعندما يكون ابن الرئيس الراحل فهذا أمر يختلف قطعاً، ثم إنني أثق في ذكائه وأنه سوف يفهم ضرورة الانسحاب في صمت، حتي أنني لا أشارككم (أو أشارك بعضكم) محاولة إخفاء أمر الاغتيال عليه، فهو سوف ينفعل

ويـــتأثر بالطـــبع، لكـــنه لايملـــك أن يفعل شيئا سوي الضجة والصـــخب السياسي والإعلامي وهو ما يعرف جيداً أنه سوف يكـــون أول مـــن يدفع ثمنه ولذكائه سوف يدرك أن من حاول اغتـــيال والـــده لن يتورع عن ارتكاب حماقة أسهل، ثم إن ابن الرئـــيس يضع عمارته كلها علي أعواد ثقاب بلا أساس سوي وجود الرئيس، وحين يختفي الرئيس، فأي عابر سبيل يمكنه أن يدفع العمارة من فوق أعواد الثقاب فتسقط أو أن يشعل الأعواد فتحترق.

أراد مدير الرئاسة أن يضع قنبلة تحت مقاعدهم فقال:

- ولكنـــنا نـــتجاهل جميعا أن الرئيس قد عشم ابنه بولاية العهد وأنه كان يظهر معه في كل لقاءاته السياسية والاقتصادية وزياراتـــه الخارجـــية، بـــل لقد أوفده في أكثر من بعثة لدول خارجية، وأظن أنه كان قد أعد قراراً بتعيينه بالفعل نائبا لرئيس الجمهورية.

عقب وزير الحرب:

- وأين هذا القرار؟

ثم قال رئيس الوزراء:

- هذه أول مرة أعرف بهذا القرار!

قال وزير الإعلام:

- القرارات تصبح قرارات حين تصدر وتعلن، لكن طالما قلت مشروعا أو نية فلا يمكن أن نتكلم عن القرارات.

وزير الداخلية شارك بدوره:

- وعلي فرض أن هناك قراراً.. أين هي أوراقه الرسمية، وهـــل نشر في الجريدة الرسمية، وهل تم إعلانه في أي مؤتمر أو اجتماع؟

قرر أمين الرئاسة أن يحرق المركب قبل أن يُظهر قمصان النجاة.

- القرار معي.

بهـــتوا جميعا، حيث إن انفجار المفاجأة غمس شظاياه في أعناقهم.

هنا أضاف مدير الرئاسة:

- والمفاجـــأة أن القرار تم نشره صباح اليوم في الجريدة الرسمية، اكتسحتهم أمواج المصيبة فقال:

- ثـــم إن الرئـــيس كـــان قد قرر تأجيل الإعلان الرسمي والاحتفالات المهيبة لذلك حتي يحين موعد عيد ميلاده القادم.

الوحيد الذي نجا من الغرق كان مدير الجهاز.. قال:

- وهل أخبر ابنه؟

رمي مدير الرئاسة أول قميص نجاة وقال:

- لا.

عاد مدير الجهاز إلي ثباته ووجه كلامه إلي وزير الحرب:

- أولاً: لايوجد في الدستور أي نص علي أن يتولي نائب الرئيس منصب الرئيس - فهذا كلام يمت إلي العرف والرغبة في الاستقرار ولا يمت إلي الدستور بشئ.

ثم التفت لمدير الرئاسة:

- لعلك تتذكر أنه لايزال هناك دستور في البلاد.
وواصل كلامه مرة أخري إلي وزير الحرب:
- ثانــياً: الأمر ليس فرضا علينا، لو أردنا أن نضعه علي مقعــد أبــيه لفعلنا، لكنه قد يتركنا حوله بعض الوقت ثم سوف يــتخلص مــنا واحداً وراء الآخر رغم كل ما بذله بعضنا من مسح رأسه عند قدميه.
قال وزير الحرب:
- وماذا يقول الدستور في البلاوي اللي زي دي؟
قال وزير الإعلام:
- رئيس البرلمان يصبح رئيسا مؤقتا لحين انتخاب الرئيس الجديد.
علق وزير الداخلية:
- لكن البرلمان منحل.
أضاف وزير الإعلام:
- يبقي رئيس المحكمة العليا.
لمــا رأي أمين الرئاسة أن ركاب المركب لم يغطهم الماء بعد، قرر أن يسد ثقب السفينة قال:
- عمومــا أول مــا عرفت وفاة الرئيس اتصلت بالمطابع الرســمية وطلبــت منها إرسال كل نسخ الجريدة الرسمية التي تحمل قرار تعيين نائب الرئيس إلي القصر الرئاسي وهي تحت تصرفكم.
ابتسم وزير الحرب مرتاحاً.

- أحسن حتي نتجنب وجع القلب.
ودون أن يفكــر فيما فعل فقد فعله، وضع يده علي صدره ومشــي علــي طــريق خيوط الجرح الذي شقه مشرط جراح إنجلــيزي من أصل باكستاني في لندن لم يتبين ملامحه الدقيقة والصــفراء ونحافته المفرطة وقصره البين إلا عندما جاءه بعد العملية ليطمئن عليه، كان منظره مثل عسكري مجند صادفه في موقــع يزوره، لايعتني به ولايعنيه في شيء، لكن هذا الطبيب أنقذ حياته من ممات محقق، ابتسم له الطبيب وقال:
- أنت جندي شجاع للغاية، لقد قاتلت في العملية ببسالة.
اســتدعي وزيــر الحرب كلمات محفورة في ذاكرته من ضــابطه الأول علي عتبة دخوله الجبهة وأعادها للطبيب كأنها بسمت صاحبها ورنين صوته وأدائه الجنوبي الغليظ.. قال:
- الجــندي الشــجاع هو الذي يدخل المعركة حرصا علي النصر وليس حرصا علي الحياة.
لــم يفهم الطبيب الباكستاني الإنجليزي التعبير بدقة، لكنه عقب في ابتسامة الرحيل المسرعة:
- عمومــا الحياة نصر عظيم في وقت لم يعد علي الجبهة أي جنود.
ســلم علــيه في اقتضاب ومضي تاركا فيه إحساساً غريباً ضــبابيا بالــنجاة وتمسكا أحمق بالحياة وجرحا طوله أكثر من ثمانية سنتيمترات في صدره يتلمسه كلما أحس أنه يريد الحياة،

وكلمـــا أحـــس أن الحياة قد لاتريده، ناوشه مدير الجهاز مرة أخري بثبات أعصابه في تلك اللحظات.

– تبقـــي القضـــيتان كما هما.. من الرئيس؟ وماذا سنعلن للناس؟

تدخل وزير الإعلام فوراً وكأن الكلمات محجوزة منذ فترة وراء أسنانه:

– طبعا نرشح سيادة وزير الحرب.

ارتفع صوت كالنحيب يشق الصمت الذي حط بعد كلمات وزيـــر الإعلام الخاطفة التي عبرت كأنها دوي البرق في ليالي الشـــتاء الطويلـــة، كان الصوت الناحب مثل صراخ طفل علي حجر أمه، صوت رئيس الوزراء الذي هتف:

– لـــن نجد لا أعظم ولا أهم من سيادة وزير الحرب، وأنا مع هذا الترشيح بكل قوتي.

كان وزير الحرب قد أحس منذ كلمات وزير الإعلام بوطأة الدهشـــة علي شرايينه المفتوحة، شعر بنبض فظيع ستتفجر له خـــيوط العملية وحين أتم رئيس الوزراء كلماته، كاد أن تسرق مـــنه الاســـتثارة روحه وتجري، كان واثقا أنهم لن يستطيعوا التآمر من غيره ولا فعل شيء دون مشورته وموافقته، لكنه لم يكـــن يـــتوقع أن يحتل صفهم الأمامي بمثل هذه السرعة، كان وزيـــراً مرضـــيا عنه من الرئيس والجميع، لأنه وزير راض وهـــاديء بـــلا طمـــوح ولا جنوح إلي شيء، مهذب في لفظه وتدخلـــه، مطـــيع لما يسمع حتي من وزراء مدنيين لايتمتعون

بمثل قوة ما يملكه، كتوم لا يذيع سراً ولا يكشف أمراً، صموت غـــير منشـــغل بما يقال أو يدور، لدرجة أنه كلما رأي مشهد اجتماع مجلس الوزراء في نشرة الأخبار التليفزيونية، تعجب، فكـــل وزيـــر أمام التصوير يقول أي كلام غير مسموع وغير مفهـــوم، أو ينحني علي زميل بجواره يتبادلان كلاماً فارغاً أو ملآنـــا، يتســـاهران ويتسامران معاً لحين انتهاء التليفزيون من تصـــوير لقطاتـــه التلقيدية، لكنه وحده لايكلمه أحد، لا يشاوره أحد، لا ينشغل بالميل عليه أحد، وهو لايكلم الآخرين، صامت محلـــق فيما أمامه، ملامح وجهه لاتشي بشيء، كما أنها لاتفي بـــأى أدلـــة علي الحزن أو الفرح، تداخلت الكلمات بعدها من الحاضـــرين، مديـــر الجهاز الوطني أكد أن ذلك يجعل الوضع أكثر استقراراً وأضاف:

– إن البلد سيدرك فوراً أن عملية انتقال السلطة تمت بسلام وبســـرعة وأن الـــنظام لايزال يحتفظ بقوته وجذوره، كما أن وجـــود وزيـــر الحرب علي قمة السلطة تقدير لأهم قوي داخل البلاد تحميها وتنتصر لها ونحن واثقون أن الرئيس الجديد من أشجع وأعظم الرجال في حياتنا السياسية.

لم يكن يعرف وزير الحرب ماذا يقول، فلم يقل شيئا، سمع فقط ما يقوله مدير الرئاسة.

– إننـــي أضع نفسي وكل فريق العمل في القصر الرئاسي تحـــت أمر سيادته فوراً ويعتبرني كما كنت دائما جنديا مخلصا وأمينا في أي معركة يخوضها، وأنا أعرف صلابة هذا المقاتل

وقوته وقدرته علي خوض غمار الحروب ببسالة تأتي له دوما بالنصر.

طبعا لم يكن وزير الحرب قد خاض حربا طيلة حياته، كما أنه لم يمسك سلاحاً إلا أسلحة التشريفة وأنه كان "ياورا" للرئيس ثم رئيسا لحرسه الخاص ثم وزيرا للحرب وأن أحدا لم يعرف عـنه أي خـبرة بالحروب إلا ولعه بحرب النجوم وهي سلسلة أفلام أمريكية كانت في مطلع مراهقته.

وزير الداخلية هو الذي تحدث أخيراً وقال:

– بالقطع أنا أضم صوتي إلي زملائي ونرجو من سيادته أن يـنزل علي رغبة رفاقه، ورجاله، وأنا علي يقين أنها رغبة الشـعب كلـه، وأثق أن نتائج الاستفتاء سوف تكون دليلا علي إيمان الشعب بقدرة ابنه البار علي تجاوز المحنة.

صفق مدير الرئاسة بيديه وقال:

– بعـد إذن السـيد الرئـيس سوف نعتبر موافقته مؤكدة وندخل فى التفاصيل.

كـان يجب أن يتكلم، لكن لا لسان ولا ريق ولا صحة ولا تماسك ولا يقظة كانت لديه، وأذهل الجميع بأنه لم يتكلم فعلاً.. فتكلموا هم مرة أخرى، أكمل مدير الرئاسة:

– إذن نـبلغ رئـيس المحكمـة العليا الذى يدعو البرلمان للانعقاد ونتقدم له بأوراق الترشيح.

أضاف وزير الإعلام:

– مع حملة إعلامية ضخمة تؤكد وقوف الشعب إلى جانب الرئيس الجديد وأؤكد أنها ستكون أقوى الحملات الإعلامية التى قامـت بهـا قنواتنا التليفزيونية تشهد على عهد جديد ومرحلة جديدة.

م يفتح الله على أحد بكلمة جديدة فاضطر مدير جهاز الأمن الوطـنى أن يطلـق كلاماً رصاصاً فى الفرح حتى أوشك أن يخرق أذن العريس.. قال مدير الجهاز:

– أحب أن ألفت نظركم ونظر السيد الرئيس الجديد إلى أن الدستور. يشترط أن يكون المرشح للرئاسة مدنيا، أى ليس من العسـكريين، شـعر وزير الحرب أن خيوط جرح العملية قد انفتحـت تمامـاً، بل ربما كانت الفتلة البنية فى يده هى خيط العملية.. أخيراً تكلم فى زهق وفزع:

– يعنى إيه.. أستقيل من الوزارة؟

أسرع رئيس الوزراء يركب ثوراً عصياً وهائجاً.

– معناه إيه الكلام ده.. لو ترك الوزارة من يضمن لنا أن الوزير القادم سوف يكون ولاؤه لنا.. (تردد وتهته لكنه أكمل) أقصـد للرئـيس الجديد، ومعنى ذلك أيضاً أن الوزارة بقوتها تكـون خرجت من إيدينا ومن حساباتنا لكن مدير الرئاسة ألقى باندفاع خراطيم المياه ليطفىء حرائقهم.

– أعتقد أن كلام السيد مدير الجهاز حقيقى دستوريا، لكن الدستور أيضاً لم ينص على ضرورة أو وجوب أن يكون وزير الحرب ضابطاً عسكرياً أو برتبة عسكرية معينة.

انطلقت زغاريد على هيئة أنفاس متنهدة لكن وزير الحرب تكلم ببراءة وفرح طالب نجح فى الامتحان.

- هـــوه فين الدستور ده.. أنا عمرى ما قريته دا باين فيه حاجات مهمة قوى.

ابـــتلع من فهم ما فهمه، لكن وزير الداخلية أصر على أن يضيف:

- والله يا سيادة الريس حتى لو كان اسمه إيه ده الدستور مش موافق كان ممكن نقنعه..

زجرته عيون باستخفاف فأصلح.. كلامه.

- أقصد نعدله..

تدخل مدير الجهاز:

- موضـــوع تعديل الدستور حكاية معقدة وطويلة وليست سهلة على الإطلاق لنعد إذن إلى جثة الرجل الراقدة فوق، ماذا سنفعل؟

قال رئيس الوزراء:

- الرأى رأى سيادة الرئيس.

انتـــبه وزير الحرب بعد وهلة أنه هو سيادة الرئيس فكان عليه أن يجيب.

- والله أنـــا رأيى وقد يكون خطأ أو صواباً، أننا نعلن عن وفـــاة الرئـــيس وفاة طبيعية بالسكتة القلبية حتى لا نظهر أمام الشـــعب والعالم أننا دولة ضعيفة لم تستطع أن تحمى رئيسها.. أما الكشف عن مرتكبى الجريمة فهذا أمر لابد من حدوثه وأنا

واثـــق أن يقظة وذكاء ونباهة الجهاز الوطنى ووزارة الداخلية ســـوف تصل بهم إلى القاتل الذى أظن أنه مجرد فرد مختل أو مجـــنون يعمـــل بمفـــرده أتـــاح له إهمال البعض ارتكاب هذه الجريمة، والعقاب سوف يكون رادعاً وسريعاً.

ولما سكت سكتوا هم أيضاً فعاد ليقول:

- والرأى رأيكم.

فقالوا:

- والله نعـــم الرأى.. لقد اتضحت هكذا كل الأمور وباتت واضحة ناصعة.

تمتم مدير الرئاسة:

- طيب وأمريكا.. السفير الأمريكى؟

قال وزير الحرب مدهوشا:

- ماله.. مات هو أيضا

تدخل وزير الإعلام:

- لا ســـيادتك.. تذكـــر فـــى البداية قلنا إن أمريكا حليف استراتيجى ولا يمكن أن نخبىء عنها سر اغتيال الرئيس.

اشتعل الفهم فى رأسه فقال وزير الحرب:

- نخبىء.. هوه احنا نقدر أصلاً.. زمانهم عرفوا.. يعنى انتوا عايزين نستدعى السفير الأمريكى ونشركه فى الحكاية؟

همس مدير الجهاز:

- حكاية!!

لم يسمعه سوى مدير الرئاسة الذى تدخل:

- اسمح لى يا سيادة الرئيس أن اتصل به للحضور خلال دقائق بالطائرة.

أومـــأ وزير الحرب وقد أحس أن الثمرة لم تسقط من على الشجرة بعد.

- آه.. اتفضل.

حينما همّ مدير الرئاسة بالخروج ناداه وزير الحرب:

- لا تـنس أن تـتأكد مـن حرق كل نسخ عدد الجريدة الرسمية.

ثم تدخل وزير الإعلام:

- ياليت تعطيهم أمراً بإعادة طبع العدد بسرعة بدون هذا القرار.

أحـس مدير الرئاسة أن وزير الإعلام يعطيه أمراً فتقلص وجهـه وانقـبض غضـباً، فأسرع وزير الحرب بالتقاط سن السكين.

- وزير الإعلام يقترح فقط، وهو اقتراح جيد ولا أشك أنك بعقليتك الراجحة سوف تستجيب له.

ابتسـم مدير الرئاسة وقرر عبور الحفرة دونما إثارة غبار قال:

- طبعا هو اقتراح ممتاز وسوف آخذ به فوراً.

عندما عاد مدير الرئاسة من خارج القاعة كان كل من فى القاعــة كأنه يضع عصفوراً فوق رأسه، فانشل تماماً مخافة أن يطير لا كلمة ولا حركة ولا همسة ولا لمسة.

٩

كـان السفير الأمريكى يصعد إلى سلم الطائرة الهليوكوبتر الـتى تنطلق من فوق سطح السفارة التى اتسعت مساحتها ست مرات منذ مجيئه إلى العاصمة. لقد نجح فى استصدار قرارات جمهوريـة ووزارية بإخلاء المبانى المجاورة لأنها كانت قديمة ومـتهالكة ويتصارع عليها رجال الأعمال وأصحاب شركات العقـارات الذيـن دخلـوا فى منافسة حادة وملايين متضخمة، ملاييـن الأغبياء، بل إنهم لفوا أيضا على الأجهزة الحكومية، ومـنهم من نجح فى الوصول إلى الرئيس للحصول على قرار بإزالة هذه المبانى والبيوت على أن يمتلك هو المكان.. وقد قال له الرئيس ضاحكا فى مأدبة عشاء:

- طيـب الـناس يعرضون علىّ مبنى كاملا من عشرين طابقا، أمنح مكاتبه وشققه لمن أريد من رجالات الدولة ورجالى مقـابل أن يتمـتعوا هم بحق الامتلاك والبناء، فقد قرروا بناء عمارتيـن من عشرين طابقا مخصصة كلها لمحدودى الدخل.. فهل يمكن أن أقف أمام مصلحة رجالى وشعبى؟

رد السفير وهو يتذوق قطعة لحم غارقة فى الزبدة:

- سيادة الرئيس: طعامكم لذيذ ومطبخ هذا البلد رائع.

شعر الرئيس أنه يتجاهل الرد فأحس خطرا.

– لـم تقـل لـى ما رأيك فى موضوع المبانى.. أليست المسـاحة حـول السفارة تستحق أن تكون مكاناً لمواطنى هذا البلد!

قال السفير باستسلام الأفاعى:

– طـبعا.. إن كـل شـبر فى هذا البلد يستحق أن يكون لمواطنى هذا البلد، لكن أحب أن استفهم من السيد الرئيس عن تعريفه لكلمة مواطن.

اندهش الرئيس.

– نحن فى حصة العشاء وليست حصة العلوم السياسية، يا جناب السفير.

أمعن السفير في جر السجادة من تحت الرئيس.

– أنـا دائمـاً فى حضرة سيادتكم أعتبر نفسى فى حصة للتعلم منكم العلوم السياسية.

ضحك الرئيس ولاشك أنه صدق أن السفير صادق، فقال:

– المواطـن فى رأيى هو الكائن الذى تستطيع أن تضع له أى تعريف تريده بصرف النظر عما يريده هو.

ضـحك السفير ضحكا حقيقياً وصافياً واحتسى رشفة نبيذ أبيض.

– هذا هو مواطن دولكم يا سيادة الرئيس بالضبط.

رد الرئيس فى أعلى درجات الانسجام.

– وحـياتك وده أى مواطـن فى العالم لولا أنتم وكلامكم الفارغ عن الديمقراطية والحرية وكلام الجرايد التافه بتاعكم.. هـو أنـت عايز تقنعنى إن الرئيس الأمريكى لا يعمل لخدمة الشـركات الجـبارة ورجـال الأعمال الكبار ومؤسسات المال والـنفوذ فـى العالم.. أم تريد إقناعى أن الرئيس يعمل لخدمة المواطن الأمريكى البسيط فى بروكلين أو كوينز.. روح العب غيرها.

ضـحك السفير مرة أخرى وهو يشيح بيده ويعود بظهره إلى مسند المقعد.

– هـل هـذا الحديث بين سفير ورئيس أم أنه حديث بين أصدقاء؟

فـرد الرئـيس صدره وضرب عليه بقبضته وابتسم بوسع ما فى قوة شفتيه.

– بين أصدقاء طبعا.. أما أنت سفير حمار.. إنت فكرك أنا باعبر أى سفير ولا أقعد معاه!! ليه هوه أنا عيل طمعان اشتغل وزيـر خارجـية، أنا قاعد معاك لأننا أصحاب.. حتى مزاجنا واحد فى النسوان.

ارتـج علـى السفير واستفهم بعينيه، فضربه الرئيس على كتفه ضربة ود وقال هامسا:

– لـيه هوه أنت فاكر أننى نايم على ودانى ومش عارف البنت الصحفية اللى أنت مرافقها.

حاول السفير أن يبتسم لكنه لم يستطع، فقط نطق.

- سيادة الرئيس:

زعق فيه الرئيس:

- مالك ارتبكت كده ليه، خليك راجل، ثم دا الريس بتاعك نـــايم مـــع نص نسوان أمريكا ولا يعنى عشان البت الصحفية بتاعتك زوجة مستشار الأمن القومى الأمريكى.

ضـــحك الرئيس وتألق ضحكه فى الهواء كمن ينادى على العالم يتفرج كيف أسقط السفير على أرض الحلبة.

بـــادل السفير الرئيس الابتسام وضغط على أسنانه ومسح شفتيه من آثار رشفة أخرى من النبيذ.

- سيدى الرئيس أوراق الجميع مكشوفة.. ولعلك لا تعرف أن مستشـــار الأمن القومى فى طريقه إلى الطلاق مع زوجته، لكـــن ظـــروف السلطة تعوق الاثنين والذى لا تعرفه أيضاً أنه مرتبط بامرأة أخرى.

ضرب الرئيس المائدة بيديه منتشيا من استفزاز السفير.

- امرأة أخرى..!!

رفع كفيه للسماء داعيا.

- يارب أرجوك وأدعوك ألا تكون السيدة الأولى.

رشف السفير بقية كأس النبيذ كاملة وهو يرى وجه الرئيس وقد احمر من الضحك.

- ســـيادة الرئـــيس فـــى بلادكم من يتفوه بمثل هذا الكلام تطلقون عليه الرصاص.

تمالك الرئيس نفسه من الضحك وقال:

- ياراجل أنتم لكم قيمكم الخاصة ونحن لنا تقاليدنا، ثم نحن أصـــدقاء فـــى جلسة شراب نلهو ونضحك.. ثم أنت بالذمة ألا يمنعك أدبك من أن تقول لى إن لديكم شرائط كاملة صورتوها لـــى مع عدد من المذيعات وأكيد كان منظرى يفضح وأنا قاعد أمســـك فيهن وأبوس صدرهن ثم أطبطب عليهن ويروحن من غير آثار رجولة على أجسادهن!

ضـــحك الرئيس ضحكاً مدوياً وبادله السفير الضحك هذه المـــرة صـــادقا ومتحمسا ومستدعيا تلك المشاهد التى أتاح له مســـئول المخابـــرات فى السفارة رؤيتها بشكل شخصى وكان مـــنظر الـــرجل هـــزئا مذلا ومن ثم اندهش من روح الرئيس المعـــنوية العالية فى معالجته هذا الموضوع والكلام عنه بمثل هذه البساطة.

مال عليه الرئيس.

- ها قلت إيه!

- فى إيه؟

- فى المبانى من حول السفارة؟

- حضرتك رئيس البلاد وحر فى أى شئ تفعله.

- طيـــب بص أنا لا أريدك أن تغضب، هناك مبانى فى شكل دائرة حول السفارة، أنت تريد المبانى التى تقع خلف وعن يميـــن الســـفارة، لتوسع المبنى ولأنها مبانى متهالكة شوف أنا موافـــق، لكن خد بالك معى من المبانى الأخرى التى تقع على يســـاركم وأمـــامكم وهـــى أيضاً يمكن أن تكون متهالكة (قالها

بطـــريقة متحايلة يفهم منها السفير أن الأمر سيتم بشكل قانونى رغـــم عدم حقيقته) سنهدمها وتكون لكم وأنتم تتركون المواقع الأخرى لرجال الأعمال.

ثم رمى الطبق البلاستيك فى فم الدرفيل.

– ولكـــم نصيبكم فى هذا الموضوع مقابل مجرد رضاكم عنا وعنهم.

قفز الدرفيل والتقط الطبق وهبط إلى حوض السباحة.

– أنا تحت رهن إشارة سيادتكم.

تهكـــم الرئـــيس ســـاخراً وسافراً وقال وهو يعود بظهره للوراء:

– رهـــن إشـــارة ســـيادتكم (قالها بخفة وتريقة).. ياسفير يا ألعبان يابهلوان.. والله أنا حاسس إن أنت بالذات الذى سوف تـــأتى حـــتى قاعة مكتبى وتطلب منى التنازل عن الحكم أنت بالذات يا ضلالى.

– معقولة يا سيادة الرئيس.. دا أنا كان يتقطع لسانى.

مستمرا فى سخريته وتهكمه ولهجته التحذيرية الخفية وهو يقلد السفير فى نطقه.

– يتقطع لسانك.. إنت جاى يا له من أى حارة فى بلدنا.. شكلك عمرك مازرت واشنطن أصلا.

١٠

كان لقاؤهما بمقهى صغير فى أحد طوابق البيت الأبيض، لعله كان فى زيارة أو إمضاء وقت مع أحد المسئولين الصغار فـــى هـــذا المكتـــب أو ذاك، لكن على العموم رآه – هل هى الصـــدفة أن يجـــداً متسعا فى نفس الوقت ونفس المكان لنفس كوب القهوة الأمريكى؟

الأسئلة التى تلقيها على نفسك فى البيت الأبيض قد تجد لها جوابـــا – ولو كاذبا – أما الأسئلة التى يطرحها سفير أمريكى ذاهـــب إلـــى الشرق الأوسط وسفير أمريكى عائد من الشرق الأوسط، فهى أسئلة تجد عشرات الإجابات المضللة والمتداخلة، المســـئولون الأمريكان تعودوا أن يكذبوا على مسئولى الشرق الأوســـط، ومســـئولو الشـــرق الأوسط اعتادوا أن يكذبوا على الأمـــريكان أو يتعلموا تصديق أكاذيب الأمريكان، كان السفير الأمـــريكى الـــذى صدر قرار ترقيته إلى إحدى إدارات وزارة الخارجـــية وحـــل محله السفير الجديد، يجلس فى ركن يكشف الداخليـــن لهـــذه القاعة الصغيرة التى تملؤها رائحة البن كأنها مطحـــن بن فى أحد سراديب هذا البيت الأبيض الغامض، ألقى السفير الجديد التحية عليه، قام وصافحه، أحضر الرجل قهوته

ولـــم يجـــد مفراً من الجلوس أمامه على المائدة نفسها وقد أخذ الآخر يتصفح الواشنطن بوست بعناية، حاول السفير الجديد أن يجر معه كلاماً.

– الواشنطن بوست أيضاً جريدتى المفضلة.

ابتسم السفير القديم وقال:

– الحقيقة لقد وجدتها على المائدة، واضح أن شخصاً كان موجـــوداً مكـــانى ونسيها، لكننى – عموما – أبحث عن دور العرض السينمائى والأفلام التى تعرضها فى حفلة الثانية ظهراً.

وجـــدا نفسيهما فى طابور أمام قاعة عرض سينمائية فى أحد شوارع واشنطن، قطعا التذاكر (كل على حسابه) واشتريا كيســـين كبـــيرى الحجم من الفشار المنفوش وجلسا فى مقعدين متجاورين لفيلم حركة، ملىء بالمسدسات.. قال السفير العجوز.

– لقـــد وجدت عشرات من الناس يشاهدون أفلام الحركة الأمريكـــية دون أن يفهموا كلمة من الحوار، فقط يركزون فى الـــبداية علـــى مـــن هم الأشرار ومن هم الطيبون؟ وبعد ذلك تتساوى كل أفلام الحركة.

ابتسم السفير الشاب وهو ينحنى على أذن الآخر.

– معرفة الطيبين والأشرار سهلة فى السينما.. لكنها صعبة أحيانا فى الواقع.

– عـــندما تذهـــب إلى الشرق الأوسط فإن الطيبين هم من ينفذون سياستك والأشرار هم الذين يعارضونها، ليس مهما من فيهم يذهب للجامع أو للكنيسة.

طـــرقع الرصاص فى الفيلم بما يكفى تحرير مدينة محتلة، وخرجاً معاً، تمشيا وهما يتبادلان ذكريات متقاطعة عن إدارات الخارجية الأمريكية، وشتما بما فيه الكفاية رؤساءهما الصغار، ثـــم قال السفير العجوز وقد عبر الإشارة بعد خطوة من السفير الشاب:

– هـــنا فـــى واشـــنطن يعتقدون أن رئيس هذا البلد الذى ستذهب إليه من حفريات القرون الوسطى فى الشرق الأوسط، لكنـــنى أؤكد أنه قد يكون من الصعب أن نتمسك به فعلاً، لكن مـــن الأصعب أن نتخلص منه، إننا مثل الذى يمسك الأسد من ذيلـــه، والأسد الوحيد الذى يمكن ان تمسكه من ذيله هو الأسد الذى قمت بنفسك بخلع أسنانه.

وقفـــا قبالة بعضهما وأكمل السفير المحنك والمروى بماء أنهار الشرق:

– هذا الرئيس ثعلب لم يشبع من مزرعة دجاجه بعد، هل سمعت عن ابنه؟ إنه رجل فى الأربعين فى عمره، مهذب حتى تكـــاد تـــبكى من شدة أدبه، يملك أكبر نصيب فى أسهم شركة للأقمـــار الصـــناعية بشـــراكة مع عدد من رجال الأعمال فى نـــيويورك، لعلك تسمع عن هذه الشركة إنها رقم ١١ فى قائمة مموليـــى حملـــة الرئـــيس الأمريكى الانتخابية، إن هذا العجوز المغفل الجالس فى الشرق الأوسط، يدعك صدور النساء يراهن علـــى كـــل مرشح ترتفع أسهمه فى استطلاعات الرأى، ويأمر بـــتمويله، لم يخب توقعه إلا فى حالات نادرة، لاحظ أنه يدفع

أموال التبرع من أموال المعونة التى يحصل عليها من واشنطن، إنه لا يصرف مليما من جيبه، وانظر إلى بيته هنا فى واشنطن وآخر فى سياتل وابنه رغم أنه وزير فى حكومة بلاده إلا أنه يمضى نصف عامه فى نيويورك وسان فرانسيسكو.

عندما تصافحا عند جراج البيت الأبيض وهما يركبان سيارتهما أضاف السفير العجوز:

– لكنه أيضاً رئيس كريم لسفراء أمريكا فى بلاده، لاتزال زوجتى مطمئنة على مستقبلها بعد وفاتى، حيث تركت لها فى المنزل تمثالاً عمره أربعة آلاف سنة أهداه لى هذا الرئيس، وقد قدر أحد الخبراء ثمنه بمليونى دولار فانتظر ماذا سيهديك عند وصوله.

بعد عام من وصوله لهذه العاصمة أدرك أنه يمسك فعلاً بذيل أسد يسخر من صياديه الذين لا يعرفون أن يمسكوا به (الفرق بين لا يعرفون.. ولا يريدون.. استغرق من السفير سنين كى يعثر عليه فى العلاقة بين هذا الرئيس والإدارة الأمريكية)، أدرك أيضاً أن عليه أن ينسى حقوق الإنسان والتعذيب فى المعتقلات وحرية الصحافة، فكل هذا القاموس ألقاه من نافذة مكتبه فى السفارة، حيث لا يحتاج إليه الأمريكان مع ذلك الرجل.

بعد عام أيضاً أهداه الرئيس تمثالاً وشارك الرئيس مآدب العشاء الفاخرة التى جلسا فيها وحديهما، وأحيانا قليلة بمشاركة أحد ضيوفه، فى لقاء معه كان متعكر المزاج من نجاح المرشح

المنافس للمرشح الذى مولته شركة ابنه فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، لكنه آخر الجلسة كان صافيا تماماً وهو يعرف يقينا أن أحداً هناك لن يستغنى عنه وقد جرى بعدها اتصال بينه وبين الرئيس الأمريكى الجديد، كان الحوار فيه ودياً وعميقاً، ومؤثراً، حيث قال الرئيس الأمريكى له بالنص:

– اعتبرنى ابنك وامدد لى يدك بالخبرة التى تملكها فى حياتك السياسية العظيمة.

اتصل الرئيس بالسفير الأمريكى وحكى له تفاصيل المكالمة (التى كان يعرفها السفير) وأخذ يردد جملة اعتبرنى ابنك عشرات المرات، وقد ظل شهوراً بعدها لا كلام له إلا عنها، حتى سمع المسئولون فى بلاده وبلاد أخرى كثيرة هذه الجملة حتى حفظوها وردد فى اجتماعات متعددة مع رجاله كلاماً مثل:

– الرئيس الأمريكى الجديد ولد طيب عايز يفهم ويعرف.. والحقيقة أننى لن أبخل عليه بشىء.

المذهل أنه كان يتصل فعلاً بالرئيس الأمريكى ويبدأ فى نصحه بالتصرف بطريقة معينة فى أزمة لا علاقة لها بمنطقة بلاده، وكان لا يتورع عن الاتصال بالرئيس الأمريكى فى عطلة نهاية الأسبوع لينصحه بتجربة عدد من النساء حتى يظل محتفظاً بشبابه ونشاطه دون ملل، أو يتصل ليقول له رأيه فى خطاب أخير ألقاه الرئيس الأمريكى، أو تصريحات تليفزيونية، بل إنه مكث مكالمة مدتها ثلث ساعة يحكى للرئيس الأمريكى عن تجربته فى إسكات المعارضة وذلك حين هبت عاصفة ضد

الرئـــيس الأمـــريكى فـــى إحدى خطواته لفرض سياسته على الكونجـــرس. وطهـــق الرئـــيس الأمريكى من هذه المكالمات (خصوصـــا نصائحه الجنسية فى المكالمات إلى الحد الذى قال فـــيها الرئيس الأمريكى لزوجته إننى أشعر أحياناً أنه مشغول بحـــيواناتى المنوية أكثر منى). فقرر ألا يرد عليه ويترك هذه المهمـــة لـــلإدارة أو الخارجـــية وبعدهـــا بشهرين أبلغه وزير الخارجـــية أن هذا الرئيس لا يريد أن ينفذ اتفاقاً معه على عقد قمـــة فـــى بلاده للتمهيد لتسهيلات للقوات الأمريكية فى البحار الأربعة إلا إذا اتصل به الرئيس الأمريكى شخصياً، وقد تعصب الرئـــيس الأمـــريكى وأقسم أنه لن يتصل، لكن بعد إلحاح من وزيـــر خارجيـــته ومستشـــاره للأمن القومى، كلمه وهذا نص الحوار – كما وصل إلى السفارة:

– كده برضه متعبرنيش وتكلمنى.

– مشاغل يا سيادة الرئيس.

– لماذا تعاملنى رسمياً ألسنا أصدقاء؟

– قطعا.

– إننى كلما أراك فى التليفزيون تدمع عيونى.

– لماذا؟

– من الفرحة.

– أى فرحة؟

– فرحـــتى لرؤيتك.. هل تعرف أننى أضع صورتك أنت والسيدة الأولى فى غرفة مكتبى.

– هذه لفتة كريمة.

– هل تأخذ بالك من صحتك؟

– إنها طيبة.

– هل تأخذ كفايتك من النوم؟

– نعم .. نعم.

– لكن أنا لاحظت مرة إن تحت عيونك ظلالاً بنية.

– أنت تعرف أعباء المسئولية.

– اعمـــل بنصـــيحتى.. هذه الشعوب لا تستحق أن نرهق أنفسنا من أجلها.

– لقد انتخبنى شعبى كى أعمل على مصالحه.

– مصـــلحة الرئيس هى مصلحة الشعب.. يا راجل بلاش غـــم.. لا تقرأ الصحف، فهى كلها ليس وراءها إلا النكد والهم ولا صـــحف ولا كتب ولا تقارير ولا كلام فاضى.. هوه أنت عايز كل ده عشان تحكم.. كفاية بس تشغل تفكيرك وأنت تتخذ القرار الصائب على طول.. أنت فكرك إنه ليس هناك حكمة فى اختـــيار ربـــنا لك لترأس هذا العالم.. طبعا إن فيك من رائحة حكمـــته، أنـــت ظله على الأرض، وإلا لماذا لم يأت بأحد آخر غيرك؟

– شكرا.

– لا شـــكر ولا فكـــر.. أنـــا عايزك تأكل وتاخد بالك من صحتك وتراعى حق شبابك عليك ولا تنسى أن تتشبع من النساء حتى تستطيع أن تدير قضايا بلدك براحة بال..

- شكرا سيادة الرئيس.
- مــرة تانــية ح تعاملنى رسمياً.. ألم أقل لك إننى أحبك وأضــع صــورتك أمامى طوال الوقت وساعات أكلم الصورة وأسألها يا ترى عامل إيه دلوقتى.
- سيادة الرئيس.. هل تباشر الجلوس مع طبيبك النفسى؟
- طبيبى النفسى.. أما والله أنتو لكم حاجات ياخواجات، أنا يا حبيبى لا أمرض ولا أعرض نفسى على أى طبيب وعمر ما جاتــنى حتى أنفلونزا والدواء الجاهز دائما لى هو كوب عسل نحل أجمعه بنفسى من خلية خاصة فى جنينة القصر الرئاسى.
- هل تحب أن أرسل لك طبيبى؟
- يا عينى يا حبيبى.. لا تشغل نفسك بصحتى.. اهتم أنت بنفسك وصحتك.
- أشكرك يا سيادة الرئيس وأرجو ألا تنسى اتفاقك الخاص مع وزير الخارجية.
- أنســى!! هــل هــذا كلام؟! أى حد من ريحتك.. ريحة الحبايب كلامه كله أوامر.
- شكرا.
- قبلاتى لك.
- سيادة الرئيس أأنت واثق أنك لست فى حاجة إلى طبيبى النفسى الخاص.
- لماذا تعود وتقول هذا؟
- لا أبداً.. مع السلامة.

- هبطــت الطائــرة الهليوكوبتر على المهبط الخاص فى القصــر الرئاسى، كانت المروحة تثير الرياح والهواء والغبار، بينما كان أمين الرئاسة فى الانتظار وقد طار ذيل بذلته ورابطة عــنقه حين صافح السفير الذى نزل من سلالم الطائرة برشاقة وأخذا طريقهما إلى داخل أحد الأجنحة فى المبنى الرئاسى.

١١

عـــندما كـــان يعـــرض رئيس الوزراء ماتوصلوا إليه من مواقـــف وإجراءات للسفير الأمريكى، كان حريضا على جعل كل شئ فى هيئة اقتراحات.. "واقتراحات أقرها بعضنا أو كثير مـــنا" مما جعل وزير الحرب يتململ غيظاً منه ومن جبنه ومن تفتيـــت وحدتهم التى هى ملاذهم فى هذه المأساة - كان رئيس الـــوزراء يسرق نظرة من حين لآخر لكل من فى القاعة، كى يعرف هل ما يقوله يوافق خواطرهم ويناسب مطالبهم، فلم يجد أحـــدا قـــد تغـــير وجهه إلا وزير الحرب، الأمر الذى اعتبره "مريســـة" من الأول.. لذلك حين وصل إلى اختيارهم للمرشح لمنصـــب الرئاســـة قـــال متحمساً يذوب من فوق حروفه دهن النفاق:

- ولقـــد وقع اختيارنا بالإجماع على زعيم عظيم ومقاتل مهيـــب وسياسى خبير ليكون مرشح حكومتنا وحزبنا للرئاسة، ألا وهو السيد وزير الحرب.

ضـــخ الدمـــاء عاد إلى قلب وزير الحرب، وظهر راضيا تماماً - كالأطفال - عن رئيس الوزراء الذى سكت منتظرا أن

يحمل أحدهم عنه حمولة طن الزفت هذا الذى رصف به الشارع إلى قلب السفير الأمريكى.

كان السفير الأمريكى من لحظة ما تلقى خبر اغتيال الرئيس وهو كمن ضبطته امرأة تستحم فى حمامها، ينظر إليها من نافذة مكتبه، مرتبكا ومأخوذا وحائرا، لكنه رسم بأداء هوليودى شيئاً من الجدية والخطورة على ملامح وجهه، بعد أن استمع لكلام رئيس الوزراء قرر أن يصمت ويطرق فى الأرض طويلا، لا شئ على الإطلاق يشغل تفكيره، مجرد متاهات تشبه ألعاب التسلية فى الجرائد المحلية، لكنه لم يتكلم حفاظا على مظاهر مدى الأهمية وعمق التفكير.

أخيرا قال له وزير الإعلام:

- ماذا ترى يا سيادة السفير؟

تنحنح وقال بسرعة لا تليق مع تمثيلية التفكير العميق التى أداها.

- لابد من الرجوع الآن إلى الإدارة فى واشنطن وسماع نصيحتها.. كانت الدقائق كلما مرت دهست عظامهم جميعا فى تلك القاعة ، عندما اكتشفوا أن الساعة لا تزال الثانية ظهرا فوجئوا كلية، لقد ظنوا أن العام كله قد مرّ عليهم فى جلستهم هذه، ولقد أحسوا أن القاعة تلك هى صالة زفافهم التى تحولت إلى حوش مقابرهم، كان مرض السكر قد جعل رئيس الوزراء يكاد ينهار فطلب غذاء على أى نحو من أجل حقنة الأنسولين وراح يأكل كأنه يزغط نفسه بالعافية، أما الآخرون فقد اندسوا

فى فناجين قهوتهم وقد قطعوا أى اتصال تليفونى بهم منذ ساعات.

حين عاد السفير من الحجرة الأخرى التى أجرى فيها مكالماته، جلس على أول مقعد صادفه.. ثم بدأ كأنه يتلو بيانه.

- أولا: السيد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يبلغكم تعازيه القلبية وتعازى الشعب الأمريكى كله فى وفاة الرئيس.

خرجت بين الهزل والجد كلمات رئيس الوزراء من تحت قطع الخبز المنتشية فى فكه.

- ياسيدى شكر الله سعيه.

تجاهل السفير الرد وأكمل..

- ثانيا: لقد تفهم صواب كل القرارات التى وصلتم إليها.

طرق قلب وزير الحرب طرقة تشبه الطرقات على الدائرة النحاسية فى حلبات الملاكمة تعلن نهاية الجولة.

- ثالثا: إن الإدارة الأمريكية على ثقة أنكم سوف تولون هذا الحادث الخطير كل اهتمامكم رغم سرية إعلانه، إلا أنها تقترح تشكيل لجنة محايدة لا علاقة لها بأى من الأجهزة الأمنية فى كلتا البلدين لتتولى التحقيق بشكل خاص وفردى ومستقل فى حادث الاغتيال لتستعينوا برأيها والمعلومات التى تصل إليها فى هذا الحادث.

نظروا جميعا إلى وزير الحرب الذى نظر إلى وزير الداخلية ثم إلى مدير جهاز الأمن الوطنى اللذين صمتا فلم يسعه إلا أن قال:

- على بركة الله.

التفت له السفير الأمريكى.

- مبروك يا سيادة الرئيس.

وكانت هذه الجملة إيذانا للمشاعر أن تنفجر فى قلبه.

١٢

لـم يخجـل أن يطلـب من الماكيير بعضا من المساحيق المضللة تحت عينيه كأنه لم ينم حزنا وكمدا، كانوا قد اختاروا وزير الإعلام لكى يذيع بنفسه بيان وفاة الرئيس، أولا: لأنه لا يوجـد نائب رسمى للرئيس ومن ثم لاصفة لوزير الحرب كى يعلن النبأ وقد يثير هذا أسئلة وارتباكات هم فى غنى عنها.

ثانـيا: لأنـه مـن الطبيعى ووزير الإعلام هو المتحدث الرسـمى باسم مجلس الوزراء أن يعلن الخبر بنفسه وهو مالا يعطـيه امتيازا خاصا بخلافة الرئيس أما الصياغة فقد قرروا تـركها لوزير الإعلام أيضا على أن يقرأها على وزير الحرب لإقرارها.

بمجـرد عودته إلى مبنى التليفزيون اكتشف وزير الإعلام أن شـيئا مـا قـد تسرب.. هل جاءت الشائعات من تأخر كل هـؤلاء المسئولين فى قصر الرئاسة وتسللت الأنباء عن طريق الحـرس الشخصـى أم السـكرتارية التى أحيطت علما بمكان تواجدهم بينما منع عليهم الاتصالات، لقد لاحظ قلقا فى العيون وتوجسـا فـى حس الأصوات التى كلمته وارتباكا غامضا فى

قواعد الأمن اليومية وثمة تسيب يعكس إهمالا أو استهتارا.. لقد وصلتهم أشياء متناثرة طبعاً ولعلهم اعتقدوا أن وزير الإعلام قد أطيح به، أو أنه فى أزمة.. ربما هذا ما أكل رأسه ولعب النمل فـــى عبه. ربما يكون قد أعلن وزير الحرب عن نيته فى تولى شـــخص آخـــر وزارة الإعـــلام، معقولـــة بهذه السرعة وذلك التسرع، إن هذا شغل هواة ولا يجب أن يصدق كل التوجسات التى ستهرس قلبه من اليوم ورائح.

أعطى أوامره باستعداد استديو الهواء للبث المباشر وإعداد ديكـــور عبارة عن مائدة صغيرة على شكل مكتب وخلفها العلم الوطـــنى على صارى يملأ خلفة الكادر وشخط بدون مقدمات فيهم:

– لا أريد الأعلام بنت القحبة اللى واكلها الفيران والمرمية فى المخزن.. نقوا علما عليه القيمة.

طلـــب من سكرتيرته البذلة السوداء من دولابه فى مكتب الوزارة ورابطة عنق سوداء، فتشوا عن رابطة العنق السوداء فلـــم يجدوهـــا، توترت سكرتيرته وأحست أنه نهار أزرق لن يفـــوت، حـــتى فوجئـــت بأحد القادمين لموعد مع الوزير وهو يرتدى رابطة عنق سوداء غاية فى الأناقة، لم تفكر لحظة، بل اندفعت ناحيته وهو يجلس بمنتهى الوقار على المقعد فى أنتريه الانـــتظار وأطبقـــت على زمارة رقبته وهو مذهول ومستسلم، خلعت عنه رابطة العنق وهى تلهث وتجرى مبتعدة وتتمتم.

– لا مؤاخذة يا حضرة.

كان الوزير فى مكتبه ينتظر مكالمة رئيس الوزراء يحاول كـــتابة البيان، لكن عصت الأفكار وتمردت السطور، فاستدعى رئـــيس تحريـــر النشرات التليفزيونية وهو رجل مسن وبارد ومرعوس نموذجى حيث يستعد للانحناء قبل أن يطلب منه أحد ذلـــك.. جـــاء على عجل وجلس قبالته بعد أن استأذن أكثر من مـــرة للجلـــوس والوزير لم يكن ينقصه هذا النفاق البلدى على آخـــر النهار، المهم جلس فى أدب قرودى جم حتى بدأ الوزير يشرح له ما هو مطلوب منه، ارتج الرجل وفزع وهلع وازرق واصـــفر واخضر ووجهه جاب ألوانا ثم بدأ يبكى وهو يتنحنح قائلا:

– البقية فى حياتك يا سيادة الوزير.. البقية فى حياة البلد.. أنتم الخير والبركة.. والله العالم خسر خسارة فظيعة.

رمى الوزير بنظارته على المكتب متفجرا فيه.

– خـــلاص فهمنا إنك متنيل بستين نيلة وحزين على موت الرئيس يا سيدى، نفضى إذن لشغلنا.

الزعـــيق أنـــتج نتيجـــته فورا فى الرجل، فالتزم الصمت وتوقـــف أنفه أخيرا عن مخاط، البكاء. تقريبا كتب البيان على طريقة الخطابات المرفوعة من وإلى السيد الوزير للعلم والإفادة لكن الوزير أقره قائلا:

– يعـــنى لا يوجد أحد فاضى الآن للبحث عن الاستعارات المكنية ودروس البلاغة، كله سوف يأخذ الخبر وينكب مذهولا دون أن يـــتأمل تعبـــيرات طـــه حســـين بتاعة رئيس تحرير النشرات.

كـــان قـــد أقســـم أن يغيره لكنه تراجع عن ذلك فورا لما اكتشف أنه أساسا على كف عفريت ولا أحد يعرف ماذا تخبئ الأيـــام لمنصـــبه، جـــاءه صوت رئيس الوزراء أخيرا يأذن له بالضغط على زر القنبلة.

عندما بدأ الوزير يلقى بيان إعلان وفاة رئيس الجمهورية، كـــان عمال الإضاءة والمصورون والمخرجون خلف الزجاج الحاجز ومهندسو الصوت وكل من فى المبنى قد غشيه الصمت المصـــحوب بالذهول.. لم يكن أحد يتصور أو يتخيل لحظة أنه ســـوف يعيش حتى يرى هذه اللحظة، كان الرئيس بالنسبة لهم قـــدرا وقضاء وأنه مثل الصيف والمطر والخماسين والجبال.. جـــزء من طبيعة حولهم لا مفر منها ولا أمل فى تغييرها ولا تفكير فى أن تختفى أبدا عندما أنهى وزير الإعلام بيانه لم يكن يرى حزنا فى الممرات ولا الطرقات ولا المصاعد إلى مكتبه، كان يرى ذهولا.. آثار صاعقة، أشخاصاً منومة، لم يحدث أحد أحـــداً فـــى الخبر ولا أحاسيسهم ولا مشاعرهم ولا أفكارهم.. كانت عملية جراحية صعبة بلا مخدر ولا منوم ولا مسكن لنزع اللوز أو الزائدة الدودية من جسدك وأنت صاح مستيقظ.

كانـــت تعلـــيماته بإلغاء البرامج العادية والاكتفاء بنشرات الأخبار وإعادة إذاعة البيان وتلاوة القرآن الكريم.

ومضـــى إلى وزارة الداخلية للاجتماع مع وزيرها ومدير جهـــاز الأمن الوطنى من أجل الإعداد للجنازة وخطة مسيرتها وأماكـــن اســـتقبال الوفود والرؤساء والبث التليفزيونى المباشر

ومندوبى الدولة للانتظار فى المطار وتأمين الشوارع والميادين وطـــرق المطـــار والـــتعاون مـــع الخـــبراء الأمريكان الذين سيحضـــرون لمرافقة مسئوليهم، وكانت وزارة الخارجية تمدهم كـــل ساعة بالرؤساء الذين أعلموهم بحضورهم الجنازة، وكان وزيـــر الحرب على اتصال مستمر معهم من مكتبه حيث انتقل للمبيـــت الأيام القادمة كلها هناك، فى نفس الوقت كانت تقارير أمن الدولة تأتى للوزير حول ردود فعل المواطنين وكانت كلها تشـــرح الذهول الذى يجتاح البلاد والصمت البالغ وعدم الرغبة فـــى إبـــداء أى انفعـــالات وهو ما كان سمة للبلاد على طولها وعرضها بينما وزير الإعلام يرد بشكل مقتضب وملخص على أســـئلة وكالات الأنباء التى توافدت الآن إلى مقر وزارته مما دعـــا إلى اقتراحه بعقد مؤتمر صحفى عاجل، لكن مدير جهاز الأمـــن الوطنى عارض الاقتراح لأن الصحفيين سوف يسألون عن معلومات دقيقة ولا شئ نستطيع أن نجيب به عليهم، ووافقه وزيـــر الداخلية. على الطرف الآخر كان مدير الرئاسة يشرف علـــى عملية سرية ومكتمة جدا هى غسل الرئيس بحيث يظل الذين غسلوا جثته محتفظين بسر الجرح الواسع الغائر الذى شق من قلبه حتى بطنه، فاختارهم من ضباطه الأطباء الثقات وكان يتلقى تعليمات الغسل الشرعى بالتليفون من أحد الحانوتية الذى أمده به أحد رؤساء أحياء العاصمة من معارفه القدامى.

كان الحرص بالغا على إتمام كل شئ بسرعة قبل وفود ابن الرئيس من الخارج.. وكانت المهمة العويصة لرئيس الوزراء

أن يكلمه بنفسه قبل إذاعة الخبر فى التليفزيون ويعلمه بنفسه ويطلب منه الحضور فورا فى طائرة خاصة أرسلتها له الدولة.

كان رئيس الوزراء مرتبكا وتائها تماما، تتصارع فى رأسه ونفسه تيارات الجبن والشجاعة، رغبة السلطة ومذلة الحاجة، هداه تفكيره إلى حيلة تنجو به من الارتباك والتعثر أمام ابن الرئيس، فأخرج من درج مكتبه جهاز تسجيل دقيقاً، فتحه وسجل عليه حواره المفترض مع ابن الرئيس، بحيث يقول هو جملته ثم يتوقع فى سره ماذا سيقول ابن الرئيس فيرد عليه بصوته، اطمأن إلى براعة التسجيل ومساحات الصمت المتروكة لرد فعل ابن الرئيس، ووضع الشريط فى جهاز التليفون وربطه آليا بالسماعة وضغط على أزرار الرقم السرى الخاص الذى يعرفه ويحفظه لابن الرئيس.. جاءه الجرس رنينا بعيدا عميقا كأنه يعبر آلاف الأميال معه. كان يمشى فى الغرفة ترتجف سمانتا ساقيه.. فجأة رد ابن الرئيس:

– آلو.

أدار رئيس الوزراء بسرعة جهاز التسجيل وهو يهتز من فرط الاستثارة والحماقة، فجاء الحوار بين ابن الرئيس وجهاز التسجيل هكذا.

– ازيك يا ابنى.

– مين معايا.

– أريد منك أن تتماسك وتتشجع.

– تفتكر ده وقت هزار.

– لدى خبر سيئ.. فصل على النبى الأول.

– يابنى آدم أنت مين.. صوتك مش غريب علىّ.

– أيوه كده مفيش احسن من الصلاة على النبى.

– مين الحمار اللى بيتكلم؟

– أبوك.

– مين!

– سيادة الرئيس.

– بابا اللى معايا.

– البقية فى حياتك.

– فى مين يابابا.

– المرحوم كان زعيما عظيما ووالدا عظيما وفاضلا وأنا واثق أنك تتمتع بشجاعة والدك فى تلقى مثل هذه الصدمة.

– أنت رئيس الوزراء.

واعتبرنى بمثابة والدك الثانى والسيدة حرمى بمثابة والدتك الثانية.

– أنا مش فاهم حاجة.

– كويس أنك استوعبت الخبر وتلقيته بشجاعة كما توقعت.

– بابا حصل له حاجة.

– الطيارة فى المطار والبيان فى التليفزيون والأكل فى الثلاجة.

– أنا ح أضربك بالرصاص.

- لا شكر على واجب يا ابنى والله الست هانم حرمنا صممت تعملك بنفسها الأكل وتحطه فى ثلاجة الطيارة أول ما تركب تسخنه المضيفة وبالهناء والشفاء.. الأيام الصعبة قادمة ومن يعرف متى نأكل مرة أخرى.

- أنا ح أقفل الخط وح اطلع دينك.

- العفو يا ابنى والبقية فى حياتك خليك فارسا وشجاعا.

سمع قفل الخط على الطرف الآخر، أسرع بغلق جهاز التسجيل، كان يشك أن ابن الرئيس فهم شيئاً لكنه أزاح عن صدره هذا العبء ومن السهل أن يتحجج بحالته النفسية التعبانة من الخبر، أو الصدمة التى أحس بها ابن الرئيس، أو سوء الخطوط الدولية هذه الأيام ومن ثم لم يكن غريبا أن يسمعا بعضهما جيدا أو يفهما بدقة ما يقوله الآخر.

اتصل بوزير الإعلام أخبره بتمام المهمة وأن له أن يذيع الخبر الآن على الهواء، بعد أن وضع السماعة فوجئ بتليفون من مدير الرئاسة وقد بان على صوته أثر قلق ودهشة واستغراب.

- ماذا فعلت يا دكتور فى ابن الرئيس؟

- فعلت إيه؟

- اتصل بى الآن غاضبا ولاعنا وعرف من جهازه أنك الذى اتصلت تقول له الطيارة فى المطار والبيان فى التليفزيون والأكل فى الثلاثة.. إيه حكاية الأكل فى الثلاجة يا دكتور؟

- أكل وشرب إيه حد له نفس يأكل.

- عموما أنا قلت له أكيد فيه مشكلة فى الخطوط واضطررت لأن أتولى عنك المهمة وأخبره بوفاة الوالد.

- وماذا كان رد فعله؟

- سكت وخرس تماما ثم قال إنه راجع للبلد بعد ساعات.

بعد ساعة بالضبط اتصل مدير جهاز الأمن الوطنى برئيس الوزراء.

- مساء الخير يا دكتور.

- أهلا يا أفندم.

- إيه اللى أنت قلته لابن الرئيس؟

رئيس الوزراء محتدا - تانى الأكل فى الثلاجة.

رد مدير الجهاز بوقار ودون انفلات أعصاب.

- أكل إيه وثلاجة إيه.. أنا كنت عايز أفهم ماذا وصل له، لأن فيه تقريرا شفويا جاءني الآن من طائرته في طريقه للبلاد يقول إنه غاضب وثائر وقاعد يقول عملوا في أبويا إيه.. فيه انقلاب .. فيه خيانة!

بهت رئيس الوزراء:

- يا نهار أسود وما العمل؟

مرة أخري كان مدير الجهاز هادئا تماما.

- احتمال يكون هذا من أثر الصدمة الأولي، وانفلات أعصابه سوف يتحكم فيه بمجرد حضوره.. لكن عموما لابد من احتوائه.

حـــاول رئيس الوزراء أن يخرج بحقيقته لحظة من تحت جلده.

– ليه ح يعمل إيه يعني؟ ليس في يده شيء.

– لكن في لسانه شيئا يا سيادة رئيس الوزراء، لسانه يمكن أن يطول ويفلت ويعمل وجع دماغ.

في حزم ثعلب يسفر عن غضب.

– اســمع.. بلــغ مندوبك في الطائرة إنه يهدئ روع ابن الرئــيس ويذكره بأن شركاته وأسهمه وشركاءه في البلد ممكن يتخلون عنه فورا ويخسر مع والده عشرات ومئات الملايين.

دعـــه يذكره بصريح العبارة، إنه ممكن لوتوترت أعصابه أن تضيع ثروته وليس بعيدا أن يدخل السجن بقضايا فساد أكثر من عدد الشعر في الرأس.

شعر مدير الجهاز أن قطا تحول إلي نمر في لحظة، كمن يـــري تحول دكتور جيكل إلي مستر هايد، هل هذا هو رئيس الوزراء؟!

تذكر أن الكلب لولو المحمول علي ذراع الفتيات يمكن أن يعض أحيانا..

قال:

كلام دقيق وحاسم يا دكتور وسوف أنفذه حالا.. ثم واصل.

بالمناسبة من سينتظره في المطار؟

ارتد رئيس الوزراء إلي أصله.

– لست أنا..

ابتسم رئيس الجهاز رغما عنه.

– هل أجعل مدير الرئاسة يذهب في استقباله؟

رد في حسم:

– لا.. إن العلاقة بينهما قد تسمح بتسرب الأنباء.. اسمع.. اجعــل «ن» رجــل الأعمـــال إياه صديقه وشريكه يذهب في اســتقباله واجعلـــه يهدئ من روعه في الطريق إلي العاصمة، ودعه يتذكر معه أن مصالحهما التي خدمتها السياسة قد تهدها السياسة.

أبـــدي مديـــر الجهـــاز إعجابه وتعجبه من مفاجأة رئيس الوزراء له بعقل جديد.

– فكرة ممتازة.. ليكن.

١٣

كان عشرة من الجنود يحملون الأوسمة والنياشين والقلادات والأوشحة التي حصل عليها الرئيس، يضعونها فوق مسند من القطيفة الأحمر مثبت علي طبق غويط من النحاس المبطن بحرير أسود، يسيرون بخطي منتظمة عسكرية ذات وقع حديدي علي أسفلت الشارع الطويل الواسع المختار بعناية في منطقة لا تحوطها البنايات ولا العمائر العالية، يسهل حصارها وتأمين مرتفعاتها، وتضييق مساحتها بصفوف من الجنود علي الجانبين يضيقون مساحة الممشي الذي تسير فيه عربة يقودها حصانان عربيان تكشف انثناءاتهما عن أصل أصيل وفرع طويل في حشا السلالات النبيلة، الحصانان أكبر من الخيول العادية وأكبر رهبة وحضورا، طرق حدوات أقدامهما علي الأسفلت يقترب من الرقص الناعس العفوي وأجراس نحاسية تخفق مع حركتهما فوق العنق، وموسيقي عسكرية جنائزية تنتحب حول الجنازة، علي العربة يرتكن النعش الخشبي المنقوش بأطر من الرسوم النحاسية ومقبض

فضي عند منتصفه ملفوف من ناحيتين بعلم البلاد، فوقه نجمة من الزهور الصفراء والبيضاء والبنفسجية، ثم صورة الرئيس مرتكنة علي النعش، موضوعة علي أرضية العربة ملفوفة بشريط أسود حدادي، بعد أن أعيدت الجنازة في التليفزيون كان وزير الإعلام يريد أن يضرب بالجزمة الشخص الذي اختار هذه الصورة، فقد كانت ضاحكة مبتسمة تدفع الجنازة كلها إلي حالة من البلاهة كلما أمعن فيها المشيعون أو اقتربت منها عدسة الكاميرا المقربة، كان ابن الرئيس ومعه رئيس الوزراء ووزير الحرب يتقدمون الجنازة بعد ثلاثة صفوف من ضباط التشريفة الذين ظلوا يخبطون الأرض لمدة ست ساعات بنعال أحذيتهم العسكرية حتي كاد الأسفلت يشكو الانهيار تحت أقدامهم.

رسم الجميع حالة حزن وكرب وارتدت الصفوف العشرة الأولي - علي غير عمد ودون توقع- نظارات سوداء، فكان مشهدهم إعلانا مجانيا للنظارات السوداء أو كأنه مشهد إعلاني تبثه شركة نظارات عالمية لصنف جديد تطرحه في السوق، الذين انتبهوا لهذا الكم الهائل من الوجوه التي ترتدي نظارات سوداء تحول بهم الانتباه إلي الضحك حتي القهقهة. أما إحدي شركات المآتم والمقابر والمدافن في إنجلترا قد استغلت هذه الصورة المنشورة في جريدة الجارديان لمشهد من الجنازة وقد ارتدي المئات المزدحمون نظارات وبذلات سوداء واشترت الصورة الأصلية من المصور وكبرتها وجعلتها

في إعلان الشوارع عن عملها وكانت الحملة الرئيسية للإعلان.

- البعض يعمل حساب البذلة والنظارة السوداء في الجنازة وينسي شكل التابوت.ثم اسم الشركة وعنوانها، وبعد شهر من وضع الإعلانات في شوارع العاصمة البريطانية ونشره في بعض الصحف الإنجليزية والاسكتلندية، نشر بريد الجارديان احتجاجا من مواطن من مواطني بلد الرئيس علي استغلال جنازته بهذه الطريقة التجارية، مما أحرج السفارة هناك فاحتجت واعتذرت الشركة عن الإعلان بعدما صارت حملة في صحف البلاد وإنجلترا أثمرت إعلانا مضاعفا للشركة.

كان الضيوف الأجانب في مقدمة الجنازة مع مسئولي البلاد وقد وضعوا في مربعات محكمة بين المشيعين حيث كان يحيطهم من الجوانب الأربعة ضباط أمن البلاد وحراس الضيوف الشخصيون بملابس مدنية وقد وضعوا سماعات اللاسلكي في آذانهم وبانت المسدسات تحت أطراف بذلهم، وكان المشهد الذي جذب أنظار العالم كله هو وجود أربعة من الرؤساء الأمريكان السابقين يشيعون الرئيس في الجنازة، وكان الرئيس قد عاصر ثمانية رؤساء أمريكان بين سابق وفقيد، ولأن الرؤساء الأربعة ظهروا منذ عامين ربما في جنازة أحد ملوك المنطقة أيضا، فقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز رسما كاريكاتوريا للرؤساء الأربعة يجلسون في ساحة انتظار أحد المطارات وواحد منهم يقول:

- ها.. سوف نذهب نعزي فين النهارده؟

لكن حضور الرؤساء الأمريكان الأربعة كان حدثا إعلاميا ركز عليه الإعلام المحلي باعتباره شهادة اعتراف بتفوق الفقيد الراحل، وبينما كان الرئيس المؤقت للبلاد رئيس المحكمة العليا قد حلف اليمين وأعلن عن توليه منصبه، إلا أنه ظل متعثرا في مصاحبة زعماء وأمراء الدول المجاورة، ولم يظهر في الصفوف الأمامية وكانت التعليمات واضحة لمخرجي الجنازة بتجاهل وجوده والابتعاد عن أماكن تواجده في الجنازة، وقد التقطت عشرات الكاميرات مشهد رئيس الوزراء في الجنازة وهو غارق في البكاء يستند علي مصاحبيه فيما يشبه الإغماء والانهيار من فرط التأثر وشدة الحزن، ولم يجد زملاؤه من أصحاب خطة انتقال السلطة بدا من الإعجاب بقدرته علي التمثيل بينما أقسم مدير جهاز الأمن الوطني علي أن يحصل جهازه علي ملف علاج رئيس الوزراء في مصحة أوروبية أثناء تلقيه بعثة تعليمية. وكانت تلك الشائعة التي لم يتثبت من صحتها جهازه منذ تولي الرجل مقعد رئاسة الوزراء، لكن مشهد إغماء رئيس الوزراء جعل النكتة الشعبية تخرج فورا من المقاهي، حيث ترددت تملأ أرجاء البلاد في اليوم التالي، حيث أطلق عليه المتفرجون من المواطنين رئيس الوزراء وأرملة الزعيم الراحل!

لكن النكت لم تتوقف عن رئيس الوزراء بل طالت الرئيس الميت شخصيا فقد رصد العالم كله اختفاء المواطنين من

الجنازة فقد اقتصرت علي الرسميين والمسئولين والضيوف الأجانب، وقد أشارت وكالات الأنباء إلي الظاهرة وهي اختفاء شعب الزعيم من جنازته وخلو المشيعين من مواطنيه وعلقت عليها في صدر برقياتها وتغطيتها للحدث، مما جعل الإعلام المحلي يضع عقب كل جملة «جنازة الرئيس» كلمة «الرسمية» حتي يوحي بأن الجنازة - لظروف أمنية- لم يكن مطلوبا أن تكون شعبية، وأن الشعب كذلك لم يهرب من تشييع جثمان الرئيس. لكن الشعب - فعلا- شيع الرئيس بنكت تتوالي كفقاعات ماء يغلي قبل انفجار بركان من تحت بحيرة، وقد وصل تقرير النكت إلي مدير جهاز الأمن الوطني الذي أشر عليه بإحالة نسخة منه إلي وزيري الإعلام والداخلية، وسبق رئيس الوزراء الجميع في مهاتفة وزير الحرب مرشح الرئاسة وروي له أشهر النكت بين الضحك والدموع والاستغراب المصطنع.

- قال لك إيه.. إن مكافأة نهاية الخدمة لعزرائيل هي قبض روح الريس.. بعد فاصل من الضحك، والتريقة وضع للنكتة دلالتها.

شوف يا أفندم.. الناس لم تكن تتصور أنه سيموت.. لدرجة أن جعلت ملاك الموت يعتزل بعد قبض روحه.

استزاده وزير الحرب فزاد بالنكتة الثانية.

بيقولك الرئيس الأمريكي والرئيس الفرنسي ورئيسنا ماتوا وطلعـوا للسماء، سألوهم إيه الحاجة إللي أنت سبت شعبك فيها وحاسس إن شعبك سيتذكرها لك بالخير؟

الرئيس الأمريكي قال: الشعب الأمريكي سيتذكر لي بالخير أنني تركته شعبا حرا.

وقال الرئيس الفرنسي: الشعب الفرنسي سيتذكر لي بالخير دائما أنني تركته شعبا عظيما.

وقـال الرئيس بتاعنا: الشعب بتاعي يحمد ربنا أنني مت وتركته عايش!

واصل رئيس الوزراء يثرثر بعد النكتة:

– تصور يا افندم شوف النكتة، يعني مجرد أنه ترك شعبه حياً لم يعدم أو يُمت نكدا وقهرا، مجرد إنه عايش خدمة عظيمة له من رئيسنا السابق.

طهق وزير الحرب من محاولة تفلسف رئيس الوزراء فقال له:

– أنـا لا ألحـق أضـحك علـي النكـتة حتي تلقي عليّ محاضرة، والنبي احك لي النكتة المتبقية دون تعليق.

رد رئيس الوزراء بما يشبه اللوم والتقريع المخفي:

أصـل فيه فرق بين إلقاء المنولوجست للنكتة وإلقاء رئيس الـوزراء، ثم قرر أن يتراجع حتي لا يفهم وزير الحرب معني يسوؤه من كلامه.

فأضاف ساخراً:

– المنولوجست أحسن طبعا.

وبسرعة واصل نكته:

– بـيقولك الـريس لما لقي «رقيب وعقيد» واخدينه علي السما خلاص ح يتحاسب، قرر يرشيهم فرقاهم «عميد وعقيد».

وأيضا:

– بيقولك لما دخل الرئيس جهنم طلب يتفرج علي برنامج «صباح الخير يا جهنم».

ضحك وزير الحرب كثيرا ثم قال:

– دلوقت ممكن تبرطم بالفلسفة اللي انت عايزها..

لكـن رئـيس الـوزراء نقـل لهجـته إلي لهجة الأهمية والخطورة..

– ما الأخبار لديك؟

– أين؟

– في الوزارة؟

– تعبـئة كاملة واستدعاء الاحتياط وتكاتف ممتاز وروح وطنية لم أرها من قبل.

قرر رئيس الوزراء أن يشكه بشوك بذلة القنفد التي يرتديها فقال:

– ربنا يكمل بالستر ويعطيك الصحة كي تري هذه الروح تسري في البلد كله.

وجـود العسـاكر في الشوارع وظهور دبابات في بعض الميادين وكثرة عبور الطائرات فوق سماء العاصمة علي مسافة

قريبة، كل هذا كان رغبة من وزير الحرب بعد إعلان ترشيحه أن يضمن وجوده حيا في قلب حياة البلاد وكان استعراض قوته يغطي أنباء مرضه وعمليات القلب المفتوح التي أجراها والتي بدأت تتناثر في الأجواء وربما كان وراءها محاولة ما من ابن الرئيس لإثارة أي زوابع، وقد قفزت إلي مخيلته صورة الطبيب الباكستاني الذي أجري له العملية الأخيرة وخشي أن يجري خصوم البلد إليه في محاولة لسبر أغوار مرضه، فأرسل له وسيطا شخصيا من ضباط مكتبه يطلب منه ألا يتكلم مع أي من وكالات الأنباء أو الساسة أو المسئولين عن ظروفه الصحية وقد عاد إلي وزير الحرب وسيطه يعرب عن ارتياحه لأدب وطاعة الطبيب الذي أكد أنه لا يتحدث عن أسرار مرضاه أبدا، لكن الطبيب اتصل بنفسه في صباح اليوم التالي ولاحق وزير الحرب حتي عثر عليه تليفونيا وسأله برعشة لم يخفها تماسكه الصوتي الظاهر:

- هل استوليت يا سيادة الوزير علي قرص الكمبيوتر الخاص بحالتكم الصحية؟

استيقظت كل حواس الوزير وانتفض قلبه الكليل.

- إطلاقا.. ما هذا الكلام؟

رد عليه الطبيب ورنة الخطر تتكيء فوق حروف كلماته.

- إذن يجب أن أنبهك إلي أن أحدا استولي علي ملفك الطبي من الكمبيوتر الخاص بي وبالمستشفي.

حين اتصل وزير الحرب بوزير الإعلام كي يتدارس معه خطة حصار شائعات المرض، كان الأخير قد فوجئ بمديرة مكتبه تخبره بأن الرئيس المؤقت للبلاد يريد مقابلته، قال لها:

- حاولي أن تتهربي بأي حجة.. اعطيه موعدا ثم الغيه قبل الموعد بساعات.

نظرت له مديرة المكتب مسلوبة تماما.

- لا أستطيع

اضطرب من رد لم يتوقعه لكنها عالجته بما لا يتوقعه لا هو ولا هي.

- إنه ينتظرفي الخارج، في أنتريه مكتبك.

لسعه الخبر، فقام مذعورا من مقعده إلي الأنتريه الملحق بمكتبه وهو يرفع صوته بحماس جلي النفاق.

- معقولة سيادة الرئيس يطلب إذنا للدخول لمكتبي.

أنت تضرب الباب بقدميك وتدخل.

رد عليه رئيس المحكمة العليا بجفاء لا لبس فيه:

- لا ح اضرب باب المكتب ولا ح اخبط.. كل ما أريده..

سارع وزير الإعلام:

- اتفضل يا افندم الأول

ثم صرف مديرة مكتبه وأخذ بيد رئيس المحكمة العليا ودخلا إلي مكتبه، لكن رئيس المحكمة العليا كان لايزال علي إيقاعه الغاضب.

– أنا أعرف تماما أن وضعي مؤقت، بل أنا في موضع لم أكن أريده ولم أسع إليه ولم أفكر فيه.

بلهجة ودودة يرد:

– مفهوم.. مفهوم.

يواصل الرئيس المؤقت:

– لكن طالما شاءت الأقدار، فلابد من احترام الشكل الدستوري يا سيادة الوزير سواء في الظاهر الإعلامي أو في الباطن الإداري والسياسي. استهبل وزير الإعلام وتخابث:

– لا أفهم يا سيادة الرئيس.

قام من فوره الرجل وقال كمن يبلغ رسالة إلي الجميع:

– من الطيب جدا أنك تتذكر أنني الرئيس وأن هذا الوضع المؤقت يسمح لي بإجراء تغييرات وإعادة تشكيل ووضع أمور في غير موضعها الذي اعتادت عليه.

وبسرعة صافح وزير الإعلام وبلهجة رسمية.

– أشكرك علي وقتك الثمين.. ووداعا.

مضي حين، كان استدعاء وزير الحرب، فارتبك وزير الإعلام وأحس أن هذا البلد لم يعد كما كان «قرد وهو يعرف طرق ملاعبته» كان يستعد للانصراف حين فاجأه رئيس التليفزيون بدخول في غير موعد، تحمل فضلات السياسة واستمع له وهو يقول:

– ياسيادة الوزير، جاءني تقرير من الداخلية يطلب مني إعادة بعض برامج قنوات التليفزيون حيث لاحظوا أن الناس

انصرفت إلي القنوات الأجنبية وأنهم قد ضجوا بالأفلام الدينية والتاريخية.

قال الوزير:

– ماذا أذعنا منها حتي الآن؟

– كلها يا أفندم.. فيلم عمر المختار، وفيلم ناصر ٥٦ وفيلم مصطفي كامل، وفيلم «القادسية» وفيلم «الناصر صلاح الدين» وفيلم «وا إسلاماه»

وفيلم «وفاة الرسول».

تنمر الوزير:

وفاة إيه.. إنت عايز تخرب بيتنا.. وفاة الرسول بمناسبة وفاة الرئيس!!

تراجع رئيس التليفزيون وهمس:

– في الحقيقة يا سيادة الوزير لم يعترض تقرير الأمن علي فيلم «وفاة الرسول» لكنهم سجلوا النكت التي خرجت علي إذاعتنا لفيلم «جميلة بو حريد».

– نعم..جميلة بو حريد..

– أيوه يا أفندم.

في زهق وضيق.

– وقالوا إيه يا سيدي؟

في رعدة سرت بصوته:

– قالوا طيب.. صلاح الدين وقطز وناصر وفهمناهم، إنما جميلة بوحريد ليه، ما هو إما الرئيس هو جميلة أو هو بوحريد.

هل هذه هي النكتة؟

في خشوع قال رئيس التليفزيون:

- لايـــا أفندم «النكتة إن الريس لما طلع السما قابل جميلة بوحـــريد بالصدفة فسألها: الواحد يشوفك فين دلوقت في الجنة ولا في النار؟ قالت له: لأ.. في القناة الأولي!

١٤

تمشـــي وحدها في النفق المؤدي إلي مكتب مستشار الأمن القومي، خطوتها الرجالية وملابسها المحتشمة المحكمة وحسمها الصـــارم، تقودها أفكارها إلي المشي مسرعة تخطف الطريق خطفا، ذات مرة وقفت في الشارع وقد ضبطت نفسها تلهث من الجـــري وهي تمشي سألت نفسها لماذا أجري؟ قفز جلدها من عـــروقها.. ما الداعي إلي هذه العجلة.. لا موعد ينتظرني ولا تأخـــير يربكني، لماذا أجري هكذا في الشارع؟ هل لأن الشعب الأمريكي كله يجري أمامي فأجري وراءه؟

تذهـــب إلـــي محاضـــرتها مـــبكرا وتنهي المحاضرة في موعدها، تلحق المترو أو لا تلحقه، فكل دقيقة عربة مترو قادمة تصـــل منزلها لا أحد ينتظرها كي تبدو متأخرة عليه أو مبكرة من أجله لم العجلة؟

أربعون عاما بالتمام والكمال عمرها، قضتها لاهثة مسرعة متعجلة، ثم ها هي الآن تسأل نفسها هل الأمر كان يستحق كل هذا الجري؟

فـي السادسـة صـباحا أيقظها رنين التليفون، سكرتيرة مستشـار الأمـن القومـي اعتذرت عن هذا الاتصال المزعج المبكر وأضافت أن مستشار الأمن القومي يبلغها لو كان لديها في أي من ساعات النهار نصف ساعة يمكن توفيرها للقائه في أمـر عـاجل بمكتبه بالبيت الأبيض سيكون شاكرا لها للغاية.. وافقت بين النوم واليقظة.. وها هي تخطو نحو مكتبه حين تعثر حذاؤهـا ذو الكعب العالي كادت تسقط، ترنحت، استندت علي الحـائط، لحقـت نفسـها، لكن الكعب انكسر.. عظيم.. حدثت نفسها.. هذه هي العقوبة المنتظرة لها طبعا بعد أن أصرت مع نفسها علي ارتداء الحذاء ذي الكعب العالي الوحيد الذي تملكه، كـل ملابسـها وحاجاتها عملية رجولية في الغالب لدرجة أنها كانت في حفلة ذات سهرة مع زوجها السابق فالتقي بها رئيسها صدفة فصرخ أول ما رآها.

– معقولة.. ريتا أنثي..

أربكها تعبير رئيسها الجامعي الوقور، وشعر هو أيضا بأنه خذل صورته الأكاديمية فألحق بكلامه إضافة.

– آسـف يـا ريتا.. لكنها أول مرة أراك في ثوب الأنثي الجميلة المهتمة بنفسها..

ابتسـمت رغـم غـباء تعبـيراته.. استنجد هو بآخر من زملائهما في الحفلة.

– ألا تري يا صديقي أن دكتورة ريتا تخفي وراء جديتها العلمية امرأة ساحرة الحسن.

هـذه آخـرة السحر والحسن، الكعب انكسر، لدرجة أنها عـندما وجـدت فـي وجهها سكرتيرة مستشار الأمن القومي صرخت في وجهها بانفعال لا ذنب لأحد فيه.

– إمـا أن أستعير حذاءك أو أدخل لمستشار الأمن القومي حافية.

ولما لم تتمكن من ارتداء حذاء السكرتيرة، قررت الأخيرة أن تحل الموقف بطريقتها، فكسرت كعب فردة الحذاء الأخري، وربتت علي كتف دكتورة ريتا.

– الآن.. اتفضـلي فهو ينتظرك.. ومع معرفتي لشخصيته وطـريقة عمله فإن هذا يعني بالنسبة لي إما أن الموعد موعد غرامي أو موعد للتخطيط لجريمة قتل.

كـان يجلـس في المقعد الخلفي لسيارة سوداء تطلق نفير الشـرطة كل لحظة بمناسبة وبغير مناسبة، علي يساره ضابط شرطة بملابس مدنية وشارب بوليسي ولا شك ممتليء، بلحمه وبذاته وأمامه بجوار السائق يجلس ضابط آخر نحيف ومهذب وكأنه يتولي شيئا في العلاقات العامة لفندق أو وزارة.

كـان يعـرف أنه من المستحيل أن يحصل علي معلومات مـنهما فإذا كانا يعرفان فإنهما لن يقولا، وفي الأغلب فهما لا يعـرفان، مجرد حارسين يستمعان للتعليمات ويتبعان الأوامر، آخر ناس في الدنيا يمكن أن يوافق علي أن يراهم هؤلاء الذين يـراهم مرتين منتظمتين في الأسبوع، حيث يعطي محاضراته

فـــي كلية الشرطة. عندما طلبوا منه أن يضيف إلي عمله بكلية الحقوق أن يدرس بشكل منتظم مادته في كلية الشرطة، انقبض واغـــتم، لكن الخانع داخله حسم الأمر لصالح مزيد من الخنوع فوافق، واليوم حين كان ينتهي من درسه أمام مئات من طلاب الشرطة بزيهم البوليسي ورءوسهم الحليقة وعقولهم الحليقة وفي اللحظـــة التـــي كان يدرك أن محاضراته وأفكاره سوف تضيع تماما من رءوسهم أمام أوامر وتعليمات رؤسائهم، وأن ما يعلمه لهم من قانون واحترامه وقواعده ومواده وروحه لا مكان له في صـــحراء قلوبهـــم أمـــام العـــنف والقسوة والشراسة والتهاوي الأخلاقـــي الذي سوف يتلبسهم بمجرد أن يلبسوا نجمة الشرطة علي أكتافهم.

وفـــي هـــذه اللحظة دخل إلي المحاضرة هذان الضابطان، وانـــتظرا لما فرغ من ختام محاضراته، وتمشيا معه في الممر وهما يلقيان عليه ما تم تسجيله في صدرهما من صوت.

– سيادة الوزير يريد لقاءك حالا في مكتبه.

وكـــان يعرف أن «حالا» هذه معناها أن يحملاه لو رفض في قفص ويذهبا به إلي الوزير، لم يكن في نيته أن يتملص أو يرفض (متي تملص من شيء أو رفض) فركب معهما ومضي إلـــي البـــناية المهيـــبة الدائرية الصفراء حيث يرهبها الناس، ويخشاها الأبرياء قبل المذنبين، ويغشاها الأبرياء قبل المذنبين. سلمه الضابطان لضابط آخر في مدخل البناية – دكتور يوسف

يـــا أفندم – صعد معه الضابط الجديد إلي مصعد، انفتح فسلمه إلي ضابط آخر.

ـ دكتور يوسف يا أفندم.

صـــافحه الضـــابط الآخر ومشي معه في ممر طويل وهو يقـــول كلاما مقصوداً منه ملء الوقت فاتسع الوقت أكثر مللاً. نزلا إلي سلالم صغيرة في زاوية الممر، وانفتح باب يؤدي إلي صـــالة كبـــيرة تـــؤدي إلي باب له جهامة فخيمة انفتح فسلمه الضابط إلي ضابط آخر.

– دكتور يوسف يا أفندم.

أفـــندم.. كان يبدو «أفندم» فعلا، قادني بابتسامة وترحيب إلي باب انفتح بعد أن طرقه ودخل بي علي مكتب الوزير الذي كـــان بعيدا في نهاية الغرفة المتسعة الفسيحة التي تحتوي علي صـــالون ومائدة اجتماعات ثم مكتب الوزير الذي يحتل نصف عرض الغرفة تقريبا، وقف الآن لتحيته وقال:

– دكتور يوسف أهلا أهلا.

كان في انتظارها عند الباب حين رفعت قدمها لتضعها في الحـــذاء الـــذي كســـرت السكرتيرة كعبه، خرج فرأي المشهد فضـــحك وهـــو يـــرتدي رابطـــة العنق علي القميص الأبيض بالبنطلون الرصاصي الواسع.

– خـــير يـــا دكـــتورة ريتا.. هل هذا استعراض لأحدث الأحذية النسائية.

ضحكت رغما عن حرجها.

- الصناعة الأمريكية مهددة بالضياع يا سيادة المستشار.

صافحها وهو يفسح لها بالدخول إلي مكتبه وقال:

- ألــن تكفي عن الهجوم علي الرأسمالية يا دكتورة.. إنك من ديناصورات اليسار الأمريكي.

ردت بجلاء:

- أنا أفضل أن أكون ديناصورا في متحف على أن أكون ثعبانا في مكتب بالبيت الأبيض.

قهقه مجاملا لها أو متحاملا علي نفسه.

- هــذا ما قلته للرئيس.. إن دكتورة ريتا قطة شرسة لن نسلم من خربشاتها.

- القطة تخربش من يحاول أن يؤذيها.

لاحقها.

- ومن يحاول أن يداعبها أيضا.

في المساحة بين الجد والهزل قالت:

- أهو لقاء غزل؟

قهقه مرة أخري هذه المرة أمينا مع طبيعته.

- وهــل يجرؤ أحد علي مغازلة دكتورة ريتا.. إنني لست علي هذه الدرجة من الطموح.

ثم وضع حدا للثرثرة ودخل إلي الجد مباشرة.

- لقــد وقــع اختيار الرئيس عليك لتمثيل أمريكا في لجنة محــايدة تتولــي التحقــيق في جريمة اغتيال رئيس جمهورية بالشرق الأوسط.

ثم بدأ يحكي لها.

جلــس أمام الوزير وهو يحاول أن يتواضع إلي درجة لا تواضع بعدها.

عــاش عمره يسير جنب الحائط حتي زهق الحائط فتحرك ودخل هو فيه.

قال الوزير في إحساس بالمسئولية مبالغ فيه:

- منذ فترة ونحن نتابع نشاطك يا دكتور يوسف.

بهت يوسف وسارع مربوكا يجيب:

- أنا عمري ما كان لي نشاط سياسي أبدا.

ارتبك الوزير بدوره.

- أنا لم أقصد النشاط السياسي.. أنا أقصد النشاط العلمي.

كــان الوزيــر يلعن المهمة في سره ويسأل نفسه إيه بقي اللخبطة دي لكنه قال للدكتور يوسف:

- دكتور يوسف.. ألا تفكر أن تكون عميدا لكلية الحقوق؟.

- لأ.. لا أفكر.. لا أريد أي منصب في الحقيقة.

- لماذا؟

- أنــا راهب علم.. كفاية عليّ التدريس في الجامعة وكلية الشرطة والجامعات العالمية ومؤتمرات القانون والإشراف علي

رسـائل الدكـتوراه والماجسـتير.. إن هـذه هي مهمة العالم الحقيقي.

دخن سيجارا وأخرج دوائر غليظة من الدخان وهو يسأله:

- ألا تفكر في خدمة بلدك.

- اسـتفزه السؤال لكنه طوي إحساسه بجهل الوزير تحت جلده وقال:

- أليس العلم خدمة لبلدي.

- أحس الوزير بغبائه فأكد:

- طـبعا.. طـبعا.. أنا أعرف أنك رجل وطني يا دكتور يوسف.

كان دكتور يوسف يريد أن يقول له إنه ليس في حاجة إلي شهادة منه بالوطنية لكنه لم يواجه مسئولا من قبل حتي رئيسه في القسم يتحاشاه.. فلم يرد الآن لذا سكت وتمتم بعدها.

- شكراً .. شكراً.

رسم علامات الأهمية على علامات استفهام سؤاله.

- دكتور يوسف.. ما رأيك فى خطوات انتقال السلطة الآن بعد وفاة السيد الرئيس.

- الله يرحمه.

- الله يرحمه ويرحمنا جميعاً.. أكنت تحبه؟

رد دكتور يوسف مرهقاً حقاً.

- أنا لم أجب على السؤال الأول حتى ألحق أن أجيب على السؤال الثانى.

- صحيح.. مارأيك فى انتقال السلطة سلمياً؟

- شئ جميل.

- تفتكر كده.

- الحقيقة....

لكن دكتور يوسف توقف على أن يكمل الحقيقة.. كان يريد أن يقول فى الحقيقة إن انتقال السلطة سلمياً هون الشئ الطبيعى لكن ليس هناك أى ضمان لانتقال السلطة مدنياً وسلمياً فى دول العـالم الثالـث.. وأنـه يرى تحت السطح صراعاً بين ديدان السلطة، ثم في الحقيقة أن انتقال السلطة إلى وزير الحرب أمر عسكرى تماماً ليس فيه انتقال سلمى أو مدنى أساساً.

لكـن - بطبيعة الحال وبطبيعة دكتور يوسف - لم يقل أياً مما أحس به، كتفى أن يقلق من مجرد أنه أحس به.. ثم صمت.

فهم الوزير أن ثمة شيئاً فى داخل هذا الرجل، فسأله بشكل مباشر.

- هل كنت تحب الرئيس!

رد فى سرعة:

- ولماذا أكرهه.

- تحبه.

- الحب الكراهية مشاعر يشعر بها العشاق وليس العلماء.

قـرر أن يرمى وزير الداخلية الآن بالسر فى وجه دكتور يوسف.

– شوف يا دكتور – لقد اخترناك كى تمثل بلادنا فى لجنة مشتركة مع الولايات المتحدة الأمريكية للتحقيق فى جريمة اغتيال رئيس البلاد.

تسمر تماماً.. بهت وصمت وسكت ثم صار على مهل يحاول ان يمضغ كل كلمة قالها وزير الداخلية قبل أن يبلعها.. قبل أن يعيها.

لكن الوزير بدأ يحكى له.

١٥

فتح الضابط الباب بدورة مفتاح ثلاث مرات ثم التفت لهما وقال:

– إلي هنا انتهت مهمتي.. عندما تنتهيان اضغطا علي رقم ١١٢ في قرص التليفون سوف أعود لاصطحابكما.

ومضي بمنتهي الأدب وبمنتهي البرود وهو يتحرك مبتعدا.

قالت له ريتا بعامية أفضل سلامة من عاميته:

– تسلم إيدك.

لم يلتفت الضابط لامرأة تحمل وجه خواجاية وترتدي جلبابا نسائيا تنطق بعامية غامضة المصدر، ربما أصيب بالصمم كما لقنه رؤساؤه وهم يطلبون منه أداء هذه المهمة، الوصول بشخص اسمه يوسف يصحب سيدة إلي غرفة نوم الرئيس ويتركها وينصرف حتي يأذنا له بالعودة.. قبل ذلك وبعده.. أنت أصم.

أدارت ريتا المقبض الذهبي للباب الخشبي الذي لا تبذل جهدا لمعرفة أنه تكلف كلفة أثاث شقة متوسطة بالكامل.. مدت قدميها ودخلت ووراءها يوسف برهبة ابن البلد الذي لم يكن

يفكر أبدا أنه سوف يدخل غرفة نوم أحد رؤسائه، بل ربما ظن- كأهله في قري هذا البلد- أن رئيسهم لا ينام بعد أن تأكدوا أنه ربما لا يموت.

صحيح أنه ليس في مقدرة سيدة مثل ريتا أو غيرها من الأمريكيات أن يدخلن غرفة نوم الرئيس الأمريكي- إلا إذا كان غرض كليهما ليس مناقشة سياسية- إلا أنه يمكنها أن تشاهد غرف نوم الرؤساء السابقين أو اللاحقين، يمكن أن تدخل الي البيت الأبيض وتري كيف يعيش رئيسها، لكن القدر يكتب عليه الآن أن يري كيف يموت رئيسه.

أنار الغرفة واكتشفا معا أن الإضاءة الكاملة لكل زوايا الغرفة- لنسمِّها الجناح أدق- تحتاج ساعة كاملة من اللف والبحث عن أزرار النور أو عن فهم تقنيات الريموت كنترول المسئول عن كل هذه المصابيح.

التفتت له ريتا.

- غرفة نوم رئيسكم أكثر فخامة من غرف نجوم هوليوود.

انسحب يوسف من لسانه وقال:

- طبعا.. إن تمثيل رؤسائنا أكثر إحكاما من نجوم هوليوود.

التفتت له مستغربة.

- ما هذه الشجاعة المفاجئة.. إنني أصحبك وأنت صامت كل هذا الوقت وتعاملني كأنني مخبر أرسلته

حكومتكم للتجسس عليك أو الإيقاع بك في أي مصيبة أثناء هذا التحقيق.

لم يتكلم.. سكت.. اكتفي بتأمل ملامحها التي انتفخت من الحماس والغضب.. أضافت هي:

- اسمع.. سياسة الصمت التي تنتهجها لن تنفع معي.. أنا لا أتحمل الهدوء البارد.. ثم لاحظ نحن نحقق في اغتيال رئيسك لسنا مساعدين لشرلوك هولمز في لغز هزلي.

تجاهلها إلي الحد الذي يمكن أن تعتبره حرق دمها الحامي.. عرف أنها هيستيرية الحماس والانفعال عندما رآها لأول مرة في المطار، اتصلوا به وأخبروه بأن سيدة تحمل اسم ريتا جيفرسون مكربي سوف تحضر مساء علي طائرة أقلتها من نيويورك، وأنها هي التي ستشترك معه في اللجنة السرية للتحقيق، كانت التعليمات واضحة- وتأكد أنها وصلت أيضا إلي ريتا.. أي مكان أو شخص تريدان اتصلا برقم تليفون معين سوف يرد عليكما ويجري اللازم، وفيما عدا اللقاءات الرسمية والأشخاص الذين ستحققون معهم لا أحد يعرف عنكما شيئا تصرفا كأنكما عاشقان في جولة سياحية.

أول ما عرف أنها سيدة.. انقبض واكتأب.. وسري في سره «هيه الحكاية ناقصة نسوان كمان».. كان يشعر أن المسألة كلها فخ للإيقاع به لتوريطه في كارثة، وكان متأكدا أن دولته، وحتي أمريكا- لا تريد أن تعرف أكثر مما تعرف وأنها تريد لهذا التحقيق نتيجة محددة وإلا لماذا تستعين الدولتان بهواة

من سلك التدريس الجامعي كي يحلوا لغزا عصيا ومرعبا مثل اغتيال الرئيس في غرفة نومه.. أفهمه وزير الداخلية أن كل الجهات والأجهزة أجرت وتجري تحقيقاتها، وإذا أرادا أن يطلعا علي أي شيء فهو تحت أمرهما.. لكن النتيجة التي سوف تعتمد أمام المحاكم - إن وجدت نتيجة أو وجدت محاكم- هي ما وصلت إليه اللجنة المستقلة المشتركة.

لم يستنزف نفسه في توقع شكل لها. فقط انغرس في ورطته دونما حماس، هناك عشرات النساء القادمات علي الطائرة، كلٌ وصلن، وترك الموضوع كله للصدفة حتي اقتربت منه سيدة شابة (فيما بعد عرف أن عمرها أربعون عاما» نحيفة وبيضاء، وذات وجه صابح غير مكدود وغير مجعد، ضحوكة وعصبية حتي الهوس، شعرها ملموم للخلف دون بذل أي جهد في تسريحه، أسود لا يخلو من خشونة، نظارتها تشي أنها تكره العدسات اللاصقة وعبئها، تريد فقط أن ترتدي النظارة أو ترميها جنبها علي السرير دون حاجة للاستعدادات والتجهيزات الطبية المعقدة للعدسات، صدر أربعيني وأحمر شفاه خفيف وكفان تحملان صفات الجنسين من النعومة والخشونة، العظام البارزة، أو اللحم الملفوف بلا خواتم أو طلاء أظافر. لم تحمل غير حقيبة صغيرة علي كتفها.. قالت له:

- دكتور يوسف رضوان.

هز رأسه مندهشا أنها هي التي تعرفت عليه وليس هو.

صافحته بحرارة وعرّفت نفسها.

- دكتورة ريتا جيفرسون مكربي.

كانت تتكلم لغة عربية طليقة، فأراد أن يجاملها عندما ركبا سيارته:

- اللغة العربية التي تتكلمين بها جيدة جدا وفصيحة للغاية.. أين تعلمتها؟

ابتسمت.

- غريبة.. الأجهزة المحلية لم تعطك أي بيانات عني.

ثم أخرجت ملفا كرتونيا أخضر عليه رسم البيت الأبيض وفتحته كانت صورة فوتوغرافية له وثلاث صفحات بخط كبير من الكمبيوتر.

- لقد قدموا لي ملفاً عنك من المؤكد أنه غير كامل، لكن كان كان يكفي أن أعرف أنك لست حكومياً ومن ثم فوجئت بأن الحكومة لديكم قد احترمت اتفاقها وجاءت بشخص مستقل أو بلا تاريخ سياسي كما يقول التقرير.

حاول أن يخفي دهشته لكنها ضحكت.

- لا تندهش.. ليسوا عباقرة لدينا إلي هذه الدرجة، إن الحكومة لديكم أمدتهم بمعلومات وهم أضافوا عليها من إحدي موسوعات القانون.. إنك أستاذ حقوق شهير يا دكتور.

غطس في إحساسه بالورطة.. حتي قطعت هي الصمت «طول الوقت تتحدث بحماس وانطلاق كأنها في رحلة إلي الآثار».

- أنا جعانة.

أجابها وهو يضع سدوداً وحدوداً أمام بساطتها واقتحامها.

- سوف نصل إلي الفندق بعد دقائق.

شخطت فيه- فندق إيه.. أنا لا آكل أكل الفنادق، يمكن أن ترميني في أي شارع في وسط البلد وأنا سوف أتصرف.

كان عليه أن يتصرف بشهامة فقال:

- وهل هذا ممكن.. طبعا سوف أصحبك إلي مطعم قريب.

في صباح اليوم التالي حين نزلت من غرفتها بالفندق رآها ترتدي جلبابا شعبيا من زي تراث هذا البلد، مشغولات من الخيط الذهبي علي الأكتاف وعند أساور الأكمام، ورداء فضفاض وألوان زراعية ثم مشغولات فضية في سلسلة معلقة علي صدرها.

- متي أحضرت هذه الأشياء.. لقد تركتك ليلاً تذهبين للنو في غرفتك.

قالت له:

- كويس جداً أنني أثرت فضولك، لقد ذهبت إلي محل جلاليب في منطقة قريبة وصفتها لي عاملة في الفندق، ذهبنا معاً في الحقيقة واتعشيت مرة أخري في الشارع علي عربات طعام فوق الأرصفة، تيقن ساعتها أنها مجنونة ولابد أن يأمن حماقتها.

عندما ركبا السيارة في اتجاه القصر الرئاسي، قالت له وهي تغلق جهاز الكمبيوتر الخاص بها:

- أنا لا أفهم كيف تكون أستاذ حقوق ولاتنطق بكلمة كل هذه السنين ضد ما يحدث في بلدك وما يفعله رئيس مجنون وحكومة فاسدة، كيف تصبر علي هذا السكوت، أفهم أن تكون منافقا ولكن أنت لست كذلك كما أعتقد، أفهم أنك تريد مجداً أو منصباً أو نفوذا، لكنك يا مولايٍ كما خلقتني، حتي أنك لاتعمل بالمحاماة، إذن لماذا عشت خائفاً هكذا؟ لماذا نام ضميرك؟.. يا راجل ولا كلمة للطلبة في محاضراتك، ولا حرف في أي ندوة أو مؤتمر.. إيه اتخرست.. ولا اتعميت قبل ما تتخرس؟.

قالت كل هذه الكلمات مندفعة ومتوترة وقرفانة منه.. ولزم هو الصمت كأنه القدر.

حاولت أن تهدأ الآن، جلست علي طرف سرير الرئيس، أحست بمجرد ما وضعت مؤخرتها أنها تنزلق في ريش نعام (تراهن أن أحداً ممن عرفتهم في حياتها لايستطيع أن يصف ريش النعام).. حاولت أن تجره.. مترا من الود.

- دكتور.. هل يمكن أن تصف لي إحساس النوم علي ريش نعام.

فوجيء بتحولها، لكنه أدرك أنها مجنونة فتعامل مع تحولاتها بهدوء.

- الحقيقة قرأت عنه في الكتب، سمعت عنه في الأمثال الشعبية كثيرا عندنا، لكن أنا لا أعرف حتي النعام بدقة.

جلجلت بضحكتها.

- يا دكتور أنت راس نعامة كبير.

أحـــس أنهـــا أهانـــته - علي نحو عدائي غامض الدافع- وأحســـت أنها جرحته فلزمت صمت المذنبين مكسوري العين. تجـــاوز دكتور يوسف النصل الذي تشهره في وجهه منذ التقيا وقال:

- هل غرفة النوم علي حالها منذ جري الحادث أم غيروا فيها ترتيب أشياء أو تعديل أثاث.

انتفضت من السرير برشاقة.

- ملاحظة رائعة.

ثـــم أضافت وهي تجول فاحصة بعيونها المكان، السرير، الـــدولاب، الأنـــتريه الصغير، والتسريحة الملكية، السجاجيد الطهرانـــية، لوحـــات الحوائـــط، سرقتها لوحة في زاوية ما، اقتربت ناحيتها وهي تتأوه.

- أووه.. محمود سعيد.. لوحة أصلية لمحمود سعيد.

هـــذه المـــرة نجحت في إثارة استغرابه، إلي هذه الدرجة تعرف فنانا مثل محمود سعيد، لكنه التفت ناحية لوحة أخري.

- وهـــذه لاتقـــل عـــنها أهمية.. إنها أصلية لعبد الهادي الجزار.

ضربت علي صدرها بكفها.

- مستحيل رئيسكم كان يعرف مقدار أهمية هذا الفن.

قال وهو يدور حول نفسه:

- أظـــن أنهـــم أفهموه أنها حاجة غالية جداً وثمينة، لهذا وضـــعها في حجرة نومه حتي يراها هو ولا يشاركه فيها أحد

آخر. اقترب من لوحة عبد الهادي الجزار طويلاً حتي شعرت أنـــه ينقشها في عينيه، لكنه مد يده إلي تحت اللوحة تماما حيث تعلـــق جراب نحاسي مطعم بالأحجار الكريمة في تحفة ماهرة الصناعة.

أمسك بالجراب المعلق ثم سألها وهو يعطيها ظهره.

- ألم يقتل الرئيس بخنجر؟

مس السؤال مركز الجنون في مخها، صاحت:

- نعم.

التفت لها.

- هل لديك ورقة بمواصفاته أو صورة فوتوغرافية له؟

صرخت فيه مستثارة تماما:

- لا.. الأوراق سوف تصل ليلاً إلي الفندق، لكن يمكن أن نطلب ما نريده.

قال في هدوء من لا يعنيه الأمر:

- عموما لانريد أن نتسرع في الاستنتاج.. ممكن ألا يكون الخنجر المفقود هو الخنجر المستخدم في عملية الاغتيال؟

أخذت تتكلم وهي تدون في مفكرتها بالإنجليزية وبحروف ضخمة تأكل الصفحة.

- لو لم يكن هذا الخنجر هو المستخدم في عملية الاغتيال، فأين الخنجر المعلق علي الحائط؟.. مستحيل يكون الرئيس أخذ هدية عبارة عن جراب فقط، دا يبقي رئيس هزق، وهل معقولة يكون الخنجر اتسرق وهو لايعرف صعب جداً.. إلا إذا.

أكمل فوراً.

– إلا إذا كــان قــد تمــت ســرقته بعد عملية الاغتيال، خصوصا أنك تلاحظين أن الغرفة فعلا مرتبة ونظيفة والسرير زى الفــل، واضـــح أن المرتبة والوسائد والأغطية والملاءات المغطاة بالدم قد تم التحفظ عليها.

ردت في حماس:

– ثــم أريــد أن أعرف تاريخ إهداء هذا الخنجر ومن أي دولـــة؟ وهـــل مواصفاته موجودة في سجل الأشياء المهداة إلي الرئيس؟

جلــس بلا تفكير علي مقعد، فنهره إحساس الموت ورهبة غرفة نوم الرئيس فقام واقفاً قائلا لها:

– حيلك.. حيلك.. أشك تماما في وجود مثل هذه السجلات عــندنا، إن الرئيس يهدي ما يشاء دون أن يسجله أحد، ويتلقى من الهدايا ما يشاء دون حتي أن يعرفها أحد..

حاولت أن تداعبه فهتفت ضاحكة:

– طبيعي يحصل في البلد كل ده طول ما النعام سارح فيه وخبطته في صدره، إنها تقفز الحواجز وتحطم الحدود علي نحــو يســتفزه، لــم تجد هذه الخبطة في صدره إلا الدهشة. وتعاملـــت هي مع دعابتها اللفظية والبدنية علي أنها جرت مع صديق.. تنهدت وصرخت منفعلة وهي تتجه نحو الباب:

– لابد أن نقابل الآن مدير الرئاسة.

وافقها برأسه لكنه أوقفها بكفه.

– لحظـــة.. ألـــيس من الأفضل أن تطلبي شرائط الفيديو المســجلة لحركة الأمن ليلتها في القصر؟.. أعرف أنه لاتوجد في جناح الرئيس كاميرات، لكن سوف تستفيدين أكثر لو رأيت المناطق المحيطة بجناحه ليلتها.

– يوســـف أنـــت تـــتحدث لي كأنني المسئولة وحدي عن التحقيق.

بعد أقل من نهار معاً رمت لقبه وتعاملت باسمه.

– أظن أنك أنت الرئيسة؟

– لماذا؟

– أنت الخبيرة..

– لمـــاذا تعتقد أنني الخبيرة وأنت الهاوي.. أمازلت تري أننـــي مـــن المخابرات الأمريكية.. أم لمجرد أنني قادمة ممثلة للحكومة الأمريكية؟

لم يجب حيث اكتفي بالفرجة عليها – صرخت فيه:

– آه.. أنت جاي تطلع دين أمي.

قالـــتها كأنهـــا خارجة توا من الحارة التي تقع خلف بيت عائلته، عادت تحاول أن تدلق ثلجاً علي سخونة كلماتها.

– اســـمع يـــا يوســـف.. لماذا لم أحاول أنا أن أصدر لك إحساســـاً باعـــتقادي أنـــك تعمل لحساب وزارة الداخلية، وأنك مجـــرد جاســـوس مطلـــوب منه أن يعطلني عن الوصول إلي الحقيقة.

عندما سمع كلمة الحقيقة أدرك أنها تصدق المسرحية التي تلعب بطولتها، فحاول جاهدا أن يكون صريحاً.

- أظن أنهم أحضرونا لنتمم أوراقا وتقفيل ملفات وليس للبحث عن الحقيقة. فضلا عن كارثة الوصول إليها.

هزت رأسها بحركة عصبية كأنها توافقه، ثم تكلمت بسرعة كأنها تلاحقه:

- أشكرك علي ردك الصريح أخيراً، وعلي واقعيتك أيضا، لكن أنا مصممة إذا كانوا يريدون هذه اللجنة كوميدية أن أقلبها ميلودراما وتراجيديا عنيفة علي دماغهم.. كل ما أحتاجه أن تكون معي كما كنت اليوم بملاحظاتك الفذة وأرجو أن تغتر قليلا، فأنا لا أصف ملاحظات كائن من كان، بأنها فذة سوي ملاحظاتي أنا فقط.

ابتسم.. فأخافها استخفافه.

١٦

انتشر الحرس في كل مكان حول المقبرة، وضع قبر الرئيس فوق تبة صناعية مرتفعة أحاطوها بنجيل جاهز التركيب وزرعوا نخلات جلبوها من وزارة الزراعة علي عجل، كان الموت مفاجئا، ولم يكن الرئيس يفكر أبدا في موته، فلم يأت علي ذكر إعداد مقبرة له، أو مكانها، أو شكلها أو أيا ما كانت تفاصيلها، وبطبيعة الحال لم يكن قد ترك أي تعليمات أو وصايا (حيث تكون تعليمات الحي في حياته تعليمات بينما تتحول في مماته وبعد وفاته إلي وصايا) حول شاهد القبر، ما الذي يكتبونه عليه، وهل هناك آيات خاصة من القرآن الكريم يريد أن توضع علي رخام شاهده، أم مقولة له أو لغيره يتمناها علامة علي حياته بعد مماته.. لهذا جاء كل شيء خاص بمقبرته إبداعا واختراعا، أراد أمين الرئاسة في البداية أن يقيم المقبرة في المساحات الشاسعة حول القصر الرئاسي، لكن وزير الداخلية رفض بحجة واضحة، أنه يريد الوصول بمواكب زوار المقبرة الرسميين في أقصر طريق وبأسرع وقت، وأن توضع مقبرة الرئيس علي بعد ٤٠ كيلو مترا من العاصمة

معناه أن يتحمل حراسة رئيس أجنبي داخل العاصمة ثم خارجها كل هذه المسافة كي يضع باقة علي قبر الرئيس، لم يقتنع أمين الرئاسة بهذه الحجة لكن الذي أقنعه كان مدير جهاز الأمن الوطني الذي رأي أن وضع مقبرة الرئيس السابق بجوار مقر الرئيس الحالي أمر يثير الضغائن والمشاكل، فاقتنع مدير الرئاسة، أمسك ثلاثتهم بخريطة حديثة للعاصمة وأخذوا يتنقلون بأصابعهم وأسنة أقلامهم علي ألوان الخريطة وأشكالها بحثا عن مكان، حتي صادف وزير الداخلية مساحة خالية خلف استاد كرة القدم الرئيسي في العاصمة، قال:

- من يملك هذه الأرض؟

رد أمين الرئاسة:

- لا أعرف بالضبط ربما وزارة الشباب

أومأ وزير الداخلية:

- يعني ابنه.

رد أمين الرئاسة:

- أنت تتحدث كأن ابنه سوف يستمر وزيرا للشباب إلي الأبد.

حرك وزير الداخلية رأسه علامة للنفي:

- حد ضامن إلي متي يعيش وإلي متي يعيش كرسيه.. ما أقصده أنه لن يثير الآن مشاكل حول الأرض، إنها مسورة جاهزة، من الليلة نبدأ العمل فيها لتنتهي بعد ٤٨ ساعة، وقبل الجنازة حتي ولو بساعات.

قال مدير الجهاز:

- هل تطلب من وزارة الحرب استخدام معداتها من أجل بناء المقبرة فورا.

ضحك أمين الرئاسة رغم أن الاجتماع كله حول دفن جثة.

- ما أعز هذا الطلب علي قلب وزير الحرب.

جاوبه كلاهما الابتسام.. لكن مدير الجهاز حاول أن يسد ثغرة بدت له.

- لكن المقبرة في حاجة إلي رسم هندسي.

عاجله وزير الداخلية:

- رسم هندسي إيه بس.. دا أي حانوتي ولا تربي في البلد يعملها في دقيقة.. حفرة وفوقها متر ولا اتنان أسمنت فوق الأرض متغطي بقطعة جرانيت كبيرة وشاهد رخام مكتوب عليه الاسم والتاريخ.. وشوية زهور علي نجيل جاهز علي كام نخلة من وزارة الزراعة بقت مقبرة رئيس.

ولم تمنع هذه الفوضي أن تكون المقبرة علي قدر من الجمال والراحة فعلا، فقط تم هدم أحد الأسوار المحيطة بالساحة حتي تصبح مفتوحة علي الشارع الرئيسي وكان العمال يشتغلون ليلا - بعد الدفن - في نصب احتفالي كبير في مدخل الساحة بناء علي رغبة ابن الرئيس، الذي حضر الآن مع رئيس وزراء اليابان الذي كان قد تخلف عن حضور الجنازة ونظرا لأهمية البلاد كمستهلك ضخم للمنتجات اليابانية آثر أن يجاملها بحضوره ولو متأخرا عن الجنازة ليقوم بواجب العزاء بنفسه

وكان علي رأس الوفد المستقبل له أمام الجنازة وزير الحرب وكان في صحبته المسئول الياباني ورئيس الوزراء أيضا الذي دخل بهيئة متزنة ومبتسمة علي غير ظهوره الباكي يوم الجنازة، أخذ ابن الرئيسٍ في حضنه وكأنهما لم يتبادلا منذ وفاة الرئيس إطلاق النار كلاً في صدر الآخر.

انتشر الحرس حول المقبرة التي بنيت فوق تبة من الرمل صنعتها المحاريث الحديثة و رافعات وزارة الحرب، وعند المسافات الفاصلة بين النخيل، وحول أسوار المقبرة،، وفوق أسطح الاستاد الوطني الذي يكشف المقبرة من فوق حيث يراها من يجلس علي أعلي مدرجات الدرجة الثالثة حين ينظر خلفه، وقف رئيس الوزراء الياباني وقد انطلقت فرقة الموسيقي العسكرية بزيها الأبيض في الأسود وأبواقها النحاسية وطبولها باعثة الرهبة في عزف سلام للموتي، وضع رئيس الوزراء الياباني إكليل الزهور يشاركه في حمله ضابطان من حرس الشرف، وبينما قرأ مسئولو البلاد الفاتحة مهموسة علي روح الرئيس الذي لا تزال جثته دافئة في قبره، كان المسئول الياباني صارم الملامح مطرقا بنظراته إلي الأرض، يتمتم شيئا لعله تعاويذ من ثقافته اليابانية، انتهي العزف والتف المسئولون حول رئيس الوزراء الياباني الذي عاد فصافحهم جميعا، وصاحبه ابن الرئيس ووزير الحرب حتي باب سيارته السوداء التي ستقله مع رئيس وزراء البلاد إلي المطار حيث يقوم بمراسيم توديعه الرسمي.

حين مضت السيارة، أخذ وزير الحرب ذراع ابن الرئيس تحت إبطه وضمه إليه ووقفا فتثبت المشهد تماما من حولهما، الضباط والحرس والفرقة الموسيقية العسكرية وبقايا الوفد الياباني، وعدد متناثر من صغار الموظفين والحرس الشخصي التابع لكل مسئول كبير موجود من مسئولي البلاد.. بادره وزير الحرب:

- كيف حالك الآن يا ابني؟

رد الآخر في لهجة من يعرف هذا الحوار:

- نحمد الله.. الخسارة كبيرة لكن هذا قضاء الله.
- صحيح.. ربنا يعوض هذا البلد خيرا عن هذا الفقيد العظيم.

بالمناسبة أنا أعتذر أن المقبرة لا تليق بفقيدنا الراحل لكن ظروف الوقت وعدم الاستعداد لمثل هذا الخبر كانت وراء تواضع المقبرة.

- لا تقل ذلك.. إنها مقبرة عظيمة.. ثم ليس المهم أن تليق المقبرة بالفقيد، المهم أن يليق خليفته به.

لم يطمئن وزير الحرب للهجة، صحيح أن قواته في كل أرجاء البلد، وحضوره ماثل للجميع رادعا عن أن يدع أي منهم خياله يسرح به إلا أنه لم يرتح للهجة.. فيها غصة ما، فيها إيحاء، إيماء، تمني أن يضبط أعصابه عن الرد عليه بما تمليه عليه رتبته لكنه قال:

- وما رأيك في خليفته يا ابني؟

تعمد أن يقول «ابني» بأداء يوحي بالتدليل كأنه يعامل طفلا.

ابن الرئيس أسرع في إجابته يغطيها بابتسامة وظلال دمعة.

– والله لو كان الله قد حرمني من رئيسي ووالدي في نفس الوقت، فإنه يعوضني بك عن الوالد قبل الرئيس.

ارتجف قلب وزير الحرب حتي كاد يبكي مصدقا لما ألقاه ابن الرئيس بين يديه فرد بأحسن منها.

– أما الوالد فلدينا ما يعوضه من حب وحنان ورعاية لك.

أما الرئيس فلا نملك حكمته ولا رؤيته ولا قدرته، ونسأل الله أن يوفقنا إلي الاقتداء به.

وغمرت المشاعر المصنوعة طبيعة الاثنين فاحتضنا أمام الجمع مما جعل البلد كله يفهم أن وزير الحرب قد ضمن رئاسة بلا منغصات، دباباته في الشوارع والأمريكان لم يتذمروا من اسمه ومسئولو البلد في خدمته وابن الرئيس أعلن بيعته.

كان هذا بالضبط ما يدور في بال وزير الحرب وهو يتجه نحو سيارته يتقدمه حرسه ويحيطه مرءوسوه من الضباط، انفتح باب السيارة مع نفخ بوق الفرقة الموسيقية العسكرية التي بدأت في لحن حماسي لاهب حين دخل وزير الحرب إلي مقعده وارتكن إلي مسنده وزفر زفرة راحة لكن أحد ضباطه سلم إليه مظروفا أصفر وقال:

– هذا الملف جاء بشكل عاجل لسيادتكم بالبريد السريع من بلجيكا، ورأينا لغرابته أن نقدمه لسيادتك بسرعة بعد التأكد من أمانه وخلوه من أي مفرقعات.

أمسك وزير الحرب المظروف وحضنه بسرعة وفتحه بلهفة فسقطت منه صور أشعة قلبه وصور شهاداته الطبية ومعها قطعة ورق صغيرة فرت من المظروف إلي أرض السيارة، فانحني يحاول التقاطها فنهج ولهث وانفطر عرقه فأسرع ضابط حراسته بالتقاط الورقة من الأرض وهو يتساءل:

– خير يا افندم حاسس بحاجة؟

نفي برأسه وأشار بيده أن يسيروا بالسيارة، أعطوا التعليمات للسائق فانطلق، حين كان وزير الحرب يقرأ قطعة الورق الصغيرة المكتوبة بالإنجليزية بخط الكمبيوتر وبلا توقيع.

– هذه صور من محتويات ملفك الطبي.. نتمني لك السلامة.

١٧

أيقظــته مــن عــز الــنوم وأعزها راحة، في تمام الثالثة والنصف صباحا رن جرس التليفون فاقتحم منامه وهز سكونه، مــد يده إلي السماعة وهو يعرف - في كل الأحوال- أن رنة تلــيفون فــي هذا التوقيت، في هذه الأيام السوداء تعني مصيبة أخري ترتمي علي دماغه.

كانت هي علي الطرف الآخر، فعرف أنها مصيبة أشد مما توقع.

- أيوه يا دكتورة.

- أنت صاحي.

- اتهببت صحيت.. خير؟

- انزل ضروري إلي لوبي الفندق أو آتي لك في غرفتك.

تنبه تماما.

- لا فــي عرضــك أنا نازل.. لكن ما هي الضرورة في إتمام اللقاء الآن.. أمامنا أربع ساعات والبلد كله يصحو، نتكلم علي الإفطار.

بصلف استعماري.

- لأ.. انزل حالا.
وفي استسلام سكان أرض محتلة.
- حاضر.
شـــدته تقريبا من رابطة عنقه نحوها في المائدة حينما نزل ووجدها ضاربة نصف علبة سجائر ودخانا يشتعل في صدرها وكأن إنذار حريق الفندق سوف يدق حالا، قالت:
- كيف جاءك نوم بعد لقاء مدير الرئاسة؟
رد هازلا:
- جاءني النوم بعد اللقاء لأنه زارني قبله وكان كابسا علي نفســي طــول الحوار مع مدير الرئاسة حتي أنني غفوت فاتح العينين أمامه.
اعتــبرت ما يقوله سخفا مقصوداً منه استفزازها فواصلت دون أن تقف عند أي نقطة في حروفه.
- ألم يقل لنا الآتي:
ثم أفردت ورقة كانت مطوية في جيب جلبابها وواصلت.
- إن أحـــدا لـــم يلتفـــت لكون الخنجر الموجود في جسد الرئيس هو نفسه الخنجر الهدية المعلق علي الحائط ومن ثم لم يلتفت أحد لكونه كان مختفيا أول ما دخلوا أم لا.
كـــان الجرســـون قـــد جـــاء له بفنجان قهوة سادة وتبادلا النظرات التي كانت تعني - أمام حماسها وصراخها - حوارا سريا بينه وبين الجرسون معناه.
- كان الله في عونك يا بيه.

هذه هي نظرة الجرسون.
- شفت يا عم آخر المشي وراء النسوان.
هذه هي نظرة دكتور يوسف.
- يا عم قوم اضربها قلمين ولا ارميها تحتك علي السرير.
هذه هي نظرات الجرسون الأخيرة وهو يصب القهوة، رفع دكتور يوسف رأسه إليه قال يعني يقول له شكرا وقال بنظراته:
- أضـــربها.. يـــا عـــم اتنيل.. هذه تضرب عشرة مثلي وســـرير إيه- لا أحد يسكت هذا النوع المزعج من النساء حتي في السرير.
بعدمـــا مشـــي الجرســـون، ضربته دكتورة ريتا علي كفه بغيظ.
- خليك معايا.. قاعد تبص علي الجرسون كأنه زميلك في الجامعة ومتنكر.
كـــان يبدو أنه لا أحد في الدنيا قادر علي أن يجعله يتخلي عن شراء دماغه.. قال لها:
- أنا معك بدليل أنني ضد كلامك.
- يعني إيه؟
- لازم تفكـــري أن مدير الرئاسة لم يكن من أوائل الذين دخلوا غرفة نوم الرئيس وليس آخر واحد دخلها.
- صـــحيح.. لكن هذه هي نفس أقوال الجميع.. جميع من دخل إلي الغرفة.
أجابها بهدوء قائل:

- ومن قال إن كل ما يتفق الجميع علي قوله صحيح.

صرخت متهللة.

- يا ولد- ما هذا التمرد.

وأكملت دون أن تترك له فرصة لاستيعاب تصرفها.

- المؤكد أن الخنجر ليس موجودا في غرفة الرئيس، ثم إن الخنجر المتحفظ عليه موجود في مبني الأمن الوطني، ثم إنه لا توجد أي مواصفات نعرف بها أن هذا الخنجر الموجود في أحراز القضية هو نفسه الخنجر الذي كان في غرفة الرئيس.

- لا أفهم.. اشرحي مع مراعاة أنني نمت ساعتين فقط.

- سأشرح مع مراعاة أنني لم أنم حتي هاتين الساعتين.. لو جاءوا الآن وقالوا هذا هو الخنجر الذي قتل به الرئيس.. وهو نفسه الخنجر الذي كان موجودا في غرفته.. ليس أمامنا إلا أن نصدقهم لأن البيه رئيسك المقتول لم يكن يسجل له أحد هداياه.

قال كأنه أمسك بزمارة رقبتها.

- آه.. شفت.. ألم يكن من الأفضل أن ننتظر ونري مسئولي جهاز الأمن الوطني ثم نقعد نثرثر في الأدلة والأسئلة؟

- شفت أنك لست ذكيا بما فيه الكفاية.. لقد رأيت مسئول الأمن الوطني فعلا.

اندهش دكتور يوسف وأحس أن أحدا يقوده بخيط من فوق مسرح العرائس.

- متي ؟ ولماذا بمفردك؟

كانت تعرف أن هذا سوف يطير النوم من عينيه، فصممت أن تصطاد النوم وهو يطير من عينيه فترميه بالمفاجأة.

- هنا في الفندق، ولدينا موعد معه بعد عشر دقائق من الآن.

قال إنه ذاهب كي يقضي أمرا سريعا وسيأتي إلينا في المقهي الليلي للفندق.

ابتسم في خبث.

- ومن قال لك إن هذا الرجل هو رجل الأمن الوطني.. وأنه سوف يفي بوعوده؟

أحست أنه انتصر عليها فلم تكن تملك ما تجيب به عليه، أنقذها أن رجل الأمن القومي كان جالسا الآن بينهما تقريبا، لم يلاحظا أنه جلس في المائدة المجاورة فاتحا جريدة أجنبية عن البلاد، ثم لف بمقعده دورة كاملة فكان ثالث المائدة مع دكتورة ريتا ودكتور يوسف.. وقال في أدب مبالغ فيه:

- صباح الخير.

زالت قوتهما تماما أمام هذه الحركة فارتدت شجاعة دكتورة ريتا لها في عدوانية شديدة.

- صباح الزفت.. إنت لازم توقع قلبنا.

أدرك يوسف أنه الرجل المقصود فصمت حتي يفهم رأسه من رجله.

أضافت دكتورة ريتا دون أن تترك الضابط ينطق.

- وبعدين يا جدع أنت مش قلت لي إنك مندوب الأمن الوطني.. إيه صحيح الذي يثبت ذلك ولماذا لم تتهدوا وتنتظروا حتي نأتي لكم في الجهاز.

أخذته المفاجأة فدق بأصابعه علي سطح المائدة وهو يقول:

- لو سمحت اهدئي يا دكتورة.. لم نشأ حضوركما للجهاز لمزيد من السرية التي يبدو أنه ليس لها أي أهمية لديك.. أما ما يثبت أنني مندوب الأمن الوطني فهو الخنجر.

فتحت فمها دهشة.. بينما كان يوسف يتحاشي فضح مشاعره.

- بتقول إيه؟

- الخنجر.. أليس الخنجر هو محل سؤالكم مساء اليوم لمدير الرئاسة لقد اتصل بنا وطلب سرعة التعاون معكم وبأوامر من رئيسي كلفت بهذه المهمة أن أرد علي أي أسئلة لديكم فضلا عن تزويدكم بملف تحقيقاتنا كاملا.. لكن لدي سؤال أولي يا دكتورة هل ستطلبين أيضا ملف تحقيقات جهاز المخابرات المركزية الأمريكية في هذه القضية وهل سوف يحضرونه لك؟!

صرخت فيه:

- طبعا.. بالجزمة القديمة.. همه بس عاملين عليكم خواجات ومهمين.. لكن أمام الصحافة والرأي العام والفضيحة العالمية سوف يخضعون لكل طلباتنا.

رد عليها الضابط في أدب جم.

- أتعشم أن يكون تفاؤلك في محله.. أو تهديدك في قدراتك.

ثم أخرج ملفا من مقعد خلفه.

- هذا هو الملف.. أين الأسئلة؟

قررت أن تشرك أبا الهول الجالس جانبها، دكتور يوسف رضوان.

فقالت بشر حقيقي.

- اتفضل يا دكتور سفنكس.

دهش يوسف والضابط معا، فكتمت ضحكتها.

- أقصد يا دكتور يوسف.. أليس سفنكس هو أبوالهول الصامت الذي لا يتكلم أبدا مثل حضرتك في حضور مسئولي بلدك.

تنحنح يوسف ورماها بنظرات كالشرر المنطفئ الذي لا يخيف، حيث إنه لا يشتعل وقال متمتما:

- كنا نتساءل هل هناك وسيلة للتطابق بين الخنجر الموجود في جثة الرئيس وبين الخنجر المهدي للرئيس من اليمن.

قال الضابط بسرعة:

- لأ.. لم تكن موجودة أي وسيلة حتي تنبهنا لملاحظاتكم هذا المساء وبالصدفة كانت هناك صورة تم التقاطها لأحد زعماء اليمن وهو يهدي الرئيس هذا الخنجر.. وقد كبرنا اللقطة و المكان الذي يظهر فيه الخنجر بكل تفاصيله الممكنة.. وقد

وضعت هذه الصورة منذ دقائق في الملف.. كان سر تأخري هو الحصول علي تكبير الصورة من مندوب سوف يلحق بي في الفندق.

تدخلت ريتا وهي تنتعش بهذه الخطوة.

- طيب بخصوص تقرير الطب الشرعي.

- ماله.

- مالوش.. أقصد هل هو موجود؟

رفع الضابط كتفيه.

- طبعا.. في الملف!

سأل يوسف:

- من الذي كتب تقرير الطب الشرعي للرئيس؟

تأمل الضابط وجه دكتور يوسف قليلا ثم قال:

- هل يفرق من قام بالكشف علي الجثة وتشريحها؟

رد يوسف متراجعا ومترددا:

- أبدا.. هذا مجرد سؤال..

صرخت ريتا:

- لأ.. يفرق طبعا.. هل هو جهاز طب شرعي مستقل أم تابع للجهاز؟

أجاب الضابط:

- لا يوجد هناك طب شرعي مستقل في أي مكان في العالم.. لابد أن يتبع جهة ما.

تعالت عليه ريتا بوضوح لا لبس فيه.

- حضرتك لست ملما بالعالم كله كي تتحدث بهذه الثقة.. ثم إنه ليس لنا دخل بالعالم الآن.. فالعالم لا يشهد كل يوم رئيسا يتم اغتياله في سرير غرفة نومه.. من قام بالتشريح؟

قال الضابط في زهق ومرارة:

- لدواعي السرية الشديدة.. قام بالكشف الطبي طبيب تشريح يتعاون معنا وهو من كبار أطباء البلد في هذا المجال.. وبالمناسبة لا يوجد لدينا أكثر من الأطباء في البلد كله، فمنهم ثلاثة أو أربعة كبار والباقي شبان بلا خبرة أو تجربة.

قالت ريتا:

ولماذا لم تطلبوا من الأطباء الثلاثة إجراء الكشف معا وتقديم تقرير جماعي.

استهزأ الضابط بالسؤال.

- وبالمرة كنا ندعو مؤتمرا صحفيا لمتابعة التشريح.

ردت ريتا بوقاحة رأت أن الضابط يستحقها.

- لا تستعجل علي المؤتمرات الصحفية.. فهي قادمة قادمة.

حاول يوسف أن يجعل هناك نهاية لهذا اليوم الأسود من أوله وخاصة أن ريحا شديدة صفراء وترابية بدأت تعصف خارج نوافذ الفندق مع أضواء الصباح الخجلة والهزيلة.

- بالمناسبة يا حضرة الضابط.. ما هو موقف الحرس الشخصي الذين كانوا في نوبة الحراسة ليلتها؟

مقتضبا قال الضابط:

– تم احتجازهم و أخذ أقوالهم ومواجهتهم ببعض.. ولكن وزير الحرب أفرج عنهم وسيتم تنفيذ القرار بعد ساعة من الآن.

١٨

كان يريد أن يصعد لينام وكانت هي تريد أن يستمرا معا لقراءة الملف، كان يوسف مرهقا ومعذبا باحتمالها فنمت كلماته عن روح الاستغناء.

– ياست هانم هوه فيه حد مسلطك عليّ.. ثم أنت فاهمة إيه قضية اغتيال رئيس سوف تجدين حلها في عشرة عشرين ورقة تسلمها لك جهة لا أحد يعرف مدي تورطها، ثم اغتيال رئيس ياست هانم يتحل لغزه في ثمان وأربعين ساعة ليه.. كانت سرقة فراخ من سطوح.. دا لو نشال خطف شنطة من ست علي رصيف في نيويورك احتمال يفضلوا يطاردوه عشر سنين علي مايلاقوه.. عايز أنام.. ثم أنا والله العظيم تلاتة ما أنا مهتم بمن قتل رئيسي عارفه ليه – لأنه افرضي عرفت.. ماذا سأفعل له؟ ثم ليست المشكلة ماذا سنفعل بعد أن نعرف القاتل المشكلة، ماذا سيفعل القاتل بعد أن يعرف أننا عرفناه؟

ثم وقد لفظ روحه مع زهقه وإجهاده.

– اطلعي اتهدي نامي.. ثم سنتكلم بعدها.

وعلي عكس تلك الثورة المائجة في صدرها، إلا أنها شعرت أن عنفها يخذلها، فأدركت أنها تريد أن تنام، فسكتت لم ترد علي ثورته المكدودة فقط ربتت علي كتفه وقالت:

- حاضر.. نستريح قليلا.

ضحك رغما عنه وقال:

- قليلا لأ.. نستريح علي قدر مانقدر.. إن العالم لا يعرف أن الرئيس تم قتله أساسا كي ينتظر أن يعرف من قتله؟

وأضاف وهو يصعد معها في المصعد وتتبدل الأرقام حمرة معلنة عن رقم كل طابق.

- ثم للمرة المليون ياستي الدكتورة.. هم أحضرونا كي لا نعرف وليس كي نعرف.

زعقت فيه حتي ردد المصعد صداها.

- لأ بقي هوه أنا عشان سكت لك تحت ح تعمل فيلسوف عليّ.. سوف نفك سر هذه القضية فقط كي نؤكد أن الشعوب ليست مغفلة.. وبكره.. بكره إيه.. بعد ساعات سوف تتفرج ماذا سأفعل مع المخابرات الأمريكية سأتصل بواشنطن وسوف يرسلون تقاريرهم كاملة وحياتك حتي باب غرفتي.

الآن وقد وصلا باب غرفتها في الفندق وأخذت تبحث في حقيبتها عن الكارت الممغنط الذي يفتح الباب قال لها يوسف:

- دون أن تغضبي مني.. اسمعي كلامي وارميه البحر فيما يتعلق بالمخابرات الأمريكية فإنهم سوف يتعاونون معك ثم يرسلون لك تلا من الأوراق، عشرين كرتونة من التحقيقات لو

أردت.. لكن هناك يدا يمكن أن تحذف سطرا واحدا هو أهم من كل تلال الورق.

أما فيما يتعلق بأنك تحاولين إثبات أن الشعوب ليست مغفلة، فالحقيقة يا دكتورة أن الشعوب مغفلة.

ما إن انتهي كلامه وقررت هي أن تضربه تقريبا، وجدا شخصا بملامح أمريكية شقراء وبذلة سوداء كاملة ونظارة سوداء تقصد التخفي أو ادعاء الأهمية يأتي من نهاية الممر عند المصعد ووقف قبلهما بمترين وألقي تحية الصباح بالإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية التي لامراء فيها، ردت ريتا واعتبرته سائحا أو ضيفا، لكن توجس يوسف كان له ما يبرره، فقد قال هذا الشخص:

- دكتورة ريتا..

ردت مندهشة ومتعبة.

- نعم.

ابتسم وقال بشيء من التهذيب والروح الرسمية.

- سيادتك مدعوة للمجئ للسفارة الأمريكية في تمام الواحدة ظهرا حيث جاءت شخصية مسئولة هامة من واشنطن وتنتظرك للحضور في السفارة مع شخص اسمه دكتور يوسف رضوان.

تركهما يوسف متجها نحو غرفته فصرخت فيه.

- يوسف.

أشاح بيده دون أن يلتفت لها.

- أجلي الموعد.. أنا لن أذهب ولو انطبقت السماء علي الأرض، أنا سأنام أربع ساعات أحب أن أصحو بعدها فأري زلزالا قد هد هذا البلد.

نظرت إلي مندوب السفارة مبتسمة وقالت له وروحها تطلع مع الكلمات:

- شكرا لحضورك..

بعد أن أحني رأسه تحية لها.. مضي مبتعدا

١٩

كانت نصيحة من وزير الإعلام وبدت في محلها تماما، حيث امتلأ صالون مكتبه في الوزارة بأكثر من عشرين رئيسا وممثلا للأحزاب في البلاد، أنها المرة الأولي التي يعرف أن في البلاد كل هذه الأحزاب التي يخشي أن يراجع أحدهم الآن معه أسماءها فلا يتذكرها أو ربما يخلط بين الأسماء وحين يتفحص وجوه هؤلاء يكتشف أن الذنب ليس ذنبه كاملا، فهم أيضا بلا ملامح تحفظ للمرء صورتهم بلا حضور وبلا بصمة وأحزابهم - كأسمائهم - مجهولة مدفونة في توابيت هشاشتهم وتفاهتهم، لكنه كان سعيدا بهم للغاية، تزغرد بالبهجة جوانحه المتعبة والمهدودة بفتحات القلب المشقوق، يعرف أن نجمهم في البلاد لا يغني ولا يسمن من جوع، وأنهم مثل بذرة جوافة بين أسنانك لو أتعبوك، ولو أيدوك فهم مثل حبة كريز حمراء فوق تورتة كاملة، إن بقيت حبة الكريز كان شيئا لطيفا، وإن غابت فلا طعم للتورتة وتغير لونها ولا قيمتها قد انخفضت.

لكن المظاهرات اليومية التي ترفع صوره وتنشد اسمه وتهتف به رئيسا والاحتفالات السياسية في المنتديات وقاعات

البرلمان وقدوم رؤساء الأحزاب حتي مكتبه وصور رجل الشارع الذي يأتي في التليفزيون كل دقيقة يتحدث عنه كأنه المهدي المنتظر ويعرب عن حبه - وحب رجال الشارع كلهم - للرئيس القادم وأن البلاد في حاجة إليه بينما هو - هكذا قال أحد رجال الشارع مرة - ليس في حاجة إلي البلاد.. كل هذا بدأ يتسلل إلي عروقه، يركب كرات دمه البيضاء والحمراء، إن في نفسه أشياء كثيرة يريد أن يفجرها، أن يقولها، طول عمره يتلقي الأوامر وأنه مهاب وأنه ذكي وأنه قائد.. لكن عندما بدأ الترشيح والتأهب للرئاسة كان يخشي أن يكون الأمر ليس كما تعوده في الثكنات، حيث لا أحد يناقش أو يرده عن أمر (حيث ما يقوله أوامر وليس قرارات!).

وحيث الكل درجات مصفوفة فوق بعضها، تصور أن الحياة المدنية شيء آخر، صحيح أنه كان يري في ظل رئاسة الرئيس الراحل كيف يتمرغ المدنيون تحت أقدامه، إلا أنه كان يظن أن السر هو هذا العمر الطويل والخبرة الهائلة التي كان يتمتع بها الرئيس الراحل، و خاصة أن أحدا طوال فترة وزارته لم يكن يلقي له بالا أو يرمي عليه سلاما حارا أو خاصا، ولم يكن يعتقد أبدا أنه في يوم من الأيام يمكن لهؤلاء أن يحبوا حتي أقدامه زحفا. لم يكن أحد ينظر له كإله أو نبي أو ولي، كانوا يلقون عليه تحية كمن يعبر بسرعة أمام فوهة بندقية خشية أن يفلت منها عيار أو رصاصة فتقتله خطأ، لم يسأله رئيس الوزراء يوما رأيا في موضوع، ولم يستشره وزير الإعلام في

قضية ولم يمتدح وزير الداخلية سياسته أو يسأله الرأي في أمر عارض أو ماثل.

الوزراء السياسيون من الأحزاب لم يكن أي منهم حتي يطلب منه خدمة أو يتوسط لديه من أجل قبول أو نقل أو ترقية أحد، كانوا يتصلون بالرتب الصغيرة بالقيادات من تحته دون أن يعرضوا أنفسهم لسؤاله... هل كانت الخشية والرهبة، أم كان الإهمال والتجاهل؟!

الرئيس الراحل نفسه لم يكن يعره اهتماما أو يشغل باله كثيرا، فين و فين علي ما يسأله عن أخبار الوزارة ثم يطلب منه الاستعداد، لأنه سوف يزور الموقع الفلاني أو التشكيل العسكري العلاني مع ضيف أجنبي، وسوف يكلمك أمين الرئاسة في التفاصيل، أو يتذكر الرئيس ذات ندرة أن لديه وزيرا للحرب حين يلتقي به في ممر نحو احتفال أو خطبة فيبتسم في وجهه ويصافحه بحرارة ويسأله عن أخباره، ثم لاشيء، ينساه تماما بعدها، لم يستدعه أبدا ليسأله في الموضوع الذي يشغله، أو يخبره بما يعتزم القيام به، أو يشكو له مرءوسيه ورجاله و كل مرة يتردد اسمه في الخروج من الوزارة يخشي أن يخرج من الوزارة فعلا، وفي كل مرة لا يتردد اسمه في الخروج من الوزارة يخشي أيضا أن يخرج من الوزارة.

فلم يكن يشعر بالأمان، ربما فقط أيام مازاد عليه المرض واشتد وكان لابد من إجراء عملية تلو الأخري حتي وصل إلي

تغيير أربعة شرايين مسدودة في القلب، ساعتها أحس بالأمان، فالرئيس لم يستبعد وزيرا مريضا من وزارته حتي يموت بمرضه، فقد سبق وكان هناك ثلاثة وزراء في العناية المركزة بل استدعي مرضهم الثقيل أن ينقلوا تباعا وعلي مدي شهر إلي الخارج لاستكمال العلاج وبقيت مناصبهم قائمة رغم أن تغييرا وزاريا لحق بوجودهم في الخارج للعلاج وبينما كان الوزراء الثلاثة أنفسهم – وخاصة أن المسألة تحولت إلي نكتة جارحة ومهازل سياسية – يستعدون عمليا لترك الوزارة ولم أشيائهم، إلا أن الرئيس أصر عليهم ووقف بجوارهم في مرضهم وقال أكثر من مرة أمام أكثر من شخص:

– يعني لو أخرجت الوزير المريض من وزارته، مفيش حد ح يسأل عنه أو عليه، والوزارة سوف تتوقف عن متابعة أخباره، ولما يموت ح يبقي وزير سابق مات، لكن أنا سأقف بجانبه وسأجعله يستمر وزيرا لغاية ما يموت بكرامته، وينزل خبر وفاته في الصفحة الأولي، أما لو كان قد ترك الوزارة فكان سوف يرتمي خبره في صفحة داخلية أو صفحة الوفيات.

المفاجأة أن الوزراء الثلاثة عاشوا واستمروا في وزاراتهم وكانوا يوشكون أن يقبلوا يد الرئيس حينما كانوا يقابلونه في أي اجتماع أو احتفال لذا فقد كان من بواعث أملي وراحة بالي أنه مرض، حيث يعني ذلك المرض بقاء أبديا في الوزارة حتي يموت، لكن في أثناء مرضه وعلاجه بالخارج، لم يحدثه الرئيس سوي مرة واحدة وأثني علي شجاعته وتمني له الشفاء

العاجل، أما باقي الوزراء فقد كان يتلقي مكالمات مقتضبة بين الحين والآخر قضاء للمجاملة تنطق بثقل أداء الواجب أو باقات ورد من هذا المسئول أو ذاك أو برقيات رسمية من جهات عليا وقد احتج البعض من أنه لم يؤد الواجب لأنه لم يعرف، حيث إن خبر مرض وزير الحرب خبر سري لا تنشره الصحف ولا تتبادله الوكالات، أما اليوم فالكل حضور في حبور حوله يسمع قصائد من لغو الساسة فبدأ زرع الألوهية ينزرع داخله، تسقيه فيضانات الكلمات التي ينقلها التليفزيون علي الهواء.

شب ممثل حزب المعارضة الرئيسي ليقول:

– نحن هنا اليوم، الوطن كله والبلاد بطولها وعرضها، من كافة التيارات السياسية علي شتي مشاربها ومنابعها، جئنا لهدف واحد، جئنا كرجل واحد لرجل واحد، جئنا إليك أيها الفارس الشجاع القائد النبيل البطل المغوار السيف البتار، نور علي أحبائك، وعلي أعدائك نار، جئنا نبايعك، كما بايع الأنصار رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه تحت الشجرة، نأخذ عليك العهد ونعدك بالازدحام أفواجا وأمواجا علي صناديق الاستفتاء، نكتب نعم ليس لك.. بل لنا، حيث إنك منا وبنا ولنا، لن نطلب منك شيئا مما يتحذلق به المتحذلقون عن شروط لانتخابك أو مبايعتك، بل سنقول نحن نربأ علي أن نشترط علي من نحبه شيئا، ثم نحن واثقون من رجاحة عقلك ورفعة رشدك ونقاء سريرتك ونفاذ بصيرتك ومن ثم لن نطلب حتي تجيبنا، معاذ الله ولكن سوف ننتظر حتي تمنحنا فما عرفناك إلا أخا

كـريما، وابـن اخ كريم. كان قلب وزير الحرب يرفرف من السعادة مع رنين هذه الكلمات.. التي فهمها كلها علي عكس ما يسـمع كثـيرا في بعض المؤتمرات من كلام مستغلق لبعض المثقفيـن لا يفهمه - ورغرغت عيناه بامتلاء الدمع وكاد يبكي سـعادة ممـا أعياه وأجهد قلبه فتحسس كعادته مساحة الجرح، طـولا وعرضا، ومشي بأصابعه علي مكان الخيط وكفه دائرة علـي صدره موضع القلب.. مكان الجرح و كان لابد أن يتكلم فتكلم:

- هـذه فـي الحقـيقة المرة الأولي التي أسمع فيها لهذا السياسـي المخضرم والأستاذ الكبير الذي يمثل واحدا من أهم أحزابـنا السياسية ولا أريد أن أقول الأحزاب المعارضة، لأنه لـيس عندي حزب حكومي أو حزب سلطة وحزب معارضة.. لأ.. كلـنا وطنيون نخدم بلدنا والحزب اللي في الحكم النهاردة ممكن بكره يبقي في المعارضة (أحس وهو يتكلم أنه متعب لكن إدراكـه أن الجملتيـن السابقتين ستكونان عناوين عريضة في صـحف الغـد جعلـه يتحامل علي نفسه)، أنا أقدر هذا الكلام العظيم وأتمني أن أكون عند حسن ظن المواطنين جميعا.. وأنا مازلـت أنتظر كلمتهم في صناديق الاقتراع كي نواصل الجهاد من أجل رفعة هذا الوطن.

اندهـش وزيـر الإعلام، فوزير الحرب يقلده في طريقة كلماتـه وفي كلماته شعر بالفخر أن تصريحاته عقب النشرات وفي نهاية اجتماعات مجلس الوزراء قد تركت بصمة في عقل

وزير الحرب الذي سيصبح بعد أيام رئيسا للبلاد، فإذا هو يتكلم بـنفس طريقته في التأكيد علي الأحرف الأخيرة ورفع الصوت مـع أي كلمة عن الوطن، وأكل الكل في الكلام بحيث لا يترك أحـدا لـيزايد علـيه.. كان انتعاش وزير الإعلام خرافيا بهذه النتيجة التي وصل إليها.. إنه مدرسة صار مدرسة وأحد أنجب تلاميذها بعد عشرين عاما من وزارة الإعلام هو الرئيس الجديد نفسه.

امـتلأ الصـالون عن آخره بالسياسيين وضباط التشريفة ومصـوري التليفزيون وعشرات الصحفيين ومئات من المياه الغازيـة والمعدنية وباقات الورد الدائرية المنتصبة علي أعواد من الخيرزان، والأضواء تبلع المكان كله.

قـام أحدهـم وتنحنح وطلب الكلمة، لم يتعرف عليه وزير الحرب فسأل همسا وزير الإعلام الواقف خلفه:

- من هذا الرجل؟

همس وزير الإعلام:

- أمين عام حزب اليسار يا سيادة الرئيس.

قال وزير الحرب بصوت عال كأنه يعرفه فعلا:

- أنا متشوق أسمع رأيك يا دكتور نتمني أن نحظي بثقتك.

رد الأمين اليساري متحمسا ومبتسما ومداعبا:

- لـو سيادتك مش ح تحظي بثقتي.. مين بقي إللي ممكن يحظي.

ابتســموا جميعا وضحكوا ثم صفقوا وانتشرت في المكان روح بهجة وقهقهة وواصل الرجل في لهجة متبسطة مع وزير الحرب كأنه صاحبه منذ زمن.

– لأ.. دا أنا عايز أقولك حاجة بقي لازم نحطها حلقة في ودننا من النهاردة ورايح.. أنك تحظي بثقة ورضا كل طوائف الشعب وتيارات الشعب وطبقات الشعب.

تصــفيق حاد من الجميع وبكي الآن وزير الحرب فعلا.. الدموع التي احتجزها منذ ساعات لم يقدر علي مقاومتها، فبكي فالتهب المكان بالحماس فجأة وانهمرت عدسات الكاميرات علي وجهه تصور لقطات دموعه وعلي حماس الأمين اليساري الذي علا صوته وجلجل في المكان كله.

– يـــا سيادة الرئيس إحنا ننتخبك كلنا... وأنت ريسنا كلنا محدش له فيك أكثر من حد تاني، عشان كده عايز أقول للشعب كلـــه إن المهمة صعبة وشاقة وحال البلد يصعب علي الكافر، لكن عايز أقول للشعب وللعالم كله إنك قد المسئولية وقدود وإنك ح تـــرجع لهذه الأمة كرامتها وعزتها وعظمتها وكبرياءها، لم يمـــنع وزيـــر الإعلام نفسه من خنق مشاعره الكارهة للأمين اليساري من أعماقه فهو الوحيد الذي ينافق أحسن منه في البلد وتمتم في سره.

– يرجع للأمة كرامتها وعزتها وعظمتها وكبرياءها بأمارة إيه يا ابن القحبة.

أمـــام فـــيض الحمـــاس والاندفاع نحو مبايعته أراد القلب المجهد أن يرتاح فقال وزير الحرب:

– لا أعرف ماذا أقول أمام هذه المشاعر الفياضة الصادقة التي تغمرني بالفضل، والتي تضع في عنقي أمانة وعلي كاهلي مســئولية أتمنـــي أن أؤديها علي خير وجه، وأنا أتعهد لكم ألا أتخذ قرارا قبل العودة فيه إلي الشعب، وما أريد أن أوكد عليه أننـــي لست باحثا عن منصب أو جاه ولكن قبلت هذه المسئولية لأن شعبي شرفني بترشيحي لها، ولأنني فلاح تعلمت في قريتي أن الكفـــن مالهش جيوب، فإنني أري أن مدة واحدة كفاية قوي فـــي الرئاسة وسوف أعتزل وأبتعد تاركا للأجيال الجديدة التي أراهـــا أمامي، (تجاهل أنه لا يوجد بني آدم من هذه الأحزاب أقل من ٦٠ سنة) مهمة رئاسة هذا البلد بعد أن نمضي بسفينتها إلي بر الأمان بإذن الله.

٢٠

كان النسر الأمريكي طاغيا ومتوحشا وهو معلق علي هذا القـــدر مـــن الارتفـــاع وبهذا الحجم الهائل علي جدار السفارة الأمريكـــية، حينما تصعد درجات السلم وتنظر فوقك، تحس أن النسر سوف يضع مخالبه في أحشائك، أو سيرفعك بجناحيه إلي حيث أنيابه، رأسه بانحناءاته المفترسة و بشموخ الغابات وقوس أنفه يسلب أعداءه ما تبقي من ريش شجاعتهم.

ريـــتا نهـــرت يوســـف لأنه حدق في النسر طويلا وهما يصـــعدان الســـلالم فـــي هـــذا المغيب الشرق أوسطي الكابي والكئيب، كانت قد اتصلت بمسئول المخابرات الأمريكية وطلبت منه تأجيل الموعد إلي السادسة لأنهما لم يناما منذ الأمس، وافق بعد أن أكد لها أن طائرته سوف تقلع إلي نيويورك في العاشرة مســـاء وأنه ليس في الوقت متسع لتأجيل آخر، كتبت ريتا عدة ملاحظـــات فـــي مفكرتها، ووضعت ملف الأمن الوطني علي الكوميديـــنو بجـــوار سريرها، لكنها سرعان ما قلقت فوضعته تحت وسادتها، وأغلقت عينيها ونامت، نامت إلي حد أن يوسف اســـتيقظ وانشغل عليها فجاءها إلي الغرفة وطرق بابها، فتحت

وهـــي نصـــف منومة فوجدته، دخل واستأذنته أن تأخذ حماما ســريعا وأن يطلب هو فنجاني قهوة علي ما تخرج كان وجهها الصـــاحي من النوم صبوحا رغم ما فيه من بلل وبلادة المنام، وكان حماسها يدغدغ هدة النوم ووخمه، كما كانت ترتدي «تي شــيرت» أبــيض محكمـــاً علي خصرها فأبرز ثدييها بتشكيل الكمــثري، وبانـــت نحافـــتها مع لف البنطلون علي مؤخرتها والتصـــاقه بساقيها، أما يوسف فكان قد ارتدي ملابسه الكاملة علـــي نحـــو مـــن يستعد لملاقاة حماه، خرجت من الحمام وقد ارتـــدت البرنس الأبيض وبللت شعرها دفعات الماء المنزلقة، داعبته.

– حاسب من تأملي فقد لا تملك نفسك من المقاومة.

ضحك وقال:

– تأكدي أنك في أمان كامل فكوني سعيدة بذلك.

ابتسمت – ومن قال إن هذا يدعو للسعادة.؟

ضحكت وهي ترتدي جلبابها خلف ضلفة الدولاب.

– الـــتحرش الجنسي يصيب المرأة بالصدمة، لكن التجاهل الجنسي يصيب المرأة بالاكتئاب.

رد عليها وهو يرشف فنجان القهوة علي مهل:

– الـــتحرش الجنســـي يصيب الرجل بثلاث سنوات سجناً ولكن التجاهل الجنسي يضمن له أن ينام علي سريره في منزله ليلا.

أغلقـــت ضـــلفة الـــباب فظهرت بجلبابها الشعبي المطرز بـــنقوش ورسوم من موروث هذه البلاد، وقالت له وهي تسرح شعرها علي عجل:

– أيهمك السرير أم من معك في السرير؟

رد وهو يقدم لها فنجانها من القوة.

– يهمني الدولاب.

ثم استحثها للرحيل.

– يالله لدينا موعد في السفارة بعد ربع ساعة من الآن.

نظرت له وهي تخطف رشفات من فنجان القهوة، ثم تبعده عن فمها وهي تشعر بالمفاجأة.

– من قال لك إن الموعد أصبح السادسة مساء.

ابتسم حتي امتلأت شفتاه بالهزل.

– أنـــتِ.. لقـــد اتصلت بي قبل أن تنامي.. تلاقيك فاكراه حلم.

دفعـــا الباب الزجاجي الذي أدي إلي باب آخر انفتح فجأة علـــي رجـــل في الأربعين من عمره، بقميص مخطط ورابطة عنق محكمة علي عنقه وبنطلون أسود واسع وعملي.

– أهلا يا دكاترة.

قالها بإنجليزية فصيحة، أدخلهما إلي غرفة المكتب وأغلق الـــباب وراءهمـــا وبدأ في إعداد قهوة أمريكية يصبها لثلاثتهم بدأت ريتا تدخن فأمسك بسيجارتها وهي تشعلها وأطفأها وقال لها:

- التدخين هنا ممنوع يا دكتورة ريتا.

ثـم فتح جهاز كمبيوتر شخصي صغيراً علي المكتب الذي يجلـس عليه وضغط علي زر ثم آخر ثم ثالث فظهرت أمامه عـدة سـطور طبعها بسرعة وأخرج نسختين لريتا ويوسف، تصفحا السطور، كانت عبارة عن جدول أعمال الجلسة.

بدأ يتكلم.

- سوف أتحدث في نقاط.

أول نقطة أننا نري أهمية أن نولي انتباهنا لحراسة الرئيس لـيلة اغتياله، لهذا أعددنا لكم ملفات لكل ضابط منهم، لاحظوا أنهـم جميعا تلقوا تدريبات في الولايات المتحدة ومن هنا فكل المعلومات المتوفرة لديكم في هذه التقارير كاملة ودقيقة، صحيح أنهـا لم تفدنا في شيء حتي الآن.. لكن في الوكالة رأوا أهمية إمدادكم بها.

ثـم أخـرج عددا من الملفات وأعطاها للدكتورة ريتا التي بادرته بالسؤال:

- لماذا لم تعطنا ديسك الكمبيوتر أفضل؟

أجاب بثقة، قلنا نوفر الوقت.

وأضاف لكن عموما الديسك موجود تحت أمرك، ثم هناك ديسـك آخر هو بمثابة النقطة الثانية التي أريد أن أتحدث فيها وهـي الكامـيرات التي صورت ليلة الاغتيال، ممرات وطرق وسـاحات القصر الرئاسي وهي كثيرة جدا فيما عدا - طبعا -

جـناح غـرفة نومه الذي استثناه من المراقبة وكل أحداث تلك الليلة التي تم تصويرها موجودة علي هذا الديسك.

قدم لها الديسك الذي قدمته ليوسف الذي اندهش من تسليمها الديسـك له، فهو لا يعرف في الكمبيوتر شيئا حتي الآن ويبدو من أهم رجال الأمية العلمية في العالم القانوني.

قطع رجل المخابرات الأمريكية أي حوار داخلي في نفس أحدهما حين قال:

- النقطة الثالثة هي تقرير الطب الشرعي الذي كشف على الجـثة، لقد رفضنا نحن أيضا اعتماد تقرير لطبيب واحد مهما بلغـت كفاءتـه، لكن تم الدفن علي عجل ومن المستحيل عمليا إعادة التشريح الآن.

قالت ريتا:

- لماذا؟

رد.

- الحكومـة هنا اعتبرت هذا الطلب ضربا من المستحيل وأنهـا لن تعامل جثة رئيسها علي هذا النحو، وأنه إذا بلغ أحد أن الجثة خرجت من قبرها لانهارت الحكومة.

ريتا ضحكت ساخرة وردت:

- وإذا بلـغ أحـد أن الرئيس تم قتله في غرفة نومه ألن تنهار الحكومة أيضا؟

رفع الضابط كتفيه غير مبال بالملاحظة التي وجهتها ريتا واعتبرها ملاحظة موجهة لغير ذي صفة.

تدخـــل يوسف في الحوار بعد أن زجرته ريتا بعينيها علي صمته وشوحت بيدها له أن يتدخل في الحوار، قال يوسف:

– أريد فقط أن أسأل هل توصلت المخابرات الأمريكية في الأيام العشرة الماضية لأي نتيجة أو استنتاج؟

قال الرجل:

– الإجابة لا.

ابتسم يوسف وقال:

– السؤال إذن وكيف تطلب منا أن نصل نحن إلي نتيجة أو استنتاج؟!

ابتسم الضابط وتراجع بظهره للوراء.

– أنا لا أطلب منكم أي شيء.

ردت ريـــتا بعنف، كادت تطيح بجهاز الكمبيوتر في وجه الرجل.

– إذن لماذا أتيتم بنا إلي هنا فرجة؟!

أجاب الضابط:

– بشـــكل رسمي أنا مطالب بالكلام عما تكلمت عنه فقط، أمـــا بشكل ودي وشخصي فلابد أن تعرفا أن الإدارة الأمريكية ســـوف يتم سؤالها اليوم أو غدا، في الحاضر أو المستقبل عن دورهـــا في هذا الاغتيال سواء من الكونجرس أو الصحافة أو إدارة جديدة ويجب أن تحتاط للأمر، فاختارت لجنة مستقلة كي تبرئ ذمتها من أي تقصير أو أي إخفاء لأي شيء في القضية ثم من قال إنكما لن تصلا لأي نتائج أو استنتاجات لماذا كل هذا التواضع؟

شخطت فيه ريتا.

– نحن لسنا هنا كي تجاملنا.. عموما سوف ندرس ملفاتكم وملـــف الجهـــاز الوطنـــي هـــنا وانـــتظروا منا تحديد موعد للاستفســـارات والأســـئلة وربما أيضا طلبات جديدة، وإلي هنا نحن شاكرون تعبك.

وقال وهما يقفان:

– علي الرحب والسعة.

اتجها ناحية الباب حتي أوقفتهما كلماته.

– بالمناســـبة ما هي حكاية الخنجر التي شغلت بها الناس هنا يا دكتورة؟

التفتت صارخة:

– آه.. إذن كله فاتح علي بعضه.

وقف وهو يوجه كلامه إلي دكتور يوسف رضوان.

– يـــا دكـــتور هل تعتقد أن خنجرا متحفيا وأثريا إلي هذه الدرجـــة معلق في جرابه علي جدار منذ عام أو يزيد يمكن أن يكـــون حادا وطازجا كل هذا الوقت حتي يسبب كل هذا العمق في جراحه وفتحه الغائر لبطن وصدر الرئيس.

أجاب يوسف في اقتضاب.

– ومن قال إن السكين الصدئة لا تقتل.

ثم أطرق برأسه وهو يأخذ ريتا في يده نحو الخارج.

– عموما سوف نري كل شيء ونحاول أن نعرف.

٢١

كـــل من في المدينة عرف أنها طائرته، منذ سنوات أسس أحدهـــم هـــذه المدينة لسكني الأثرياء والأغنياء، كان شرط من ينضـــم إلـــي عقـــود الأملاك والملاك ألا يدخلها من هم دون الطبقة، من هم دون الغني والنفوذ والأصل، إنه مكان للمكانة، كان هذا سبيل الولوج إليه والسكني فيه، أن تكون من أصحاب الملاييـــن وأن يرشحك للسكن فيه صاحبا ملايين آخران، وبعد البدايات الأولي للمشروع صار علامة علي أبناء الطبقة ومالكي مقاليد زمام المال والسياسة في عموم البلاد، وصار الانتماء إليه علامة في بطاقة هوية وإضافة في رفعة علوية، وبدأت الأسطح تســـتعد لاســـتقبال الطائرات الصغيرة بعد السماح بملكيتها في الـــبلاد والطـــيران بها للسادة، كما تم بناء سور يحيط بالمدينة ويحكـــم إغلاقهـــا أمام المتطفلين والعابرين وخاصة أن ذيوع اســـمها وبـــروق سكانها لفت إليها الأعين ولف حولها الأذرع، كـــان الســـور عاليا (وهل الأسوار أسوار إلا إذا علت) باللون الأبـــيض الـــذي يـــتم غسله كل أسبوع بواسطة شركة نظافة متخصصـــة، وفـــي بقاع مختارة من السور تقبع أبراج مراقبة

مزودة بأجهزة استشعار عن بعد وكاميرات بعيدة المدي وبنادق لإطلاق الرصاص الدخاني والمخدر، وبوابات السور آلية ذات شفرات سرية وكروت ممغنطة، الشوارع تتعامد وتحمل أرقاما وأحرف ووجوه السكان.

اقتراح إطلاق أسماء مفكرين وفنانين علي شوارع المدينة قوبل برفض جذري عميق وملتاع بالعصبية وقال أحد مؤسسيها: إنها مدينة لا ترتبط بوطن ولا رموز وطن، بل للعالم كله أقرب وإنها مفتوحة لكل من يملك بطاقة هوية ذات شفرة تفتح البوابة كائناً من كان.. الشرط الحازم الحاجز أن يكون في غني من فيها ونفوذ من بها.

البيوت لا تعلو الطابقين، وبرسم واحد وبشكل مثبت، الشرفات واسعة ممتدة بعرض الطابق كله ونقوشها من رسم فرعوني فيه سموق وعزة، والأشجار موزعة في الجوانب وفي الواجهات وخضرة مفروشة وبساتين وورد في أحواض مستطيلة (قيل إن فيها كل أنواع ورود العالم وزهوره وإن شركة هولندية ذات جذر مديد في هذا المجال هي التي صممت الأحواض وزرعتها ورعتها بالتعليمات والمشرفين المنتظمين) باستثناء النفس الفرعوني في بعض النقوش، إلا أن المكان كان يوحي بالمثول في حضرة مدينة أمريكية ذات نسخ متكررة في بعض ضواحي عواصم العالم في هذه الآونة من التاريخ، ولكن ذلك لم يمنع أن تكون التماثيل الأصلية الموزعة في ميادين المدينة من صنع فنانين فرنسيين اشتغلوا خصيصا لها و لم

يضع أي مسئول عن المدينة أي شروط لموضوعات التماثيل، بل صارت معرضا مباحا غير متاح لجنون المثالين الفرنسيين الذين وجدوا طلة غنية علي جنون الفن غير المكبوح.

وكان من سكان هذه المدينة أصحاب قبضة المال في البلاد، ورغم أن ابن رئيس البلاد لم يكن مالكا رسميا لأي من تلك البيوت في المدينة، إلا أن الجميع كان يعرف أن له بيتا باسم زوجته لكن دواعي إخفاء السفور وشيء من الستر وراء عدم الإفصاح عن وجوده، ولكنه كثيرا ما كان يري متمشيا في شوارع المدينة أو جالساً في مقهي من مقاهيها مع أحد رجال الأعمال أو مع مليونير بارز في عالم الدولة والسلطة، وكان الكل يعرف مميزات طائرته من صوت مروحتها إلي مكان هبوطها، وإلي وجه طيارها، من ثم فلم يندهش أحد حين أدركوا أن ابن الرئيس اليوم في المدينة، وأنه في صحبة شلة من ذوي السلطان المالي والاقتصادي المدوي في البلاد، كانوا في منزل «ن» الذي حرص علي أن يلم أجنحة طائرهم الأسطوري من رجالات المال بعد وفاة الرئيس حتي يستدفئوا ببعض ويتقوا بذواتهم وجماعتهم ويتباحثوا مسيرا يسيرونه ومصيرا يخططونه: «كان «ن» سيد قبيلتهم وأغناهم وأصغرهم سنا، ولما اشتد حوار فيه مط وخلط عن ابن الرئيس في أول عهده بهم وبمالهم ومآلهم، قالوا إنه لافضل له ولامكانة ولاميزة إلا كونه ابن الرئيس، فماذا يكون بغير أبيه؟!

ابتسم «ن» وشد أوتار حناجرهم حين قال:

- ومـا نحـن إلا أبـناء آبائنا، أكنا نظن - ومعظمنا في الخامسة والثلاثين إلى الخامسة والأربعين من عمره- أنه يمكن أن نـرتفع ونرقـي ونعلـو وننمو في المال والجاه والشركات والبورصـات والـبرلمانات والـوزارات إلا بمـا فعله آباؤنا المليونيرات من أموال صعدنا فوقها وقصور بنينا عليها ونفوذ قبضـنا عليه وسلطان ارتبطنا به، وأن مجموع ما أسسه الآباء أكثر مما أسسه الأبناء حتي الآن، نعم نحن نضيف روح العصر ونضـاعف تلال المال ونجري بخيول السرعة ونصعد الطلعة فـي طلقة، لكن لا تنسوا مقابر آبائكم أو مقاعدهم في اعتزالهم الآن في يخوت لهم أو منتجعات سويسرية!

ولهذا فإن ابن الرئيس سوف يدخل معنا وعلينا، صحيح أن والـده لـم يقـدم له مالا ولكنه قدم له مفتاح كل أبواب المال: السـلطة.. سيدخل بوابتنا لكن إلي أي مسافة سيمضي وإلي أي مسـاحة سيجتاز وإلي أي مدي ستتعب أكتافنا من حمله؟! هذا هـو ما يستحق أن نسأله!! لكن في حينه.. ولكل شيء ميقات وأجل في عالم السلطة والمال وكلما زادت حمولة الحصان قل احتماله وزاد احتمال ضياع الحصان والحمولة.

وعـندما دعـا «ن» لهذا المساء، لم يتأخر أي من رجال الدائرة، كانوا يشعرون في مجلسهم، من صناعاتهم الشتي، من شـركاتهم المخـتلفة، مـن بورصاتهم المتعددة، من أنشطتهم المتضاربة، من اختلافاتهم الشخصية والنسائية، إنهم هنا.. في هـذا المجلس حيث يطلّون من زجاج الطابق الأول لبيت «ن»

علـي جنـتهم التي زرعوها، إنهم يحكمون هذه البلاد.. وإنهم أمـراء هـذا الزمان، ولما كانت أعمارهم تسمح بنشوة جذوة المنـي المنفلـت ذروة فـي الاشـتهاء، كانت اللذة تبلل ببللها مشاعرهم العلية.

كـان «ن» مصمما علي ألا يترك ابن الرئيس نسيرة لحم فـي فـك الـتوتر والتوجس، وحين اتصل بهم وأكد عليهم ألا يشـعروا الرجل بخيفة أو أن موت والده سوف يحوله إلي رقم خـارج قسمة الحساب وأن اجتماعهم الليلة لا شأن له بغير هذه الطمأنة، وخاصة أن هناك مازالت حسابات معلقة وعقود مبرمة وأوراق مختومة و خزائن مغلقة، فلما دخل ابن الرئيس أشعروه أنـه فـي بيـته، وأن قلوبهم أكف راحة له، يعزونه ويقوونه ويدعمونه ويعضدونه، كان بعضهم يشرب كحولاً، لكن آخرين كـانوا متدينيـن إلي حد عدم اقترابهم منه بعد الحج، ورغم أن أفضـل حكاياتهم - جميعا جاءوا من الحج أو نصاري - كان عـن النسـاء، إلا أن اللـيلة - علي حسب ما قال أحدهم لابن الرئـيس - لا كلام عن النساء، الليلة لك. لاشك أن كدرا كان معلقـا بكـل ملامـح ابن الرئيس وأن جرحا مغموسا بالملح مغروسـا بالـرمح في صدره كان يئن به وكان أنينه يرن في آذانهم يحاولون أن يخففوا من فداحته.

- كونـك ابـن الرئيس السابق شيء سيضعك دوما علي قائمة الاهتمامات، ستظهر في التليفزيون تصافح الرئيس الجديد وهـو يـزور قبر والدك في ذكري وفاته، ستكون في استقبال

الملوك والرؤساء الذين سيكون برنامج زيارتهم للعاصمة يشمل الفاتحة علي قبر الوالد، ستتمكن من الكلام مع الوزراء في أي لحظة مستخدما اسمك حتي لو تغيرت وجوههم وأسماؤهم.

أضاف ثان وهو يتأمل حقيقة أنه لا أحد منهم يرتدي بذلته كاملة وأن معظمهم بقمصان رياضية.

- لا تنس أنك أحد أعمدة الاقتصاد في البلد الآن، وأن حجم معاملاتك المالية ضخم ويتضخم وأنك نافذ في كل أفرع وأراخبيل المال هنا، فلا قوة لأحد يمكنها أن تزيحك.. أما إذا كان نفوذ ابن الرئيس وسلطة الوزارة هو ما ستفتقده فإن نفوذ المال يعوضها ثم إنه لا يبقي إلا وجهه.

قال ثالث وهو يدرك الآن أنهم لم يحبوا ابن الرئيس أبدا، لم يستطعموا كلامه ولم تتحرك قلوبهم نحو عاطفة الميل إليه أو خفق المودة نحوه، وأنهم لم يضحكوا علي دعاباته إلا مجاملة ولم يتبسطوا معه إلا رغبة في عدل موازين القوة، حيث بدت في حينها تعاني خللا واختلالا ثم أخذ يتأمل وجوههم ليكتشف فجأة أنه لا أحد فيهم أسمر البشرة سوي ابن الرئيس.

- أريد أن أسألك: هل أنت مطمئن إلي عقود الوزارة وإلي مناقصاتها ومزاداتها، لا تنس أنك كنت تملك أعلي مخصصات مالية لوزارة الشباب منذ عهدها الطويل، وأن الملايين التي صرفت لابد لها من مسارب ومجار.

كاد يذوي سيجارة بين أصابعه حين قال ابن الرئيس متوترا عاريا من ضبط مشاعره:

- هذا ما أخشاه أن يصمتوا شهرا أو حتي سنة، ثم يبدأون في فتح دفاتر الوزارة، أعرف أنهم كلهم ملطوطون، وميزانيات الوزارة خربة مثل غيرها من الوزارات، لكن ساعتها من يسمع ومن يفهم و يبقي الموضوع كله معمول حسابه كي يدخلوني السجن تحت دعوي تطهير الحكومة ومحاربة الفساد وأنه لا أحد أكبر من القانون وهذا الكلام الخراء الذي يظهر في بدايات كل حكم.

ابتسم «ح» ابن شقيق الرئيس السابق، حيث عاني والده من هذه «الخراء» في بدايات عهد والد المتوتر المتوجس الجالس أمامهم الآن، نظروا جميعا إلي «ح» منتظرين تعليقه، الأمر الذي أدركه ابن الرئيس فقطع جملته هو الآخر فقال «ح»:

- الحقيقة هذه أمور إعلامية يبقي مقصوداً منها الفرقعة والدعاية فقط. لقد كان الرئيس والدكم يتصل بوالدي كل يوم، يشد من أزره ويقول له ولا يهمك ما يفعله هؤلاء الملاعين، وكانت نار أبي تبرد وحاله يرق ويشف ويقول إن الرئيس طمأنه وإنه لن يحدث شيء أبدا.

وفي ليلة دعاه والدكم إلي العشاء في قصره، أليس هذا منتهي الأمان وبالغ الاطمئنان؟ وكان أبي يرتدي أزهي ملابسه وأجمل وأغلي ما عنده، كان سعيدا أن الرئيس لم يخن صديقه شقيق أبي الرئيس السابق ولم يخن العيش والملح، وكانت أمي غاضبة نافرة من فرحه وتقول له إذا كان الرئيس هذا غير راض عن الحملات الصحفية ضدك والملاحقات القضائية لك

ومطاردات الضرائب وأجهزة رقابة المال العام فلماذا تستمر هذه الحملات إنه يضحك عليك!

لكن أبي كان صادقا تماما لصدق الرئيس وذهب للعشاء عنده وكانت ليلة طويلة مبهجة لأبي كثيرا، عاد ليكذب أمي طويلا ويحكي لها أن الرئيس صالحه وباركه وأعلن أنه لن يتخلي عنه أبدا وأنه سيؤمن المال لعياله ولن يسمح لأحد بتجريده من ثروته ومصانعه وشركاته وأن أمواله في الخارج لن يمسسها ضابط أو رقيب ولن يكشف عنها صحفي أو نائب وزاد فعاد كلام الرئيس أن الحملات ضد شقيق الرئيس السابق مقصود منها الرئيس الحالي، وأنه لن يتركه لأنياب المعارضة التي تريد أن تنال منه ومن سلفه، ونام أبي قرير العين حتي صحونا جميعا علي صوت أمي تطرد النوم من أعيننا، أن نصحو مبكرين، ماذا يا أم؟ لقد صدر قرار بالتحفظ علي أموال أبي! فيما بعد فهمت - لما كبرت- أن أمي أحست بطعنة موجهة لأبي، فقد جري هذا بعد ساعات من لقائه بالرئيس، لكنني فهمت - لما كبرت- أن قرار التحفظ كان هشا وتافها وكان مخصصا لهامش من المال والشركات، وكان مؤقتا، وكان ضبابيا، وقد هللت له الصحافة علي أنه نصر علي الفساد، بينما هو كان مجرد وصمة عار لعهد من أجل تدشين عهد جديد، كان أشبه بدم البقرة المذبوحة تيمنا قبل افتتاح محل جديد، في شارع تجاري، أراد والدكم الرئيس أن يطلق أبواق دعايته لصالحه في نفس الوقت لا يؤذي أبي في كثير من ثروته، لقد

دغدغ سمعته صحيح، لكن أمواله وثرواته وشركاته وأسهمه لم يمسها أحد، بل وعاد لنا ماكان متحفظا عليه، وتركه يعمل باسمي وباسم أشقائي حتي كبرت وتوليت المهمة عنه، وكان أبي موزعا في مشاعره بين الإحساس أن والدك ضحي به وبين فضل والدك عليه حيث ترك له ماله لأولاده وثرواته لبناته. ولم نشعر في يوم من الأيام أننا فقراء أو أعوزتنا الحاجة لأحد. وبعدها بسنوات بدأ والدكم يسمح لأبي بالحضور معنا لاستقباله أثناء زيارته ضريح عمي الرئيس الأسبق في ذكري وفاته، وحرص والدي علي نشر صورته مع والدك الرئيس متعانقين ووزعها علي جميع مكاتب شركاته وكانت أوامره لي دائما أن أترك ما في يدي سواء في أوروبا أو أمريكا وأكون حاضرا في مقدمة الصف الذي يصافح الرئيس أمام قبر عمي وكان والدي يؤكد أن وجودي مع الرئيس في مقدمة النشرات وصدر أولي الصفحات أكثر ضمانا لنا في أعمالنا وتجارتنا وثروتنا، وهو الذي طلب مني آمرا شاخطا أن أبحث عنك بمجرد ما سمع عن دخولك عالم الأموال والأعمال وقال لي هات ابن الرئيس معنا وأشركه في شركاتنا وأسس معه مؤسسات جديدة سيقوي بك وستقوي به ولعلك تتذكر عندما زارنا في قصرنا بإسبانيا كيف كان حفيا بك، محبا لك حريصا عليك وعلي رضائك.

كان ابن الرئيس مثل ذرة الفشار وهو يستمع لهذه الكلمات، لم يكن يعرف هل يفرح وتتبسط أساريره أم يغتم ويلتم علي

نفسه؟ لكنه ما صدق أن سمع أنفاس «ح» بعد أن توقفت كلماته، أن قال:

- لكن الوضع الآن أكثر مما كان قبلا.. والرجال الموجودون بعد والدي ليسوا مثل والدي في حكمته ولعبه علي كل الحبال (....)، ثم إنني أمثل تحديا لهم أكثر مما كان يمثل والدك، عفوا، إنه لم يكن في سيرك السياسة بل في ملعب المال، ولكنني في حلبة الأسود والنمور، قد لا أفلت من مخلب إذا نجحت في الإفلات من ناب، لذلك أفكر في السفر أن أهج من البلد الآن.. أعيش في أمريكا، إن لديّ جواز سفر أمريكيا وستتم معاملتي علي أنني مواطن أمريكي.

ضحك «ن» حتي أزعجه هو نفسه ضحكه فختم وقال:

- لا تنس أننا جميعا نحمل جوازات سفر أمريكية وبريطانية، جواز السفر الأمريكي حماية لثروتنا لكن ليس حماية لحياتنا.

- هل تعني قتلي؟

- لا أظن أن الأمور ستصل أبدا لهذه الدرجة، فالرجال هنا عاقلون وأنا أعرفهم جميعا علي مستوي شخصي، لقد كانوا يحبون والدك ومخلصين له، لكن لديهم إحساسا أنهم أولي بالسلطة منك، فقد تعبوا مع والدك وشقوا لأجلك.

انزعج ابن الرئيس فانفجر.

- لا تنس أن والدي هو الذي صنعهم جميعا، ماذا كانوا هم؟ كانوا ولا حاجة، لم نكن نعرف أن أحدهم سياسي ماهر أو

وزير فذ، هو الذي صنعهم من لاشيء، أتي بهم من الصفوف الخلفية ووضعهم في مقدمة الجميع فلاتقل لي إنهم خدموه ووقفوا جنبه ومش عارف إيه..

- لا تغضب.

قالها «ن» وهو يعنيها، فاضطرب ابن الرئيس ونظر حوله كأنه يبحث عن كاميرا تصور أو تسجيلات تسجل، فأطفأ «ن» ناره.

- اطمئن.. لقد فحصت شركة أمن خاصة المنزل قبل اجتماعنا وهو آمن، لكنني أنصحك فعلا أن تكون أهدأ في مثل هذه الأيام وخاصة أن الحكاية ليست صغيرة ولا داعي أن تستفزهم أكثر مما هم مستفزون.

ذعر ابن الرئيس وسأل متقطعا:

- ومن قال إنهم مستفزون ولماذا؟ وما الجديد؟

جذب «ن» ملفا من مكان خلفه وفتحه وبدأ يتكلم.

- هذا الملف بدأ إرساله بالإنترنت لعشرات السياسيين ورجال الأعمال والوزراء في البلاد، بفحصه والبحث عن كنهه ومصدره ثبت أنه قادم من الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا أقصي ما وصلت له الأجهزة هنا عن مصدره، لكنه يضم مائة صفحة كاملة بعنوان «ثروات ابن الرئيس».

ارتج ابن الرئيس لما سمع هذا الكلام بينما تصفحت عيونه وجوه الجالسين في دائرة أمامه، السيجارة، الأدخنة، الكئوس، النظرات القاسية، العيون الثابتة، الشفاه المدلاة، الأيدي المرسلة

بحرية، السيقان الموضوعة فوق السيقان، الشورت الذي يرتديه أحدهم، الجلباب الفاخر الذي يلبسه آخر، إن ملياراتهم تجلس علي أكتافهم.. أكمل «ن».

- الملف يحتوي علي كل صغيرة وكبيرة عن ثروتك والأخطر كل أسهم لك في شركاتنا ومصانعنا، بالسنت وبالدولار، بمنتهي الدقة، حصر يشبه الحصار لنا كلنا، لم ينس الملف أتفه الأشياء حتي صالات البلياردو وقاعات السينما، حصتك من الأرباح علي مدي السنوات الخمس الأخيرة والتي دفعتها لك شركاتنا، كل علي حدة، الأخطر أن أسهمك لم تكن في كثير من الشركات باسمك، لكن المدهش أنهم كتبوا الأسماء الحقيقية التي تمثلك، من أول طقم السكرتارية لغاية السائق، لغاية أولاد خالاتك، لغاية موظفيك كله.. كله، إنه تقرير أشبه بالمعجزة من المستحيل أن تستطيع أنت بنفسك أو حتي أهم محاسبيك كتابته بهذا الكمال وتلك البراعة، إن هذا الملف موزع بين أيدي الناس منذ شهر تقريبا وأصبح من الصعب إخفاؤه مثل انتفاخ بطن امرأة حامل ثم جاء بعد ذلك خبر وفاة والدك ليصمت وقع الملف، لكن نحن لسنا في حاجة إلي أن يعود للظهور فعودته غير مضمونة العواقب علي الإطلاق.. إن عودة هذا الملف للظهور لن تنقذك منها حتي عودة والدك من القبر.

رنين جرس التليفون المحمول أفزع ابن الرئيس كأنه صفارة إنذار مدسوسة في أرنبة أذنه، كان رنين الجرس لـ«ن» رد فهمس وردد كلاما وترحيبا ثم أغلق التليفون.

- علينا أن نتكتم علي أحاسيسك وعليك أن تكف عن الشعور بأن أحدا يغدر بك، ثم إن البلد كله يتحدث عن أحضانك مع وزير الحرب أمام مقبرة أبيك، هذا جميل للغاية، استمر، ثم سافر لأي بلد لو أردت لكن بعد الانتخابات، أساسا نحن نقضي في عواصم أوروبا أكثر مما نقضي هنا، لكن لابد للأمر أن يظهر بشكل طبيعي وقبل أن يأتي مدير الرئاسة إلينا الآن.

التفت ابن الرئيس.

- وده إيه اللي جابه؟!

رد «ن»:

- إنه صديق لك ولنا جميعا.. وهو قادم لما عرف أنك هنا يريد أن يراك ويأخذ بيدك..

سكت ونظر لابن الرئيس الذي عاد فأحس طوق النظرات يلتف حول عنقه منهم جميعا.. واصل «ن»:

- عموما وقبل أن يأتي مدير الرئاسة أريد أن أقول لك إنه لابد من تهدئة خلال المرحلة القادمة سواء في معاملاتنا معا أو إجراءات الدفع المالي.. نهدأ قليلا.

وصلت الرسالة الآن لابن الرئيس، الحلفاء وقعوا علي عقد بيعك. نشره القلق لكنه حاول أن يتماسك وينتظر قدوم مدير الرئاسة أهو فخ يبخ سمومه الناقعة في وجهه، أم أن اشتباك

المصالح عارم في تلك الغرفة، جارف لكل ما يقف أمامها من عواطــف تفــتح نوافذها لهبوب عواصف، أم طفح لتلك البئر الممتلــئة حتي حافتها بالحقد والحسد والضغائن والإحن، قدوم مديــر الرئاســة مداس آخر، نعل جديد، يضغط علي لحم قلبه يفعصـــه بالمــرة في تلك الأيام التي يتراقص فيها جسده عاريا معلقــا علـــي حبال مشدودة إلي الأرض، في أية لحظة عابرة مارقة مسروقة من الزمن يمكن أن ترتفع الحبال عن الأرض، أو تهبط الأرض عن الحبال، فتصير مشنقة.

دخل مدير الرئاسة..

طويـــلا كمـــا ينبغي لضابط كان حارسا للشرف، وممتلئا ومــنفوخا كما يليق بموظف ترقي نفوذه في أجواء تعبد النفوذ، نهــض الجمــع في استقباله، لم تكن سعادة استقبال مسئول بل راحـــة اســتقبال حليف، لم تكن حفاوة أيد وأحضان وضغطات علـــي الظهر وضمات للكتف، بل كانت توقيعات علي معاهدة تضامن وتكاتف، سواء توقيعات مجددة علي معاهدة قديمة، أم توقيعات طازجة علي معاهدة جديدة، كان «ن» هو الذي أشار لمدير الرئاسة علي ابن الرئيس فاندفع مدير الرئاسة – كأنه لم يكن يراه.. كأنه لم يكن يعرف أنه سوف يراه – نحوه يحتضنه ويغمض عينيه تأثرا كمن يحجز الدمع في المقلتين ويضمه بقوة وحرارة وقال له برقة وحنية:

– إزيك يا حبيبي.

ســمع ابــن الرئيس كلمة يا حبيبي تلك واعتبر أنها تحول الجلسة إلي غرفة الدمي في روضة الأطفال، وكان سر سريرته أنــه يتعجــب أن الموضــوع وصل لغاية يا حبيبي بمثل هذه الســرعة، إن زمنا ينقضي أمامه، الأفعال كلها صارت ماضية وأن مــا يشــغله مــن هنا ورايح هي تلك الأفعال المضارعة، الضباع الضواري هي التي «تضارعه» إذن الضراعة وهشاشة الرضــع «تضارعه» كذلك كان يواصل مدير الرئاسة تراتيله الخاصة.

– إن والــده رحمه الله أوصاني به كثيرا، قال لي إنه ابنك مــثلما هو ابني تماما، والذي يعرف علاقتي بالرئيس الراحل.. (توقف وتأسي وتنهد وقال ياه بقي الرئيس الراحل.. وحاول أن يداري دمعة، أو يداري مكان دمعة كان من المفروض أن تكون موجودة فلم توجد) ثم عاد فقال:

– كــان فــي أول عهــده ابنه هذا الرجل الجميل، ابني، صغيرا مراهقا فإذا أراد أن ينشغل بأمور الحكم وشئون السياسة وشــجون الدولة طلب مني أن أكون والدا لابنه في تلك الأيام.. آه والله العظيم كان يقول لي.. أنت من دلوقتي أبوه وليس أنا.

ثــم ربت علي كتف ابن الرئيس مرة أخري وسكت ليضع خطوطا بصمته تحت كلماته التي انتهت.

حين كان «ن» يسأله عن أخر الأخبار، كان مدير الرئاسة يحمــل ســيجاره الكوبي من جيب سترته ويضعه علي المائدة الصــغيرة أمامــه، وسلسلة المفاتيح يلقي بها من يده والتليفون

المحمول يضعه في نفس المكان والولاعة.. وبحركة بدت مفاجئة وغير متوقعة، جذب من تحت إبطه مسدسا غليظا فضي اللون فقبض القبضة وألقاه علي المائدة أمامه كأنه إعلان عن نوع جديد من المسدسات أو نوع جديد من السلطة ثم راح يتحدث.

- تخيل الراجل رئيس المحكمة العليا ما صدق أنه يبقي رئيسا مؤقتا يا أخي سبحان الله! جاء اليوم واتصل بي وقال تعالي أريدك، خير يا سيادة المستشار أصلي مشغول قليلا، قال لي: فيه إيه.. مشغول في إيه؟!

قلت بس هذا الرجل لن يأتي بها إلي بر، قلت لنفسي أروح له أحسن وربنا يجيب العواقب سليمة، أصل وزير الحرب لا يطيقه وكما تعرف هناك تعليمات بتجاهله لأننا نعرفه جيدا فيه حاجة في دماغه، المهم رحت للرجل.

- أيوه يا سيادة المستشار أمرك.. أؤمر.. نحن جميعا رهن إشارتك.

قام الراجل مزعق فيّ كأنه حلة برستول خلصت غليان

- أيوه هذا الكلام الفارغ هو كل ما أسمعه منكم كلما كلمت أحدا، لكن أنتم عاملين عصابة عليّ.

- يا افندم العفو لاتقل ذلك.

صرخ بعزم مافيه.

- أنا أقول اللي أنا عايز أقوله.. لا أحد يتحكم فيّ، ثم دخل في الموضوع الذي يريدني فيه وسط هذا الانفعال.

- الآن.. أنا رئيس الجمهورية، ما معني ذلك؟

صمت وترك الأمر لمفهوميتي، طبعا كان مستحيل أعرف ماذا يريد بالضبط فخرست أنا الآخر مما أشعل ثورته.

- اسمع القصر الرئاسي.. اسمه إيه.. اسمه القصر الرئاسي، يعني بيعيش فيه ويزاول منه كل رئيس يتولي مقاليد الحكم في هذه البلاد أمور حكمه ومهام منصبه ومسئوليات عمله، ولكن أنتم تتفرجون عليّ منذ أن حلفت اليمين، لماذا لم تأت لي يا أستاذ وتقول لي اتفضل القصر بيتك ومطرحك؟ هل تعرف يا أستاذ أنني يمكن أن أرفدك الآن؟

قلت له بمنتهي الهدوء رغم أن الدم كان يغلي في عروقي.

- ياريت ترفدني يا سيادة المستشار كي أرتاح من هذه المسئوليات وأذهب لأقعد في بيتي في العزبة أفلح الأرض وأزرع الفدانين بتوع المرحوم أبويا.

ويبدو أن كلامي هذا أثاره أكثرمما كنت أعتقد، فخبط ورزع في كل شيء أمامه وصرخ.

- أنت بتتحداني.. كما فعل وزير الإعلام.. هناك مؤامرة لتولي مهام الحكم وإذا لم توضع أخباري في صدر نشرات الأخبار في التليفزيون.. اعتبروني منسحبا من هذه اللعبة.

احترت هل أتعامل معه علي أنه مجنون يثير جنوني أم علي أنه عاقل يثير غضبي حاولت أن أمشي علي الحبل.

- يا سيادة المستشار نحن نكن لك كل احترام وتقدير، لكن لابد أن تعرف سيادتك أن هذا الوضع مؤقت وأن الشعب اختار

مرشـــحه للرئاسة فعلا وأن الأمر عبارة عن أسابيع قليلة للغاية ويتولي هو مقاليد الحكم فلماذا نفتعل أزمات في مراحل مؤقتة؟ هدأ وتراجعت أمواجه ولكنه قال:

-- ومـــن أدراك أن الشعب اختاره؟ ما أنتم الذين اخترتموه يـــاخوي ثم ما أعرفه أن الدستور دستور والقانون قانون ولابد من تنفيذه حتي لو كانت أوضاعا مؤقتة أو مراحل عابرة.

- يعني أعمل إيه؟

- عايز القصر.

قلت له بمنتهي البراءة:

- إذا كـــان ولابـــد.. يبقي تكلم سيادتك وزير الحرب وإذا أمرني بفتح القصر لك سأطيعه فورا.

فعاد إلي جنونه الحانق.

- أنا أكلم عسكري كي آخذ منه إذنا بحق دستوري.

اسمع أنا لن أكلم أحدا وأرجو أن تبلغ وزير حربك هذا أنه لـــو لـــم يتم احترام منصبي ورئاستي للجمهورية سوف أسافر لأولادي في كندا تاركا الجمل بما حمل ومن بكره.

أخذت كلامه في جنبي ومضيت، اتصلت وأنا في الطريق إلي هنا بوزير الحرب الذي قال لي إن الرئيس المؤقت عصبي وبمجرد ما يهدأ سوف يدرك أن الأمور أكبر من التي يتوقعها، فطلبت منه أن يتكرم بالاتصال بالمستشار في منزله يهدئ من روعـــه ويطيب من خاطره، وقبل ما أنزل من العربية جاءني

تلـــيفون مـــن ســـيادة وزيـــر الحـــرب وصوته مليء بالتوتر والانزعاج.

- مالك يا سيادة الرئيس.

(ابن الرئيس هو الوحيد الذي توقف عند هذه العبارة..)

قال لي أنا اتصلت بالرجل.. وتحدثت معه في الأول بهدوء ورقة وكان ودودا ولطيفا معي للغاية، ثم قلت له وإن كنت تريد حراسة خاصة أو تشريفة لائقة فإنني سوف أرسل لك أكثر من دبابـــة تقـــف حـــول بيـــتك وســـرية جنود من سرايا الحرس الجمهـــوري، فإذا به بعد ما نطقت هذه الكلمات يتشنج ويتهته ويصرخ.

- أنت عايز تحدد إقامتي.. أنت عايز تسجني.. أنت عايز تقتلني.

الحقيقة أنني انفجرت فيه وقلت له:

- أنت مين أنت كي أعمل لك حسابا.. أنت راجل مجنون وأغلقـــت الســـماعة وأنا دمي فائر وسكري زائد وقلبي مجهد، فهـــدأت مـــن خاطر وزير الحرب وقلت له يا سيادة الرئيس: المهـــام ثقـــيلة والمسئوليات كثيرة، حكاية المستشار هذه حكاية لطيفة وتضحك.، ولكن ماذا عن الحكايات السخيفة الثقيلة التي ســـوف تأتـــي مع مقاليد الحكم؟.. المهم هدأت الرجل وأغلقت التليفون وها أنا أمامكم.

تـــبادلوا الضحك والمشروعات والآراء والمعلومات وبات مكشـــوفا أن علاقتهم أكثر قربا وأشد وثوقا من أن يفك عراها

أحد، وكان مدير الرئاسة رمحا قوية عتيدة في أيديهم، يشيرون بها إلي أحد فيجزع، ويغمزونها في صدر آخر فيقنع، ويغرسونها في بطن ثالث فيفزع.

بينما جلس ابن الرئيس يشفط دهون دلاله الغابر، لمح مدير الرئاسة و«ن» يتهامسان ثم قدم «ن» بطاقة صغيرة من تلك التي يوضع فيها اسم المرء وتليفونه ويقدم للناس علي سبيل التعارف والتواصل والتواصي.. أمسك مدير الرئاسة بالبطاقة هاشا باشا لكن لارتجافة ما سقطت من يده وخبطت في حافة المائدة فطارت فسقطت تحت أقدام ابن الرئيس كان ظهرها مكتوبا عليه رقما بالإنجليزية بخبرته عرف أنها أرقام حساب بنكي، الأرقام بأحرف صغيرة زرقاء مكتوبة بخط اليد، وبجوارها مكتوب «باسم كريمة».

ارتبك وتوتر «ن» تماما لكنه حاول أن يقلل من أهمية سقوط البطاقة تحت أقدام ابن الرئيس، أمسك بها وقدمها لمدير الرئاسة الذي اشتعل وجهه ألوان لوحة تجريدية، وبحركة مسرحية مزق مدير الرئاسة البطاقة مرتبكا ومهزوزا وقال:

- أنت ناسي إن رقم تليفونك الخاص معي منذ زمن طويل، مشي ناحية باب الخروج في ركبه «ن» يودعه. غابا خارج البيت أكثر مما يلزم أمر الوداع، بين لحظة وأخري كان ابن الرئيس يلمح ظلهما في الخارج دون أن يتبين وجوههما أو إيماءات جسدهما. حينما عاد «ن» صرخ في الحاضرين مدهوشا، يرمي عليهم بالدهشة.

- شفتم ماذا حصل؟ لقد اتصلوا الآن بمدير الرئاسة من المطار يخبرونه بأن الرئيس المؤقت وصل المطار وفي طريقه للطائرة المتوجهة إلي مونتريال - لقد كان واضحا أنه اختار توقيت تهديده بعناية- رد عليه ابن الرئيس:

- وماذا سيفعلون معه، معقولة رئيس جمهورية يهرب ولا يحضر الانتخابات وإعلان النتيجة وانتقال السلطة؟

.. في المطار حيث طائرة ضخمة تعج بالمسافرين تستعد للإقلاع في الرحلة الثالثة لها مباشرة إلي مونتريال بكندا، و في زحام وضع الحقائب علي الأرفف والبحث عن رقم المقاعد، والاستفهامات للمضيفات وبكاء الأطفال المبدئي بمجرد ركوب الطائرة، والركاب الذين بدأوا قراءة الصحف أو الكتب، والهمسات للتعارف بين راكب وجاره، ومتابعة وجه مضيفة جميلة.. إذا بعربات عسكرية مزودة بالأسلحة الدائرية الآلية تحيط بالطائرة من كل جانب، تجري علي مضمار المطار، تعبر الأسفلت والإشارات البارزة، تحت جسد الطائرة الجهم الباسق، وأضواء كاشفة حارقة النور تقتحم زجاج نافذة كابينة القيادة، وأقدام عسكرية بأحذيتها الثقيلة بسيقان الأزياء المموهة تعدو علي الجسر الكهربي الذي يربط صالات انتظار الإقلاع بطائرة السفر، تقتحم القوات باب الطائرة ممسكة بالمدافع الرشاشة بسنون السنكي البارقة، يمر بين كتل الجنود المتراصة شخص يرتدي بذلة مدنية كاملة وحوله خمسة ضباط ثقيلو الرتب علي أكتافهم.. يمرقون إلي مقعد الدرجة الأولي الذي يجلس فيه الرئيس المؤقت للبلاد.

٢٢

تلبســـها فجأة هاجس أنهما مراقبان، فاتصلت ريتا بيوسف تستدعيه وتصرخ فيه بلهجة لاشك في أنها آمرة أن يحضر لها فـــي بهـــو الفندق، فلما استجاب كلفه ذلك إقامة ليلة كاملة في العثور علي عنوان شبه سري لشقة صديق لها مدرس بالجامعة الأمريكـــية اتصـــلت به ريتا فعرفت أنه في إجازته بالولايات المـــتحدة طلبت منه أن تستخدم شقته أثناء تلك الإجازة، وافق داعـــيا لهـــا بالتوفيق مع عشيقها، تركته في وهمه، تلقت منه العـــنوان ودلهـــا علي وجود مفتاح الشقة في مكان خاص في بابهـــا، أخذتـــه ريتا ودارت ولفت معه علي عنوان كان يدرك وهو ابن البلد أنه عنوان مقصود منه إفشال العثور علي المكان، لكـــنها أصـــرت وأكـــدت أن الفـــندق غير آمن وأنه يستحسن استخدامه في التضليل حيث إنه مغطي بوسائل تنصت وأجهزة التقاط وأن كل ما يقولانه في السر يظهر علناً لدي كل الأجهزة العاملـــة فـــي القضـــية من مكان لآخر، ومن بواب لثان، ومن شـــارع لشـــارع، صـــعدوا العمارات خطأ، وركبوا المصاعد اخـــتلاطا، وحاولوا طرق أبواب نهرهما أصحابها كانت تقوده

ولا تترك له فرصة للتمرد مهما بدت سانحة، وحين ضجت بالتعب وهدها التضليل المكشوف في العنوان، وأوشكت أن تستسلم للعودة، إذا بهما في الشقة أخيرا.

رمت نفسها علي أول كنبة وقالت إن أمامهما عشر ساعات فقط من الاختفاء بعدها يمكن أن يظهرا في الفندق حتي لا ينشغل عليهما أحد فيسعوا وراءهما، وافقها متخذا حال الجندي المطيع رغم انفجار مرارته بالتبرم، جلس يرقب تفاصيل الشقة التي كانت متربة ولكنها تنم عن أناقة وذوق رغم غياب أثاث كثير واتساع الفراغات في المكان، وتبعثر الكتب، جهاز الأسطوانات قديم حتي يبدو أنه أثري، والعود المرتكن علي الحائط والتماثيل الصغيرة الملونة لأصحاب الحرف في البلد مصفوفة علي رف رخامي في إبداع.. مروحة سقف بادية القدم ورسوم أطفال مبروزة داخل أطر خشبية ممسوحة النقوش، ما شد نظراته اغترابا هو علم الولايات المتحدة المركون في زاوية ما علي صاري معدني قصير، وهناك في عمق الممر الممتد في الشقة تتدلي قبعة مثل تلك التي يرتديها العم سام في الرسوم التقليدية الفجة وعصاه كذلك معلقة من خيط يتدلي من علي السقف، ابتلع ملاحظاته ناظرا لمروحة السقف وقد بدأت تعمل بعد أن ضغطت علي زرها ريتا فكان مع دورانها صرير ما تجزع له نفسه حتي تعتاد عليه.. قالت ريتا:

- نبدأ بالمعلومات أم بالتحليل؟

فتحت حقيبتها فامتلأ المكان تحت الكنبة بعشرات الأوراق التي تبعثرت واندلقت من الحقيبة، في غير حساب وبلا تحسب.

رد علي سؤالها:

- لقد قرأ كلانا الملفات لنخلط إذن المعلومات بالتحليل.

دخنت سيجارتها الأولي، لكن المدهش أنها أخرجت قاروصة من السجائر وضعتها أمامها كمن يضع سلاحا في وضع الاستعداد، تأهب أن يتكلم فتهيب أن يبادرها فتغضب فسكت حتي تبدأ هي فبدأت:

- نبدأ بحكاية الخنجر التي تحولت إلي حدوتة شعبية في أجهزة المخابرات.. ثبت لنا الآتي:

أ- الخنجر المستخدم في الجريمة هو الخنجر الذي تم إهداؤه للرئيس وكان يعلقه علي حائط غرفة نومه.

ب- الخنجر بقي في جثة الرئيس حتي استخرجه مسئولو الأمن الوطني حين فحصوا الجثة.

جـ- خبراء المخابرات الأمريكية يقولون إن الخنجر قديم وفي حالة لا تسمح له بالقتل بهذا العمق وبتلك الطريقة، من هنا فهم يطرحون وجود سلاح آخر للجريمة لكن لا يعرفون ما هو.

التفتت له وقالت:

- بالمناسبة هل شاهدت الأفلام التي صورتها كاميرات الأمن الداخلي للقصر الرئاسي؟

رد يوسف:

- لا لم أشاهدها، إنها معك علي ديسك وليس لدي كمبيوتر في الفندق.

أومأت برأسها.

- صحيح- صحيح.. سوف نشاهدها معاً الآن

تدخل هو قائلاً:

- وبالمناسبة أيضا هل قرأت تقرير الطب الشرعي؟

قالت وهي تنظر في الورق دونما أن ترفع رأسها له

- آه.. تافه ومختصر.

مساحة صمت لم يعبرها أحد، لم يعرها يوسف اهتماماً، أما ريـتا فقد كانت تنتظر أن يحدث شيء خارجها.. نظرت له في استغراب.

- لماذا لا تتكلم يا يوسف؟

- أبداً.. لقد عرضت معلوماتنا عن الخنجر، ثم لم تفسري شيئا أو تدلي برأي.

خلعت نظارتها وواجهته بنظراتها.

- وافـرض يـا أخي ليس عندي تحليل.. هل نسكت ولا نشتغل؟

قل أنت رأيك؟

- آه إذن ليسٍ لديك رأي.

تنفست غضباً.

- جـري إيـه يا يوسف، عارفة أنك تريد أن تقول إنني عاجزة عن حل شيء.. حد قالك إنني أجاثا كريستي.

رد في برود:

- إذن فهمـت وعرفـت هـذا هو المطلوب منا ألا نصل لشيء، إنهم يعرفون أننا لسنا خبراء جريمة.

بادرته.

- لكننا خبراء حقيقة.

صمت فأكملت:

- لماذا لا تهتم يا يوسف، أليس المقتول رئيسك؟

تراجع يوسف برأسه وتقدم بكلماته.

- هل تقصدين أنني لست حزينا علي مقتله؟

- نعم.

تنهد يوسف وقال لها في هدوء:

- هل أفهم هذا باعتباره استجواباً؟

علي غير المتوقع ردت هادئة:

- أنت مازلت سيئ الظن بي.. لكن عموما دعني أقول لك إننـي أمـيل للإعجاب بك، وأفهم استسلامك لغضبي ولقيادتي رجولة وحكمة ليس فيها ضعف ولا هوان.

كانـت قـد جلسـت علي السجادة المفروشة في الصالة، واسـتندت بظهـرها علـي الكنبة ومدت ساقيها للأمام وفوقها أوراق ملفوفة وكان يوسف قد اكتشف وجود مقعد هزاز بجواره فلـم يجلس عليه، اكتفي بأن يهزه فيتحرك فيتابع حركة المقعد في تأمل، قرر أن يقطع عليها الطريق في هذا الحوار ودخل في تحليله فورا بهدوء يصل إلي حد البرود.

- عندما أنوي أن أدخل غرفة نوم الرئيس لأقتله، معني ذلك أنني أعرف كيف سأدخل إلي غرفته حتي سريره؟ وأنني أعرف أنه يمكنني الخروج؟ ثم لا يجب أن أنسي شيئا هاما وهو بأي شيء سأقتله، سأخنقه مثلاً، أم سأضربه بالرصاص؟ أم سأطعنه بالخنجر؟ لكل من هذه الطرق وسيلتها ومن المستحيل مهما بلغ غبائي وبلاهتي - وهذا أمر مستبعد حيث إنه من الصعب أن يصل غبي إلي موضع يسهل معه دخول غرفة الرئيس- فلن أترك للصدفة اختيار وسيلة القتل!

غاصت ريتا في كلام يوسف ثم أطفأت سيجارتها (وكانت قد وصلت للسيجارة الرابعة تقريبا).

- أو ربما كنت أدخل غرفة نوم الرئيس وليس في نيتي أن أقتله.. النية ظهرت عندما دخلت ورأيته بعد مناقشة حادة، ومواجهة غريبة!

أومأ يوسف بإعجاب.

- كلام رائع يا دكتورة ريتا.. نخلص من هذا إلي أن القاتل يمكنه دخول غرفة نوم الرئيس وهذا يحصر دائرة المتهمين داخل القصر الرئاسي.. هذا واحد.

إن القاتل إما أنه كان ينوي قتل الرئيس ومن ثم لم يجهز نفسه بسلاح للجريمة لأنه كان يعرف أن السلاح قد وفره عليه الرئيس، إنه بالداخل معلق علي الحائط، إنه الخنجر الذي يعرف القاتل أنه معلق هناك.. إذن فالقاتل دخل غرفة نوم الرئيس من

قبل وهذا يحصر دائرة المتهمين داخل القصر الرئاسي في الذين يمكنهم دخول غرفة نوم الرئيس.. هذان اثنان.

أعود إلي تقرير الطب الشرعي وما قلته عنه صحيح تماما. إنه تافه ومختصر، لكنه يطرح سؤالا مهما.

- صرخت ريتا.

- عرفته.

ابتسم يوسف وحثها علي الكلام بإيماءة من رأسه، فقالت:

- إذا كان الرئيس نائماً فجاء شخص ليقتله، فإنه لن يظل نائما سوف يصحو مفزوعا فماذا سيفعل؟

القاتل يضع يده علي فمه وبالأحري يطعنه في صدره، الرئيس يقاوم يضربه بيديه ينشب أظافره في رقبته يحاول أن يضرب الجرس بجواره، يحاول أن يعض كف القاتل، يخبط برجليه يهز السرير ويرفع ساقيه محاولا ضرب القاتل.

إذن أدرك يوسف أن لماحيتها لامعة.. ردد معها:

- إذن الرئيس لابد أن يقاوم القاتل.

ردت عليه كالصدي:

- ولا توجد أي آثار لهذه المقاومة لا في تقرير الطب الشرعي ولا في أقوال كل من شاهدوا جثة الرئيس ومسرح الجريمة.

صرخ يوسف مصفقا:

- بالضبط.

ارتجت تماما وكأنها فتحت مغارة علي بابا

- ثم إذا كان الرئيس قد قرر عدم تصوير جناحه وغرفة نومه بأجهزة المراقبة فإنه بالتأكيد كان حريصا علي أجهزة إنذار تكشف الغرباء. إذن القاتل إما كان يعرف أماكن هذه الأجهزة؟ أو أنه استطاع أن يعطلها.. أو..

أكمل لها يوسف جملتها الناقصة.

- أو أنها اشتغلت فعلا ودقت أجهزة إنذار لكن أحداً..

همست.

- لم يسمعها.

- أو لم يكن مطلوبا أن يسمعها..

رددت.

- سمعها وسكت

انتفضت

- نحن إذن أمام مؤامرة

قال لها بثبات وإيمان:

- مؤامرة ضد حاكم ظالم غاصب مكروه مجمد علي عرشه أكثر من ثلاثين عاما.. من سيهتم إذن.. من سيطلب ثأره.. إن الناس ستفرح بموته، كما أنها ستجزع خوفا مما قد يحدث من فوضي بعد موته، عندما يتعود الناس علي سماع كلب مسعور ينبح طول الليل فيحاولون إقناع أنفسهم أن نباحه ليس إزعاجاً أو تهديدا ولكنه يحرس المنطقة من اللصوص.

أكملت ريتا

- وحين يغيب هذا النباح بعد سنوات طويلة تعودوا فيها عليه يبدأون فعلا القلق خشية أن يأتي اللصوص.

قام يوسف وقال:

- هنا.. تأتي أطراف المؤامرة لتحل في المكان الخالي فورا.

أحرقت السيجارة الثامنة أصابعها.

- كلاب جديدة تنبح مكان الكلاب القديمة.

رفعت رأسها له كرجل مطافئ مهدود في لحظات فحص آثار الحريق لمعرفة سر اشتعاله.

- هل تعرف أن أوراق الحرس الجمهوري تكشف أن خمسة من حرس تلك الليلة من أبناء الوزراء سواء حاليين أو سابقين وأولاد مسئولين؟

بدأت في فر الأوراق وتلاوة الأسماء.

- ابن وزير الاقتصاد، وابن وزير العدل، وابن وزيرة الشئون، وابن نائب رئيس وزراء سابق ورئيس مجلس إدارة بنك حالي وابن مندوب البلد في الأمم المتحدة؟

توقف يوسف عند هذه الأسماء و أمعن في ملامح وجهها المنكسرة.

- ماذا يعني هذا؟

- الفساد والواسطة.

- دعك من هذا.. أنا أسأل ماذا يعني للجريمة؟

رجعت برأسها للوراء واكتشفت السر.

– آه.. هذا سر الإفراج عنهم بسرعة ولم يستغرق التحفظ عليهم كثيرا من الوقت كما هو مفروض في مثل هذه الحالات الخطيرة ثم عادت فقالت:

– هل لهم ضلع في الجريمة أم أنهم مجرد ضباب لإخفاء الأثر؟

رفع كتفيه وضرب المقعد الهزاز بقدميه.

– الله أعلم.

باغتته بالسؤال:

– يوسف.. لماذا لم تتكلم؟ لم تعارض أبداً؟ لم ترفض أبداً؟ لماذا أنت – مثل غيرك– مستسلم، مثقفون خائفون في هذا الوطن؟

زم شفتيه وتجعدت جبهته وانحنت عيناه كمن ينحني ظهره.

همست – آسفة.

وضع كفيه في جيبي بنطلونه وجلس – أخيرا– علي المقعد الهزاز: أمسك سيجارتها التي لا تزال علي اشتعالها لم تسحب منها نفساً بعد فوضعها بين إصبعيه ثم بين شفتيه، دخن وحين أشعلت لنفسها سيجارة أخري كان يتكلم ببطء وبحزن.

– جدي رضوان كان رجلاً جميلاً رقيقاً خجولاً وعجوزاً ونحيفاً وقصيراً، مصليا وقارئاً للقرآن.. كان هذا هو الحضن الجميل الذي يتلقاني حين ذهابي في الصيف إلي بلدة والدي في الجنوب، لم أكن أعرف وقتها أن جدي كان قد خرج من السجن

وأنا مازلت في العام السادس من عمري كان قيادة بارزة في حركة الإخوان المسلمين، بل كان عضوا في مكتب الإرشاد وهو أعلي المراتب التنظيمية في هذه الجماعة، مكث في السجن ١٦ عاما وخرج، بدا للكل معتزلا وإن كان قد تحرك في العمل السياسي في فترة مصالحة مع الحكومة ربما أفهمته أنها تريد للجماعة أن تعود وله أن يعمل، وحين كنت صبياً دون أن أكون يافعاً، رأيت ذات صيف مئات الجنود بأسلحتهم وهراواتهم وعشرات السيارات البوليسية كلهم يندفعون ناحية منزل جدي ويدخلون ويكسرون كل شيء أمامهم وسط الصراخ والنعيق والنحيب من نساء البيت، ومع صيحاتهم المتكبرة المتجبرة يأخذونه، يرفعونه من تحت إبطيه، تعلقت به صارخاً باكياً فما كان من أحدهم إلا أن صفعني علي وجهي ورمي بي إلي أحد الجنود الغلاظ الذي رفعني عن الأرض وألقي بي في صندوق سيارة الاعتقال مع جدي، والمذهل المذل أنهم اقتادوه إلي مقر مديرية الأمن هناك وأنا معه، وفي قلب مكتب أحد كبرائهم أخذوا يضربون جدي أمامي ويصفعونه علي قفاه ويعرون جسده حتي انكشاف العورة وبعد ساعات من الضرب والركل والسب الإهانة، جاءت جملة أحدهم لتشطرني شطرين، لتفجر قلبي شظايا زجاج يخر لها جسدي كله دما للأبد.. قال الرجل وهو يمسك بعضو جدي:

– تحب نخليك ت... حفيدك.. ولا نخلي حفيدك ي... قدامنا؟

لــم يحــدث لا هذا ولا ذاك.. لكن ما حدث أكثر لعنة من التهديد نفسه، أفرجوا عن جدي ثاني يوم، كانت مجرد رسالة له وللجماعــة، ورغم أن الــ ١٦ عاما من الاعتقال والتعذيب لم تفقــد جــدي ابتســامته لكن الساعات التي قضاها أمامي مهانا معذبا مهدور الروح والكرامة أفقدته النطق.

هل تعرفين ماذا حدث؟

كان جدي ينظر إليّ ثم كأنه لم يرني.. هل سمعت أبداً عن أحد يفقد حاسة البصر حين ينظر لشخص واحد فقط.. كان هذا جــدي حين كان ينظر إليّ - لحفيده- مات جدي بعدها بعامين ولــم تفلح معه عقاقير ولا أدوية ولا علاج ومات شيء مني لم يصح أبداً.

أرهقتها اعترافات يوسف، كانت تبكي في صمت وضراعة لكــن ســيل فيضـــانه كـــان لا يزال يحمل حجارته وصخوره المدخرة في خزانات القلب عميقة الغور.

قال يوسف:

- المأســاة الملهـــاة أن جــدي لأمي كان واحدا من أبرز قــيادات الحــزب الشيوعي، وما جمع إلا ما وفق، كان يدخل سجنا ليخرج إلي سجن، ومازلت أذكر يوم دفن جدي رضوان، إذا بجــدي الزعــيم الشيوعي العظيم يقف باكيا ملتهب الدموع فــوق قبر جدي الإخواني يخطب في الناس حتي هرب بعض الـــناس مـــن الجنازة ومن دفن الجثمان خوفا علي أنفسهم كان يخطـــب فـــيهم عـــن عظمة الفقيد وقوة إيمانه وصلابة أفكاره

وصـــمود روحه وكبرياء رسالته، وأخذ يعدد فضائله وشمائله ويلقـــي الآيـــات الكريمة من القرآن فتهتز معها القلوب ويرثيه بالشعر العربي القديم فترتجف الأفئدة.

هذا الجد نفسه بعد خمس سنوات كان ينضم للحزب الحاكم ويخطـــب في عظمة الرئيس، ذلك الرئيس المقتول، ويؤلف في مدائحه الكتب والمقالات وكان وكنت أتمني أن يفقد كلانا حاسة البصـــر حيـــن نظر كلُ منا إلي الآخر، ومن يومها قررت أن أهجر السياسة تماما.. أن أبعد عنها حتي الغرق في اللامبالاة، في العدمية، في العبث، كنت كلما نجحت وتفوقت في القانون، زاد قسمي ألا أعمل بالسياسة وكلما كنت أتعرض لإغراءات أو تهديدات بماضي أجدادي كنت ألوذ بالسلبية، كان جدي يزورني فـــي المنام وأراني أعتدي عليه فأقوم مفزوعاً وأنوي أن أعمل لهـــذا النذير وأن أدافع عنه وعن غيره من المظاليم، فإذا بجدي يزورنـــي في المنام وأراه يعتدي عليّ فأقوم مفزوعاً وأنوي أن أعمـــل لهذا النذير أما المصيبة التي كادت تودي بحياتي البدنية والعلمـــية يوم جن جدي الشيوعي فوقف في مؤتمر عام للقوي السياسية احتشد لإعلان تأييد الرئيس في دورته الرابعة حينذاك، فـــإذا بـــه يخطب خطبة يسجلها التاريخ بحروف من نورٍ ضد الرئـــيس وحكمه وظلمه، بينما كان الكل مذهولا مبهوتاً إذا به يخطـــب عن جدي الإخواني ويذكر الفقيد «الذي يبيعه الإخوان الآن حين يجلسون بجانبي لتأييد الرئيس» وينشد أشعاراً ويغني غـــناء مـــبحوحا لعجوز يلعن فيه الظلم والقمع وكانوا يشدونه

ويضربونه ويجرونه علي الأرض وهو يقاوم بعمره الذي تجاوز السبعين ويصرخ في الجالسين.

– يا خونة، يا جبناء، يا منافقين، يا كلاب.

وحين وصلت به الشرطة خارج القاعة.. كان قد مات.. وكان قد تطهر بدمه من ذنبه إلي الأبد.

تخيلي أنت ما حدث بعدها.. فصلوني من الجامعة، وألغوا تدريس مؤلفاتي وسحبوا كتبي من الأسواق والمكتبات ونبذني زملائي، وهجرني تلاميذي وتخيلي أنت ما حدث بعدها.. كتبت التماسا واعتذارا وقعناه أنا وأمي للرئيس حتي يعفو عنا، أما الذي غفر لنا ذنب جدي أن أمي رفضت أن تتسلم جثمانه وعدت أنا إلي الجامعة والحياة بثمن بخس للغاية أن جدي قد تم دفنه في مقابر الصدقة وظلت مقبرته في مدافن عائلته فارغة موحشة، غمرني اكتئاب وحزن، وازددت انعزالا واعتزالا، كنت أري دوما مشهد الأب الذي قتل ابنه لأنه إرهابي حسبما زعمت الحكومة، وكيف استقبله الرئيس فرحاً مبتهجاً والتقطت لهما الصور والرجل يمسك بالبندقية التي قتل بها ابنه، كتبت الصحف واحتفت الإذاعات ومحطات التليفزيون بالرجل، وكانوا يلتقون به في كل برنامج يمطرونه بالأسئلة عن كراهيته لابنه عن كفره ببنوته، كنت أشعر، جلادين في قرون الإمبراطوريات الأوائل يجلدون بأسواطهم الرجل في ميدان عام هام يتدافع الناس لرؤية الضحية بين منقبض الصدر أو متحمس للمشاهدة كنت ألمح في عيون الرجل هزيمة وانكسارا وضياعا وتوهانا،

عيونه زائغة، وشفاهه مرتعشة، وبدنه متخدل، وكانوا لا يرحمونه وهو يتلقي أسئلتهم ومسامير تطلب جسده، ورصاص يشق صدره ولما هدأت الضجة وانسحبت عنه العيون كان يظهر لي في كل لحظة كأنني هو، كأنه أنا، أحيانا كان يبدو هو جدي أو أبدو أنا جدي أو يبدو جدي هو، ولما امتلكني تماما قررت أن أذهب إليه تسترت بالليل وسافرت متخفيا تقريباً ووصلت إلي قريته النائية، كان كل شيء عنه قد تم ابتذاله في التليفزيون فبات معروفا وبات مفضوحا كل ما له صلة إليه من اسمه وعنوانه حتي جيرانه وأقاربه في بلدته، ومن ثم كان الوصول إليه سهلاً لكن الكلام معه كان مستحيلا، كان بيته مثل كل البيوت لكن كانت له رائحة حزينة حتي تعفن فيها الحزن ولما وصلت إلي داره واستقبلتني زوجته المكلومة وعيونها ملأي بالتوجس والتخوف سألتني:

– حضرتك حكومة؟

فقلت لها لا، لم تصدقني لكنني حاولت أن أكسب تعاطفها فقلت:

– لقد جئت لأطمئن عليه وعلي صحته.

تبللت السيدة بالدموع وقالت:

– لو كنت حكومة تبقي لازم تعرف إنه سافر عند «أخوه» علي البحر..

كان الأمر غامضا عليّ تماما فأعدت لها ضبط الحديث.

– أنــت زوجته.. أليس كذلك؟.. (هزت رأسها أنا نعم).. هــل زاره أحد من الحكومة بعد ما عاد من العاصمة؟ (هزت رأســها أنا لا).. إذن لماذا تشكين أنني من الحكومة؟.. أنا أراه غلبانا ومظلوما وعايز أصبره وأطمئن عليه.

فتحت الباب وأذنت لي بالدخول مشت أمامي وأنا وراءها فــي ممرات متقاطعة مظلمة وهي تمسك بمصباح من الجاز، يدها تدل نفسها وتدلني علي طريقه عند غرفة ذات باب خشبي كبير وجهم وقفت وفتحت الباب دخلت وراءها فإذا بالرجل راقد بــلا حــراك علي السرير متأملاً في السقف ألقيت عليه السلام والتحــية فلــم يرد واقتربت لأسلم عليه فلم ينتبه تأملته لحظة انخطف فيها قلبي وانسرقت فيها روحي لقد أدركت أنه ميت.. هل كانت السيدة تعرف هل كانت تفهم أنه مات؟ لا أعرف فقط سألتها منذ متي وهو علي هذه الحال قالت:

– معرفش من ساعة ما جه من عند الحكومة والتليفزيون، لا أكل ولا شرب وقال لي أنا تعبان قوي دخل ينام ومن ساعتها لــم يــتحرك ولم يرد عليّ قبل بس ما ينام قال لي لو حد سأل عليّ من الحكومة قولي له إنه سافر عند أخوه علي البحر..

كانت ريتا منهارة من البكاء تتماسك حيناً ثم تعود فتنخرط فــي زخــم الدموع اللاطم، تنهض من حزنها لتتعثر في بكاء ونحيــب آخر، كانت تتلقي كل كلمة قالها وحكاها يوسف علي أنهــا قطعــة لهب تصب في شريان قلبها حريقاً، كانت ملهوفة عليه وآسفة علي حكمها المتطرف علي سلوكه وفي أحايين من

الحكايــة كانــت تــرتعش كل أعضائها وترتجف شفتاها.. قام يوســف فأمسك بمناديل من ورق وأخذ يجفف دموعها ويربت علي كتفها ويمسح علي شعرها وقد تحول بياضها إلي كتلة من حمرة مضرجة حرارة لهيبة.. قال لها مبتسماً:

– أسأل الآن نفسي وأسألك هل اختارتني الحكومة هنا من أجــل هــذا الذي تعرفه عن تاريخ عائلتي، أدركت أنني أكره الرئــيس وأن قلبــي زغــرد عندما عرفت أنه مات وأن ثأري تقضــي عندما عرفت أنه مات مقتولاً. إنهم يقولون لأنفسهم لن يعمل هذا الأستاذ أبداً علي محاكمة قاتل الرئيس بل ربما يعطيه وســاماً.. هــل ضحكوا علي الأمريكان بحكاية تفوقي الدولي وشهرتي العلمية في العالم وموسوعات القانون التي تضم اسمي وصــورتي وســيرتي.. ربما.. مسحت مخاطها وقالت له في صوت متهدج مبحوح:

– لأنك تكرهه لابد أن تعرف من قتله.. إنهم لا يعرفونك جيداً.. إنك عادل تحب العدل وتعمل له وتموت من أجله، أليس كذلك.. أنا أريد عدلك قبل ذكائك.. علمك قبل مشاعرك.. روح أجدادك قبل حزن حفيدهم.

أمسكت بكفه بحرارة حاول أن يفلت

– لقد تأخرنا.. يجب أن نذهب إلي الفندق

هزت رأسها رافضة.

– لــن أذهــب إلــي الفــندق أنا أريد أن أنام هنا.. وفي حضــنك.. قامــت ففردت ذراعيها وضمت رأسه إلي صدرها

وأخذت تقبل بعيونها الدامعة وشفتيها المبللتين وجهه وعينيه ورأسه.

بدأ بكاء يوسف دموعا سائبة منسالة في صمت ثم زغرت وكشرت ثم بدأ صوته يتحشرج يختنق ثم بات بكاؤه نحيباً مهتزا ومرتجا ومتواصلا كأنه لن يضحك بعدها أبداً.

في الصباح أيقظته من النوم عابثة بالأوراق في وجهه، تضرب بها أنفه، صحا، نظر لها وهي تبتسم مستندة بمرفقها عند أعلي الوسادة فوق رأسه فيري جزءا من إبطها وبطن ذراعها الوضاح ووجهها الصبوح المغسول من الدموع ابتسمت وقالت:

- هل تحتفلون عندكم بعيد ميلادكم؟

استغلق عليه السؤال في البداية لكن عندما نفض النوم من مقلتيه فهم.

- حسب من هو هذا الشخص.. طبقته الاجتماعية.. اهتمام أسرته لماذا تسألين؟

أمسكت بورقة من ملف الحرس الشخصي وقالت:

- لأن ليلة اغتيال الرئيس كانت يوم عيد ميلاد أحد ضباط الحرس المكلفين بحراسته ليلتها.

رفع كتفيه استخفافا.

- إذن لم يحتفل بعيد ميلاده.. ربما بكر به يوما أو أجله يوماً ولم يحتفل إطلاقاً.

هزت رأسها.

- ممكن طبعا.. ممكن جدا.

عندما أوشكا علي الانتهاء من ارتداء ملابسهما ضحكت فجأة وقالت:

- لن أقول لأحد إنك تقريباً لا تعرف ما هو الجنس؟

خذلته ضحكته فقد بان مرتبكاً أضافت هي:

- هل يمكن أن يظن أحد أن أقصي ما فعلناه ليلة أمس هو البكاء كل في حضن الآخر.

ضحك وهو يقول:

- أليس هذا هو الجنس؟! عموما عندنا هذا اسمه جنس.

ضحكت معه وقهقهت وحين همَّا بالانصراف رجعت بسرعة تشد ورقة من ملف وتضرب رقما في هاتف.. رد الهاتف بعد فترة وسمعها يوسف تقول:

- منزل حضرة الضابط سعد سالم؟

- أيوه يا افندم.

- المدام موجودة؟

- أنا المدام.

- أهلاً بك يا مدام.. الحقيقة نحن شركة بريد وعندنا رسالة.. إنها متأخرة للغاية، عذراً فقد أهمل موظف الشركة عندنا وتم عقابه فعلاً.

- ما هي الرسالة؟

- إنها تورتة مكتوب عليها عيد ميلاد سعيد يا سعد.. ومكتوب عليها التاريخ مع كارت توصية للشركة بتوصيل

الــتورتة فــي لحظـــة الاحتفال بعيد الميلاد، ألم يكن في اليوم الفلانـــي (وحـــددت ريـــتا ليلة اغتيال الرئيس)؟ فقالت زوجة الضابط:

- نعـــم.. فعلاً.. لكن غريبة لم يذكر لنا أحد من أصحابنا موضوع هذه التورتة رغم أنهم هم الذين دبروا الحفلة وأعدوها فجأة.

ثـم لمـــاذا طلب صاحب الهدية من شركة بريد إرسالها، وليس من محل أطعمة عيد الميلاد؟

- فـــي الحقـــيقة لا أعـــرف.. لكن عموما سوف نستبدل الـــتورتة بأخري بنفس المواصفات لكن طازجة ونرسلها إليكم وتبقي مناسبة للاحتفال بعيد ميلاده مرة أخري، قالتها في شيء من المداعبة والإيحاء بليلة زوجية أخري، ردت الزوجة:

- يا ستي متشكرين.. لكن سعد نفسه مسافر.

- في رحلة؟

- لا.. في شغل.

- طيـــب ما هي فرصة نبعثها له في الشغل.. آه.. نسيت إنه ضابط.. أكيد هذا المكان منطقة عسكرية.

باحت الزوجة فوراً

- لا.. ماخلاص.. استقال وترك حياة الضباط ويعمل منذ أسبوعين مديراً لقرية سياحية.

نظـــرت ريـــتا إلي يوسف بنظرات توحي عن نفسها أنها امرأة قديسة.

- ممكن أعرف اسم القرية؟

لما عرفت.. وضعت التليفون فوراً ونظرت ليوسف مثبتة نظراتها في عينيه وانتظرت منه أن يتكلم.

- احـــتفل بعـــيد مـــيلاده الغبي.. وهو في حراسة رئيس الجمهورية؟

- أو لم يذهب إلي حراسة الرئيس أساساً ليلتها؟

- إذن كيف ظهر اسمه في كشف حراس هذه الليلة؟

قالت ريتا وهي مستثارة تماماً من الاكتشاف:

- هل تعتقد أننا وجدنا القاتل؟

رد يوسف وهو ممتلئ إحساساً بالخطورة:

- أعتقد أن هذا الصباح منيل بستين نيلة.

٢٣

أفزعتهم ثورته، فقد قام فجأة من علي المقعد الذي يتصدر مائدة الاجتماعات في مبني مجلس الوزراء وهو منفعل لا يفتعل العصـــبية والـــثورة، بل كان صادقا للغاية في توتره وارتجافه تكهـــرب الجو تماما، شعروا جميعا أن تحت مؤخراتهم مقاعد للصعق الكهربي، صرخ فيهم بعزم ما فيه من حيل مهدود.

- هو أنا أقل من أي واحد قعد مطرحي.

كانت الإجابة مؤكدة بالنفي فخرجت من أفواه كثيرين منهم.

- لا.. طبعا..

تـــبادل رئيس الوزراء نظرات مشدودة مع وزير الداخلية لكـــن رجـــل الأعمال «ن» شاء أن يخفف غلواء الجو (عندما تـــتحدث ثلاثـــة مليارات دولار علي لسان أحدهم فإنها ولاشك تخفف غلواء الجو).. قال «ن»:

- أعـــرف أن وجودي هنا مع بعض أصدقائي من رجال الأعمـــال وجـــود شرفي لا يؤثر في أي من قراراتكم.. لكنني أتدخـــل هنا باعتباري مواطنا يحضر اجتماعا عالي المستوي..

فإذا كان لي أن أتحدث مندوبا أو ممثلا عن المواطنين فأذنوا لي بالكلام.. (ثم ضحك) أو خلونا أصحاب أحسن.

هدأ وزير الحرب وجلس.. ربما من التعب.

– والمواطنون مش ح يلاقوا أفضل ولا أحسن منك مندوبا عنهم ثم أنا يا أخ «ن» باعتبر رجال الأعمال في البلد جزءا من الحكم، جزءا أصيلا من سلطة اتخاد القرار، هو البلد كله عايز إيه، عايز رفاهية رخاء عمل، فلوس، طيب كل هذا سوف يأتي من أين؟ أليس من شركاتكم ومصانعكم وأعمالكم.. أنت هنا لا تقل عن أي وزير في المجموعة الوزارية الخاصة واسأل رئيس الوزراء ألم أطلب أنا حضوركم معنا؟ أومأ رئيس الوزراء:

– نعم طبعا.. طبعا.. وحددكم بالاسم.

نظر وزير الحرب لرجل الأعمال وزملائه.

– شفتم.. إذن تكلموا بكل حرية واعتبروا أنفسكم مسئولين معنا عن هذا البلد.

قال «ن»:

– أشكر لسيادتك هذا الكرم الكبير.. وأحب أن أتدخل فقط لأقول إننا جميعا نحب هذا البلد ونتمني مصلحته ونعمل علي تقدمه كل في موقعه، يعني اللي بياخد مرتب خمسمائة جنيه في الشهر واللي مشغل ثلاثة أو أربعة مليارات جنيه في البلد.. كلنا واحد في الوطنية وكلنا بنعمل علي قد طاقتنا وموهبتنا.. لذلك أنا لا أجد خلافا في وجهات النظر التي عرضت الآن، فالذي

يريد أن تخرج نتيجة الاستفتاء القادمة بنسبة ٨٥% موافقة يسعي أيضا إلي إظهار البلد في صورة الذي يستعد لنقلة جديدة في حياته والذى يريد أن يعرف رئيسه الجديد حتي يأمن له تماما.

عاد وزير الحرب لثورته لكن هذه المرة علي درجة أقل وبلهجة أخف وظل جالساً علي مقعده.

– يعني يرضيك إن كل رئيس انتخب قبلي في كل مدد الرئاسة كانت النسبة ٩٩,٩% موافقة وتأتي عندي فتصبح ٨٥% مرة واحدة هذا معناه إيه أكثر من إن الناس لا تريدني ولا تثق فيّ أو لا تعيرني أهمية.

قال «ن»:

– يا ريس أنا لم أقل ذلك.. أنا قلت إن وزير الداخلية لما قال إن نسبة ٨٥% كنسبة أول استفتاء نسبة معقولة، كان ينطلق من حسن نية وفهم للأمور بشكل له احترامه.

هتف به وزير الحرب:

– لأ.. لأ.. دعك من رأي وزير الداخلية، أنا عارف إنه يقصد كل خير، لكن تفكيره السياسي علي قده.. قل لي إنت رأيك هل تريد نسبة الاستفتاء ٩٩,٩% أم ٨٥%.. ها.. قل لي إنت رأيك الآن.. بوضوح وبصراحة.

رد «ن» فوراً:

– طبعاً أتمني النسبة التي يثق الشعب فيها برئيسه، والتي تعطي رسالة للجميع أن الرئيس الجديد يحظي بشعبية

وجماهيرية تجعله يتخذ القرارات التي يراها بمنتهي القوة والشجاعة والحزم.

ارتفعت دقات قلب وزير الحرب وقال:

– يعني نسبة كام؟

قال «ن»:

– ٩,٩٩% نسبة مطمئنة ومعقولة.

تحسس وزير الحرب قلبه الذي كاد ينفتق في انتظار الإجابة ونظر إلي رئيس الوزراء الذي هتف:

– والله يا سيادة الرئيس أنا أراها نسبة معقولة وجيدة جداً، لكن ليست هي النسبة المهمة؟

– إزاي؟

– طبعا فيه نسبة أهم لا أحد يأخذ باله منها رغم أنها المقياس الحقيقي لرضا الشعب عن الرئيس والإيمان به والسير وراءه والثقة فيه.

صرخ وزير الحرب:

– ما هي هذه النسبة.. قلها وجعت قلبي.

انتفض رئيس الوزراء بالحكمة التي تحشو عقله

– نسبة المشاركين يا افندم.. كم واحد ذهب لصناديق الاقتراع وصوّت في الاستفتاء.. أصل ممكن تبقي نسبة الموافقة علي انتخابكم رئيسا للجمهورية ٩٩,٩% فعلاً، لكن نسبة المشاركة والتصويت مثلاً ٦٠% أو ٥٠% وهذه نسبة تقول إن الإقبال كان ضعيفاً وأن الرئيس ليس محل جماهيرية أو ثقة.

أومأ وزير الحرب وهز رأسه وتحسس قلبه.

– صحيح.. هذه فكرة وجيهة لم تكن في بالي.

ثم نهر وزير الداخلية بنظراته الحادة الموجعة.

– هل كانت في بالك يا سيادة الوزير؟

قال وزير الداخلية و هو يشعر أن اليوم لن يفوت:

– أنا هنا يا افندم لتلقي الأوامر.. وكل ما تتفقون عليه سأنفذه وستجد إرادة الشعب متطابقة تماما مع رغبة سيادتكم.

أعجبه كلام وزير الداخلية فنظر إلي وزير الإعلام وسأله:

– النسبة الأخيرة في استفتاء رئيس الجمهورية.. ماذا كانت؟

قلّب وزير الإعلام أوراقاً أمامه، لكنه لم يتكلم.. فهو لا يتذكر ولم يستعد لمثل هذا السؤال، فاستنجدت نظراته بوزير الداخلية وقال:

– علي ما أذكر كانت ٨٦% يا سيادة الوزير.. أليس كذلك؟

وزير الداخلية أدرك أن وزير الإعلام يضرب رقما والسلام.

قال خشية أن يعرف وزير الحرب حقيقة الرقم فيما بعد فيطلع دينه.

– علي وجه الدقة كانت ٩٣,٦% لكن أريد أن أنوه أنه كان الاستفتاء الخامس وكانت الناس تعرف أن الرئيس ناجح ناجح وكانت مطمئنة إلي النتيجة ولم تكن متحمسة للذهاب إلي

صناديق الاقتراع، حيث بات الأمر علي مدي ٣٥ عاما شيئا عاديا وروتينيا لكن في مثل هذا الاستفتاء الجديد هناك أحداث جديدة ووجوه مختلفة والناس حريصة على أن تدلى بصوتها للمرحلة القادمة.

آمن وزير الحرب بما قاله وزير الداخلية تماما فتدخل رجل الأعمال «ر».

- أظن أن الناس بكل طوائفها وشرائحها وثقافتها سوف تخرج لتدلي برأيها في هذا الاستفتاء التاريخي لذلك لابد أن تكون نسبة المشاركة نسبة تاريخية وأنا أقترح أن تكون ٩٩% هي أيضا.

أحس وزير الحرب أن الرقم جميل لكن فيه بعض المبالغة فنظر إلي وزير الداخلية الذي خاف أن يبدد فرح وزير الحرب بالرقم فقال:

- قوي.. قوي ممكن جدا.

لكن وزير الإعلام تدخل بصوت يبدو عاقلاً:

- لكن لابد أن نحسب نسبة أصوات الموتي والمسافرين للخارج والمجندين وهذه وحدها أكثر من ١% كثيرا.

وزير الحرب كان رشيدا حين قال:

- صحيح.. لا نريد للنسبة أن تعلو إلي درجة تفقد معها مصداقيتها.

تفتكر يا وزير الداخلية النسبة التاريخية التي يريدها السيد «ر» ممكن تكون كام؟!

قال وزير الداخلية:

- حتي تجمع بين المصداقية ودليل الشعبية أفتكر نسبة إقبال تصل إلي ٩٧% تبقي نسبة كويسة جدا وأعتقد أن سيادتكم لو وافقت فإن الشعب لن يخذلك أبدا وسيصل إلي هذه النسبة بسهولة.. بسرعة وبحماس سأل وزير الحرب:

- ما رأيك يا سيد «ر» هل هذا يحقق وجهة نظرك؟

قال «ح»:

- جدا يا سيادة الريس.. إنها نسبة تاريخية ومطلوبة.

هنا قال وزير الإعلام:

- طيب طالما اتفقنا علي أن نسبة المؤيدين والموافقين ستصل إلي ٩٩,٩% ونسبة التصويت والإقبال سوف تكون ٩٧%.. بقي أن نعرف عددا مهما للغاية وهو عدد من سيقول لا.

رد رئيس الوزراء بمبالغة في الرفض.

- وهل لابد أن يكون هناك من يقول لا؟

فقال وزير الحرب بسرعة وحماس بالغين:

- طبعا- إن هذا دليل حرية وديمقراطية ولابد أن نحرص عليه ونعلم الناس أننا لا نخشي من كلمة «لا» أبداً فليس لدينا ما نخاف عليه أو نخشي منه ولذلك من الضروري جدا أن يكون هناك عدد لا بأس به يقول لا.

أدلي وزير الداخلية بدلوه حتي يغترف اعترافا من الرئيس الجديد بجدارته.

- النسبة لابد أن تكون محسوبة جيد، فمن المفروض أن تكون ٠,٠١% لنسبة المشاركين في الاستفتاء.. وهي مسألة معقدة قليلا لكن وزير الإعلام لم يترك لوزير الداخلية فرصة للتباهي بخبرته فقال:

- نحن من الممكن أن نحدد رقم الذين قالوا لا.. والباقي من النسبة نعملها الأصوات الباطلة.

صرخ «ن»:

- صحيح- برافو يا سيادة الوزير.. هذه فكرة مدهشة، ثم أراد ألا يخسر وزير الداخلية أيضا فقال:

- وأكيد سيادة وزير الداخلية بخبرته وحنكته يعرف ما هو الرقم الطبيعي للذين يمكن أن يقولوا لا في الاستفتاء القادم بعد غد؟

وزير الداخلية تقبل المجاملة قبولا حسناً وقال:

- طبعا هم قلة ولاشك.. لكن تحديد عددها في أيدينا كلنا ومهما كانت خبرتي فإن إحساسكم بالشعب وبنبضه سيكون أدق قطعاً.

كان الجميع يهرب من البدء بتحديد رقم وأدرك وزير الحرب ذلك لكنه أراد أن يبدأ أحدهم وليس هو، حيث يخشي أن يكون مبالغاً في النقصان أو الزيادة.. أخيرا تحرك رئيس الوزراء لقطع الملل والتوتر معاً وقال:

- لنعتمد أيضا علي عدد الذين قالوا لا في آخر استفتاء.

قال وزير الداخلية:

- كانوا ٧٨٢ شخصاً

قال وزير الإعلام:

- كتير.

- وقال وزير الحرب:

- تفتكر!

وقال «ن»:

- نقول ٤١٢ مثلا.

قال وزير الإعلام:

- ليكن الرقم أكثر تعبيرا عن الحقيقة فيصبح مثلا ٣١٨ شخصا قالوا لا.

قال وزير الداخلية:

- أنا كان تصوري نسبة أقل من ذلك يعني في حدود من ٢٨٠ إلي ٣٠٠ شخص.

قال وزير الحرب:

- نقول ٢٨٠ كويس

قال رئيس الوزراء:

- لأ فيه مبالغة.. نقول ٢٣٠ كويس.

تدخل «ر»:

- طيب أنا ح أقول رقما أرجو أن توافقوني جميعاً علي واقعيته وصحته.

قال وزير الحرب:

- قل.

فقال:

- ٢١٧ شخصا قالوا لا.

فهب الجميع: موافقون.

- علي بركة الله.

٢٤

لم يصدق أن إغفاءة مثل هذه بسرعتها وضمورها سوف تخايله بحلم فج في مباشرته وانفضاح ما يفضي إليه من رمز! رأي نفسه في صحراء وقد ارتدي مع عشرات الأشخاص ملابسٍ معدنية من تلك الملابس الجلدية السميكة والفضية، وقناعاً من الزجاج أمام وجهه وعلي رأسه غطاء يشبه غطاء رواد الفضاء، يمشي بحذاء أسود طويل يصل حتي ركبته في رمال، ممسكا بعصا كشف الألغام، يبحثون عن ألغام في تلك الصحراء، كل تلك المجموعة المصاحبة له، وبينما يتلفت فإذا بلغم ينفجر في أحدهم، يطير في السماء بفعل لهب صاعد بركاني المذهب، ثم تبدأ الألغام في الانفجار واحدا تلو الآخر، تقذف بشخص في كرة نار، ثم ثالث ثم رابع يطير، ويدفع الهواء وإذا بريتا تخلع القناع الزجاجي الذي يغطي وجهها وتبتسم له، فتسيل زخات من المطر علي رءوسهم، ثم يبدأ كل منهما في الجري في كل الاتجاهات كالمجانين تحت المطر، مثل قطط فاجأتها المياه الزخمة، أو أطفال يخرجون من خيمة للعبث تحت الماء الضنين وتتوالي الانفجارات كأنما العالم كله

يشـــتعل حولهما.. استيقظ من الإغفاءة مدركاً أنه لو من أولياء الله الصــــالحين فهذه بشارة الموت وغرة النهاية فلما فتح عينيه رأي ريـــتا تدير جهاز الكمبيوتر وقد ركنت السيارة المستأجرة علي جانب الطريق السريع.

نظر إليها ففهمت زيغ النظرة فقالت:

– حلم سخيف أليس كذلك؟

تنهد ولم يعد يبهره ذكاؤها.

– كذلك.. لكنه مباشر وفج كأنما ألفه شخص.

ثـــم حكـــي لها ما الحلم فابتسمت وأرجعت ذلك إلي ثلاثة أشـــياء، الأول صـــوفيته، والثاني أنه رأي برنامجا وثائقيا في التلـــيفزيون قبل أن ينام عن الألغام، والثالث أنه في الطريق – معها– إلي منطقة كانت أرضا ملغمة في حروب خاضتها البلاد مع عدو لها.

سألها: ماذا تفعلين ولماذا أوقفت السيارة؟

– ردت علـــيه: أبـــدا قلـــت أرتاح.. لا أريد الظهور في اســـتراحات الطريق المكشوفة وأحببت أن نعيد مشاهدة صور القصر الرئاسي ليلة الاغتيال مرة أخري.

– قولي مرة رابعة.. خامسة..

كانـــا في الطريق إلي القرية السياحية تبعد ٤٠٠ كيلو متر عـــن العاصمة استأجرا سيارة تصلح لصحراء الطريق الطويل ولـــم يخبرا أحدا كما لم يستأذنا أحداً في الذهاب إلي سعد سالم حيث يعمل الآن وبعد فترة قصيرة (حتي الشك) من تركه خدمة

الحراســـة الرئاسية.. لم يتصلا به حتي تتم المفاجأة وإن حفظا ملفـــه بالكامل، كانا علي يقين زرعه الحدس والتمني أن يكون هو مفتاح اللغز فإذا لم يكن قاتلا فليكن شريكا فليكن شاهدا، بعد ركوبهمـــا الســـيارة مباشرة اتصلا برئيس الحرس من تليفون يوسف المحمول يتأكدان منه مرة أخري.. ومتعجلة من ثقته في أقوالـــه حيث أكد أن الاستجوابات شملت الجميع بمن فيهم سعد سالم.

– سعد سالم يا افندم.

– طبعا كان موجودا ليلة الاغتيال وكان لابد من استجوابه.

– وأين هو الآن؟

– بعد أن تم تسريح كل الضباط لاشيء أعرف عنهم.

دعـــك وجهـــه وارتدي نظارته وشرب من ترمس القهوة فـــنجانا صـــغيرا وأخـــذ يتأمل انشغال ريتا العاتي في متابعة خطـــوات الحـــرس علـــي الممرات داخل القصر تعيد تشغيلها بالبطـــئ، الداخلـــون والخارجون من بوابات الجناح الرئاسي، الحـــراس الجالســـون علي المقاعد الجلدية وفي أيديهم أسلاك معلقـــة للاتصـــال اللاسلكي وعلي أحزمتهم مسدسات متأهبة.. ضربت كتف يوسف فجأة وهتفت فيه:

– انظر أليس هذا هو وجه سعد سالم؟

تفحصه بعيونه المكدودة، تأمل شبكات الخيوط المتعارضة والمتلاقـــية التـــي تكون صورة ملامحه علي شاشة الكمبيوتر، كانت زاوية وجهه ولم يظهر سوي بجزء من كتفه وجانب من

جبهته وأنفه وخده الأيمن، أخذت تعيد له الحركة حتي يتأكد يوسف فلم يتأكد، فأزعجها تشككه.

– هو نفس الصورة.. إنه سعد سالم.

قال لها:

– وما الذي يعنيه ذلك، إن الساعة كما هو واضح علي شريط الصورة الخامسة صباحاً، إذن لم يترك موقعه وكان موجودا بالفعل ليلة الاغتيال، ولم يذهب لعيد ميلاد ولا غيره، القصة كلها تبقي ساعتها كتلة ضخمة من غزل البنات، لا معني لها ولا دلالة فيها.

صدقته في منطقه وصدقت نفسها في أنه سعد سالم، فجمعت التناقض في صرة بطنها موجعة وسكتت، لكن يوسف الذي بادر الآن وأشار إلي صورة أخري ملأت شاشة الكمبيوتر كانت لحوض السباحة وقد ظهر علي حافته بعض الفنيين ومهندس الصيانة (عرفوا أنه المنوط به الإشراف اليومي علي حوض السباحة استعدادا لساعة سباحة الرئيس الصباحية).

قالت ريتا:

– ما الذي شدك هذه المرة في مشهد حوض السباحة؟

أشار بمقدمة قلم في يده إلي شخص بدا واضحا الآن في الصورة مع مهندس الصيانة المسئول، كان شخصا يحمل ملامح أجنبية من الشعر الأشقر والوجه الأبيض الغطيس والجسد الرياضي ذي المسحة العسكرية.

قال يوسف:

– من هذا؟

قالت ريتا:

– لا أعرف.

– إذن فكرينا نسأل عن شخصيته وما الذي أتي به إلي هذا المكان في هذا التوقيت؟

أومأت برأسها علامة الموافقة وهي تغلق الكمبيوتر وتضعه في حقيبتها وتصلح من وضع مقعد القيادة وتبدأ في تشغيل السيارة، طلب منها أن تدير غناء لأم كلثوم لكنها رفضت.

– لقد شغلنا أم كلثوم بما فيه الكفاية.. تأمل الطريق وأنت صامت وفكر ماذا سنقول لسعد سالم؟

قال يوسف:

– أنا لن أقول شيئا.. ولا أريد شيئاً..

ثم في مزج من التوتر والمداعبة الهازلة أخذ يدور ويلف في مقعده وينزل برأسه كمن يبحث عن شيء يعبث بكفه تحت المقعد خلف مسنده حتي استغربت حركاته فسألته:

– عم تبحث يا يوسف؟

– قال لها

عن جزمة؟

– ليه؟

– كي أضرب نفسي بها.

ضحكت: وفر علي نفسك البحث عن حذاء فهناك العشرات الآن الذين ينوون ضربك.

حيـن وصـلا إلـي القرية السياحية كان المكان مزدحماً وصـاخباً ومرحا كأن البلد لا يعيش حالة حداد رسمية، اكتشفا معاً أن الحداد رسمي فعلاً، لا أحد يبكي الميت ولا أحد يخشي أن يحـدث أسوأ مما حدث، أغلب السياح من البلد نفسه، ولكن ملابسـهم البهـيجة وملامحهـم المسترضية وأطفالهم المرحي تعطـي الانطباع أن بينهم وبين البلد علاقة سياحية فعلا، كان الإحساس بالاغتراب يأكل قلب يوسف، لكن ريتا انغمست فورا فـي البحث عن سعد سالم حيث أخبرهما موظف الاستقبال أنه سـيكون فـي انـتظارهما في مكتبه بالكوخ الرابع في الساحة الخلفـية. انغرسـت وسـط حشائش وأشجار زينة تكون شبكة محكمـة تحول - كالسور - بين المرء والعبور، وكان يوسف غافلاً عن المكان، ينغمر برأسه تحت موج نفسه.

لحظـة وهبّت ريتا مذعورة حيث وجدت أمامها سعد سالم (إن لـم تكـن قد أخطأت ملامحه) فوجئ هو بذعرها المباغت فاعتذر.

- أنا آسف جداً.. ألست أنت دكتورة ريتا مكربي؟

قالـت وهـي تضـع يدهـا علـي قلبها كي توقف هزته المهجوسة:

- نعم.. حضرتك سعد سالم؟

أومـأ برأسـه أن نعم فعرفته بيوسف رضوان.. دعاهما لدخـول الكـوخ حيث ظهر من الداخل مكتب بسيط وإن كان محشواً بزينات من مصنوعات ومصوغات المنطقة، سألهما:

- خير.. هل هناك من خدمة أقدمها لكما؟

قالت ريتا بصراحة وبسرعة من يلاحق أرنباً في غابة:

- نعم.. نحن اللذين نحقق في جريمة اغتيال الرئيس.

علـي عكـس مـا توقعت أن تدوي قنبلتها في أنفه تلقي التعريف هادئا حتي البرود دون أدني مفاجأة فأشعلها استفزازا.

- أأنت تعرف أننا قادمان.. أو تعرف أصلا مهمتنا؟

ظهر شبح ابتسامة علي شفتيه.

- يا دكتورة لا يوجد شيء خفي في وسط مثل الذي جئت أنـا منه.. ثم إن زوجتي أخبرتني بحكاية التورتة إياها فعرفت أنها حيلة وإن بدت نسائية للغاية إلا أنها تعني أنكما وصلتما إلي ما كان يجب ألا يصل إليه أحد.

أقلقت يوسف لهجة سعد الصريحة والتي لا تخلو من طيف الوقاحة..

قالـت ريتا وهي تشعر أن موقعها المهاجم قد تقهقر لخط منتصف الملعب فقاتلت من أجل ألا تتراجع إلي منطقة مرماها أمام محترف مثل سعد سالم.

- لديـنا أسـئلة مباشرة ولا أقول اتهامات نريد أن نسمع رأيك فيها بشكل غير رسمي.

بادرها سعد:

- هل تريدين يا دكتورة لفاً ودورانا أم الحقيقة من الأول دون إزعاج مشترك؟

قالت ريتا:

- الحقيقة ولكن دون صياغة ضباط محترفين.

ضحك سعد - أظنك قرأت ملفاتنا جميعا، وعرفتي أن معظمنا وسايط وأولاد مسئولين وأن موضوع الحراسة كان تشريفا وأمراً هينا خفيفاً لم يؤخذ أبدا مأخذ الجد.. كنا منظراً علي الفاضي ونحن نعلم أننا لن نحمي الرجل في شيء لو حاول أحد اغتياله.. بصراحة كان الجميع قد فقد الأمل في أن يحاول اغتياله أحد وخاصة بعد محاولة جنينة الحيوانات التي ليس لها نظير.

أحس يوسف صدقا مخلوطا بشيطنة في كلمات سعد، لكنه أدرك أنه لا سبيل إلا التسليم بأن يسمعه دون تجارب مراهقة في استنطاقه تحاولها ريتا، فتدخل:

- اتفضل يا أستاذ سعد.

نظر سعد إلي ريتا:

- موافقة يا دكتورة.

قالت وقد شعرت بخيبة أمل مسبقة.

- اتفضل يا سيدي

بدأ سعد يتكلم:

- أنا سعد سالم ابن سفير البلاد في الأمم المتحدة الذي توفي العام قبل الماضي وخدمت مع الرئيس في حراسته منذ

خمس سنوات كاملة وقد كانت آخر أيام خدمتي محددا لها اليوم الذي أصبح تاليا لاغتياله وليس صحيحا أنه تم تسريحي، بل أنا كنت قد استقلت من الخدمة، حيث عملت هنا، وأنا بالمناسبة أحد الشركاء في هذه القرية ولست موظفا بها فقط، أما عن عملية اغتيال الرئيس فقد كنت في الخدمة فعلاً، وكان عيد ميلادي أيضا، ونحن عائلة برجوازية لا تفوت فرصة الاحتفال بعيد ميلاد أحد أبنائها، لكن طبعا - نظرا لظروف انشغال أي منا- يمكن أن نؤجل الحفل، فليس بالضرورة أن يكون الاحتفال نفسه يوم عيد الميلاد، لكن يومها في حدود الثامنة مساء فوجئت برئيس الحرس وقد أخبره زملائي بأن اليوم عيد ميلادي يمنحني بقية الساعات المتبقية علي نهاية خدمتي راحة وإجازة وزيادة منه في الكرم شارك زملائي في الاتصال بمحل حلويات شهير وأرسلوا التورتة إلي البيت ولما وصل لزوجتي ذلك دعت بعض أصدقائها المقربين والذين صادف عدم ارتباطهم يومها بشيء إلي حفل عيد ميلاد سريع لي، ولكن في حدود الواحدة صباحا وحين أوشكت أن استكمل احتفال عيد ميلادي في سرير الزوجية وجدت رئيسي يستدعيني للحضور إلي القصر، أرسل لي السيارة العسكرية وأسرعت بالعودة، فشرح لي أنه كان متفقا مع الشيخ رزق بركة علي أخذ ساعاتي ولكنه بعد ساعتين ثلاث زهق واختفي، فقرر أن يعيدني هو إلي الخدمة، فنظرت ريتا إلي يوسف مبهورة فرأته مبهوراً ينظر إلي سعد الذي قرأ اندهاشهما.

- الشيخ رزق.. طبعا هذه المرة هي الأولي التي تسمعون فيها عنه، فالكل يحاول تجاهل وجوده حيث يمثل لهم عاراً أمنياً من المستحيل تصديق حسن النية وبلاهة المقصد من وراء وجوده.

في الأصل الشيخ رزق بركة اسمه عبدالرازق بركات، وهو ضابط فذ في تفوقه العلمي والرياضي والبدني والعسكري، كان تقريباً أستاذنا ومثلنا الأعلي ونموذجنا الأكثر نجاحا وانضباطاً، ليس ابن مسئول كبير حالي أو سابق، ولكنه كان أول دفعة كلية الحرب، وحاصل علي الدكتوراه في العلوم العسكرية في زمن قياسي، بدأت قصته بعد الالتحاق بالخدمة كحارس للرئيس حينما سافر إلي بعثة تدريبية ستة أشهر في الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك تغير تماماً حتي صار الشيخ رزق، فقد صدمت ريفيته وانضباطه وأخلاقياته بحضارة الغرب في أقصي صورها وضوحا وأكثر جوانبها الفاضحة فضحاً، لاحظوا أنه كان هنا ثوراً في ساقية فعلاً، لا حياة إلا في الثكنات العسكرية وفي علوم الكتب. المهم أحدثت هذه الصدمة لديه هزة نفسية غريبة، فبينما انبهر الأمريكان بقدراته وإمكانياته وتعاملوا معه كأسطورة شرقية إلي الحد الذي عرضوا عليه الجنسية والخدمة في أجهزتهم لكنه، رفض تماما وقيل إنهم استضافوه في فرقة مكثفة خاصة لمدة شهر في المخابرات الأمريكية لكن كان هذا مجرد كلام لم يتأكد لأحد منا، لكن في نفس الوقت كان عبدالرازق يرتاد مساجد المسلمين

في أمريكا أكثر من أي زميل له، ثم سرعان ما ارتبط بعلاقة ودية عميقة وغريبة مع شيخ أحد المساجد هناك، وانخرط معه في جلسات صوفية وسهرات دينية ولقاءات لا أول لها ولا آخر. ولأن تفوقه كان عاملا يغفل معه أي ملاحظة لدي مراقبيه، عاد من البعثة بأعلي درجات الرضا من الأمريكان وبحالة تصوف متطرفة، فبدأ يصلي أثناء الخدمة ويدعونا للصلاة، ويقف طول خدمته في الرايحة والجاية إذا لم يقل قرآنا بصوت عال فإنه يلقي مواعظ عن الموت والجنة والحساب والنار.. لكن قصته زادت في غرابتها حينما قال للرئيس قبل ذهابه إلي جنينة الحيوانات، لا تذهب إلي هناك.. فهناك يكمن الخطر، لكن الرئيس لم يسمع كلامه وتقريبا نوي أن يفصله، لكن حدث ما حدث في جنينة الحيوانات، حيث تعرض الرئيس لمحاولة اغتيال، فصار من يومها عبدالرازق بركات الشيخ رزق بركة، وبدأ يدخل علي الرئيس غرفة نومه يقرأ فيها قرآنا ويتلو شعائر لا نفهمها، وصار هو الوحيد الذي يمكن أن ينصح الرئيس، بما يريد وكان متخصصا في تفسير أحلام الرئيس وكان طبعاً يأتي في أي موعد للحراسة ويمشي في أي موعد لهذا كان يوم عيد ميلادي طبيعياً للغاية أن يدعه رئيس الحراس يحل مكاني بعد أن وصل، لكنه بعد أكثر من ساعتين زهق فمشي فخشي رئيسي أن يحاسبه أحد علي نقص العدد فقرر استدعائي مرة أخري.. واختفي الشيخ رزق من يومها ربما حتي الآن.

صرخت ريتا:

- إذن هو الذي قتل الرئيس.. لقد دخل غرفته ليلتها وانصرف قبل نهاية خدمته واختفي.

قامت من مكانها مفزوعة ومضطربة ومستثارة تماما:

- كيف تركوه يفلت بفعلته؟!.. كيف لم يظهر ذلك في أي ملف لأي جهاز؟.. هذه مؤامرة.

كان يوسف يشعر أن ثمة شيئا غامضاً كاسحاً في كل ما يسمعه، وأحس تماما كما يشعر أحدنا وماء البحر يدخل فمه، لكن الوحيد الذي كان متماسكا وصلبا هو سعد سالم الذي ثقب نظره وجه يوسف طالبا منه أن يهدئ الدكتورة ريتا.. فلم يستجب يوسف ولعله لم يفهم فصرخ سعد:

- اهدئي من فضلك يا دكتورة «الشيخ رزق لا قتل ولا نيلة».. بدليل أن الرئيس خرج من غرفته بعد رحيل الشيخ رزق وسألني أنا واثنين من زملائنا:

- أمال الشيخ رزق راح فين؟!

٢٥

عندما أخبره مدير جهاز الأمن الوطني اقتحمه فيروس يخرب موتور السياسي داخله فخرج عن شعوره وتمتم:

- يعني نتخلص من رئيس لم يكن أحد يعتقد أنه سيموت أبدا ليأتي رئيس نعتقد كل يوم أنه سيموت صباح الغد.

ثم عاد هو لشعوره مخافة ألا يعود شعوره إليه.. لكن كلمات وزير الإعلام الفالتة خربشت في أذن مدير الجهاز الذي أدرك أن الموضوع لابد له من ستارة غموض كثيفة ومحجوبة.. طلب من وزير الإعلام أن يأتي بسرعة إلي المستشفي العسكري لوضع ضوابط كابحة حيث يمكن لكل صواميل النظام أن تنفك الآن.

كانت ليلة مراوغة وثعلبية الهوي بدأت بانشراح وزير الحرب ورضاه وصفاء ذهنه وتوقد مشاعره ومداعباته لضباطه ومسامراته مع مسئوليه واستقبال وفود متأخرة في ساعة متأخرة من الليل في مكتبه الذي ألحق به غرفة منامه ومعيشته منذ قرار ترشيحه رئيساً وحين مضي الوفد إلي حال سبيله، طلب وزير الحرب كوبا من النعناع وأشعل سيجاره الكوبي

الفخيم الذي لا يشعله إلا في لحظات انتشاء نادرة وعزيزة وعاد بمقعده إلي الخلف واهتز به ودار قليلا ثم لف دورة كاملة فأعطي ظهره لمن يدخل وهجع بيده علي مسند المقعد العالي.. دخان السيجار يحوم حول رأسه في دائرة لا تكتمل ولا تستقر أبدا، دخل ضابطه، بكوب النعناع وحيا وزيره الذي استغرقه تفكيره في غيمة وعي عن ضابطه، وضع الضابط كوب النعناع ومضي خارجاً لكن حشرجة خفيفة خفيضة استوقفته فتمهل في سيره وعدل وجهته وعكس اتجاهه ومشي نحو الوزير الذي لم يكن باديا منه سوي ظهره. كفه اليسري بارز منها سيجار يتبختر دخانه في دعة من تركه ينطفئ، همس ثم علا صوته:

- سيادة الرئيس.. سيادة الرئيس.

ثم تجرأ فاقتحم الفضاء المحيط بوزير الحرب فإذا بوجه الضابط يمتقع وتكاد ملامحه تذوي علي وجهه.. أسرع مندفعا نحو زر الإنذار العاتي فضغط عليه فانطلقت فهود من مكانها تبحث عن المصيبة التي انحدفت عليها.. كان مكتب وزير الحرب قد امتلأ تكدساً بالضباط الساهرين اليقظي.. وكان كبير ضباطهم يطلب سيارة إسعاف فائقة التجهيز لنقل وزير الحرب إلي المستشفي العسكري.

وصل وزير الإعلام حيث كان ينتظره مدير الجهاز الوطني ووقفا مع عدد من كبار قادة وزير الحرب أمام النافذة الزجاجية المطلة علي غرفة العناية المركزة التي ينام فيها وزير الحرب، وقد هدأ تنفسه الآن، وانتظمت دقات قلبه، وبرح

الخطر مكانه وبدأ يستعيد وعيه بانتظام لكن ابتلال تفكيره بالعجز واعتلال عقله عن اتخاذ قرار جعله يستشعر في استسلامه للرقود سلاماً من غزو أفكار سوء لا قبل لصحته بها في تلك الساعة النحسة.. كان يعرف – لعله لم يعد يعرف سوي ذلك- أنه بعد ساعات قليلة سوف تفتح أبواب لجان الاستفتاء لتعميده رئيسا للبلاد.

وهو هنا قعيد أسلاك في فمه وعند رسغيه ومحاليل موضوعة في عروقه، ورداء بلا كنه، أبيض، مفتوح الظهر، مربوطة فتحاته بأربطة مثل فيونكات البنات الصغيرات، بينما عري ظهره ومؤخرته وساقيه مفضوح في ذلك الرداء، فأي رئيس يقبل منصبه في عُري الختان هذا.. أحس وجع قلبه يضرب في وجع كبريائه وكان يظن أن شرايينه الجديدة سوف تصمد أكثر مما هو بائن.

قال وزير الإعلام هامساً:

- والحل الآن.. اللجان بعد ساعات.. ثم لابد من تصويره وهو يدلي بصوته في لجنته الانتخابية حيث تنتظره كل وكالات الأنباء.

لاحقه مدير الجهاز بالهمس ذاته.

- وأظن أنه لابد من إدلائه بتصريحات للصحفيين بعد خروجه من اللجنة.

أومأ برأسه.

– قطعـــاً.. فضلا عن أنه لابد أيضا أن يمر علي أكثر من لجـــنة انتخابية مختارة بعناية كي يحاور المواطنين، ويبدو في مـــنظر الســـاعي إلـــي أن يحـــوز أصواتهم، وقد أعددنا فرقا للموســـيقي وأطفالا بالأعلام وبنات بالورد وعددا من الوزراء لانتظاره في كل لجنة مختارة للتصوير.

قال مدير الجهاز:

– يارب لم نفرغ من مصيبة حتي تأتي غيرها.

ثـــم استدار ونادي علي أحد معاونيه وأملاه بعض الأوامر ثـــم التفـــت لمـــا انصرف معاونه وطلب من كبير قادة وزارة الحرب استدعاء مدير المستشفي وخبراء القلب لديه ولو استلزم الأمر إحضارهم بالدبابات، لكن كبير القادة قال له بحزم:

– كلهـــم هـــنا.. لم نترك واحداً في بيته منذ عرفنا بحال الرئيس.

ابتســـم وزير الإعلام في سره فقد صادفته الدبابات في كل رقعة يعبر إليها في العاصمة حتي إن الدبابات كانت تتجول في إشـــارات المرور شأن السيارات العادية ولا ينسي المشهد الذي صـــوره أحـــد مصـــوري وكالات الأنباء مما اضطر إلي منع الصـــحف التي نشرت الصور من دخول البلاد. كانت الصورة عـــبارة عـــن دبابة واقفة في إشارة مرور وبجوار عربة كارو يجـــرها حمار عجوز وعلي مقدمة العربة يجلس عربجي حاله أكثر سوءا من حماره، لقد كان الجنود يجلسون علي الأرصفة مـــن ميدان لآخر، يحتسون الشاي، ويجوبون الطرق، ويدخلون

ويخرجون من المباني واختفي ضباط المرور وعسكر الداخلية واقتحم أزيز مراوح الهليكوبتر سماوات وفضاءات كثيرة طيلة الأيـــام الماضية، وقد اتخذت أوامر بإقلاع طائرات حربية علي مســـتوي منخفض فوق سماء البلاد وخاصة في العاصمة، وقد لعبـــت أعـــداد من الطائرات ألعاباً بهلوانية في السماء بألوان وأطياف كانت فرجة فرحة للمواطنين.. كان المطلوب ألا يكون الأمـــر كلـــه استعراضا للقوة لبث الرهبة بقدر ما كان مرغوبا أحـــيانا أن يكـــون عرضـــا للحب والمودة التي تربط البنادق بالفنادق، المدافع بالجوامع.

بعـــد لحظـــات بـــدأ اجتماع خفي حفي بقضية تمكين قيام الرئيس بأداء مسئوليات ومهام يوم الاستفتاء دون أن يظهر في حالة إجهاد وتعب، أو دون إعلان اعتلال صحته أو تسرب هذه الشائعات كالعادة.

أحد الأطباء الخبراء أعلن صعوبة المغامرة والموافقة علي قيام الرئيس بأي مجهود يجهده ويؤزم من حالته التي تحتاج إلي راحة لا تقل عن أسبوع لا يقوم فيها بأي من متطلبات منصبه، وأن يبتعد عن أي توتر عصبي أو نفسي.

تـــبادل مديـــر الجهـــاز مع كبير القادة مع وزير الإعلام نظرات اتهام هذا الطبيب بالجنون قال مدير الجهاز:

– لنكن واضحين ومحددين، نحن هنا من أجلِ خلق إمكانية لا غني عنها ولا بديل لها في ظهور الرئيس غداً، غدا إيه بعد ســـاعتين ثـــلاث أمام لجنة الاستفتاء وأن يزور أيضا أكثر من

لجـنة فـي جو احتفالي.. هذا كلام لامناقشة فيه، المناقشة في كيفية عمل ذلك.. فأرجو أن تتجاوزوا معنا نقطة إظهار الخطر وندخل في الموضوع.

عاد نفس الطبيب للكلام واستبان الآن مدير الجهاز ملامحه كان أحد علامات الطب في البلاد وأستاذاً كبيراً له مراكز لطب الحالات الحرجة باسمه في مستشفيات كثيرة.. قال بثقة تغيظ:

- أظـن أن هـناك شخصـيات تحمل نفس شبه الرئيس وملامحـه.. يمكنها أن تقوم بمهمة الظهور أمام الكاميرات مع بعض الحيل الصغيرة وندع الرجل في راحته القلبية.

تعامل مدير الجهاز مع هذا الاقتراح باستخفاف فقال:

- لاتكثر يا دكتور من مشاهدة الأفلام البوليسية بعد مواعيد العيادة.

قال الطبيب بشجاعة عدم معرفة من المتحدث أمامه:

- إذن علينا أن نعترف أن الأفلام البوليسية أكثر تقدما من أجهزتنا الوطنية.

اشـتعل توتر في سقف الحجرة، خفف منه وزير الإعلام حين قال:

- طيب نسمع آراء بعض الإخوة معنا من الأطباء.

قال مدير المستشفي:

- في الحقيقة الوضع طبيا يختلف عن الوضع سياسيا تماما ولازم نعـرف الآن من سيدير هذه الأزمة.. الطب أم السياسة؟ تدخل كبير قادة وزارة الحرب حازماً:

- السياسة

وتدخل وزير الإعلام ملطفاً:

- بمســاعدة الطب طبعا ودون أن نستطيع الاستغناء عنه أبداً.

وثـب الصـمت علي المكان في انتظار من يحسم الأمر وينـتقل إلـي الحل. انبري أصغر أطباء المستشفي العسكري الموجوديـن بالمكان.. قال مستغلا فراغا من الصمت سمح له بالولوج إلي آذان الواقفين:

- إذن الحـل فـي سـيارة إسـعاف فائقة التجهيز. يعني الموجودة لدينا مع تزويدها بأجهزة طبية تجعل منها في مستوي العـناية المركزة، ثم وجود فريق طبي كامل في السيارة وفي نفس التوقيت هناك سيارة أخري مفتوحة علي سيارة الإسعاف بحيـث ينتقل منها كرسي متحرك حاملاً الرئيس حيث يرتدي ملابســه فـي السـيارة الأخـري التي ينزل منها أمام الناس والمصورين.

كـان أول مـن تفـاعل مـع الاقتراح مدير الجهاز الذي استفسر.

- طيـب وهل معقول يبقي فيه سيارة إسعاف في موكب رئيس؟!

رد الطبيب الشاب:

- لا.. لـيس معقـولا.. لذلـك يجـب ركوب الإسعاف داخـل شـاحنة عسـكرية وجودهـا فـي موكب الرئيس مع

هـذه الظـروف التي نحياها أمر أكثر عادية من ظهور عربة إسعاف.

أضاف وزير الإعلام:

- حل رائع.. لكن ماذا عن الرئيس نفسه؟

رد الطبيب الشاب وكأن لديه حلا لكل شيء.. يشغل مخه في انتعاش وألق.

- أظن أن الرئيس مقاتل، بمجرد معرفته خطورة الوضع سـوف يـتقوي ويتحامل علي نفسه، وبقي عليكم الإسراع بكل خطوات التصويت والتصريحات حتي لانثقل عليه.

وجد مدير المستشفي نفسه في حالة من لابد له أن يتدخل، فالأضـواء كلها سرقها طبيب شاب طموح وخياله متربي علي ألعاب الكمبيوتر.

- فـي هـذه الحالة أقترح أن يكون هناك عدد ضخم من الجماهـير يهـتف ويعلـو صوته ليغطي علي ضعف صوت الرئيس ويقاطعه بما يسمح له بالتقاط أنفاسه..

قـال الطبيب الشاب كأنه يصر علي القفز من الطائرة بلا مظلة.

- ويستحسـن أن يراجع السيد وزير الإعلام بنفسه صورة الرئـيس علي الشاشة وفي الصور الصحفية التي سيتم التقاطها حتي لاتنم عن أي تعب أو إجهاد ولمزيد من الحيطة والاستعداد مـن الضـروري وجـود سيارة إسعاف أخري متوفرة بذات المواصفات للطوارىء أو الأمور غير المتوقعة.

قـرر مديـر الجهاز أن يركب فوق ثور الأحداث الهائج ويحاول أن يروضه فتمثل كل مهام وظيفته وبدأ في التلقين.

- أمامـنا مـن ثـلاث إلي أربع ساعات لاتخاذ كل هذه الإجـراءات والاحتـياطات، سـيكون طبيبنا الشاب هو حلقة الوصل بين الفريق الطبي والفريق الأمني، سيتم اختيار الفريق الطبـي بمعرفة السيد اللواء مدير المستشفي، سنعتبر ما يجري في هذه الحجرة سرا من أسرار الأمن الوطني وأن أي تسريب لمـا يجري إذاعة لأسرار عليا، ومن ثم يخضع الذي سربها أو أذاعهـا أو أشـار لهـا أو أكدها للإجراءات القانونية التي يتم اتخاذها ضد الجواسيس من خونة الوطن، وإذا انتهي اليوم علي سـلام فلا أريد لأي منكم أن يحدث الآخر في هذا الموضوع، وبطبيعة الحال التعامل مع السيد الرئيس وكأن الأمر لم يحدث أساسا.

حيـن بـدأ الجمـع في الانفكاك والانفضاض بدأ الطبيب الشـهير يـتكلم كأنـه يحاور نفسه وبعد بدايات الكلمات أفاق الضابط والمسئولون والأطباء علي ما يقوله:

- حسـنا أنـتم تـريدون له أن يصـوت اليوم في لجان الانـتخابات كي يفوز بمنصب قد لاتسعفه صحته علي أن يري نفسه فيه، وأنتم تعجلون بذلك اليوم، فليس هناك أمل في إقناعكم الآن.. لكـن دعونـي أتحدث معه لعلي أقنعه أن يختار حياته ويفضلها علي منصبه.

نهره مدير الجهاز بعيونه ثم بصوته.

- الأمر لايتحمل هذا الخرف.

لكن كبير قادة وزارة الحرب أطرق للطبيب والتفت لزملائه ثم قال:

- أمامك عشر دقائق يا دكتور.

دخل الطبيب متوجساً ومهموماً إلي العناية المركزة حيث تلاحقه العيون المزدحمة والمتكالبة من وراء الزجاج، بينما وزير الحرب يضمر تحت أجهزة التنفس وتحدق نظراته في السقف باحثة عن منفذ للسماء، تتوالي أمامه سماوات زرقاء بنجومها البهية في صحراء المواقع العسكرية، أو غيطان قريته البعيدة، وسماوات البلاد الغريبة التي سافر إليها.. والسحب تطل عليها الطائرة التي يركبها، سحب من اللون الأبيض المنفوش والرمادية الملفوفة وزرقة السماء المخبأة، والأرض المحجوبة، كان يشعر أنه يجلس في مقعد في طائرة تحلق فوق أطنان من القطن وغزل البنات وقطع الإسفنج وفلين الكراتين، كانت روحه مسحوبة وإرادته مع ما تبقي من هزال جسده حين همس الطبيب الذي أدرك ملامحه المقتربة منه بوضوح.

- كيف أنت الآن يا سيدي؟

رد الوزير بتماسك

- الحمد لله.. بخير

في هدوء حكيم قال الطبيب:

- الإخوة في الخارج يريدون أن يأخذوا سيادتك إلي لجان الانتخابات وهم يستعدون بسيارات إسعاف مجهزة وفائقة القدرة

والتكنولوجيا، ليكن اعتبارها مستشفي مصغرا أو غرفة عناية مركزة صغيرة.

رد بوهن.. عظيم

قال الطبيب:

- لكنني بوصفي الطبيب المعالج لا أري الأمر عظيما، والموضوع فيه خطورة علي صحتك وعلي حياتك.

- الأعمار بيد الله يا دكتور.

- صحيح الأعمار بيد الله، لكن منعك من الإجهاد والتوتر وقتل نفسك بيدي أنا.. وبيدك.

رفع الوزير من صوته وأشاع حيوية مصنوعة علي كلامه.

- أنا جندي وسأدخل المعركة

تنبه الطبيب إلي أنه يصرخ غضبا فهدأ وهو يواصل كلامه.

- معركة إيه.. كلنا نعرف أن ما يريدونك له الآن مجرد استكمال الصورة، إنهم يعملون حسابات كثيرة إلا حساب موتك أو حياتك، ثم إن الانتخابات معروفة نتيجتها سلفا يا سيادة الرئيس.. نحن من هذه البلاد ونفهم.. هذا الكلام يخيل علي الأطباء الأمريكان أو الأوروبيين علي شاشة التليفزيون وستعلن النتائج وستفوز بالرئاسة ولن يستطيع أي شخص خارج هذه الغرفة أن يمنعك.

ضحك الوزير.

- هــل تعــتقد أننــــي أريد أن أخرج وأكمل التمثيلية حتي لاينصــرف الناس من الانتخابات؟ إن هذا هزل يا دكتور، أنا أريـد أن أخــرج حتي أثبت دعائم سلطتي، لو لم أخرج اليوم لـنهش في جسدي الجميع، وطمع في رئاستي القريب والبعيد والعسكري والمدني.

إننــي لســت زعيماً ولا تاريخ لي فاتركني أصنع حاضراً ومستقبلاً، ثم كيف أفرط في ملك منحني الله إياه.. لقد اختارني الله لهـذه المهمــة لحكمة هو يعلمها وأنا أنفذها. ثم هل تعرف معنـــي أن يكــون مقعد السلطة الذي نمت تحت حوافره طيلة عمــرك تحــت أمرك؟ هل تعرف معني النفوذ والسلطان؟ هل تــدرك معنـــي أن يكون أبناؤك أبناء للرئيس وفخامة وغلاوة وعظمـــة وألوهية هذا العرش، ربما لا يكون أي منا جديراً به، لكن ليس هناك أحد أجدر مني به، سأقوم من سريري يا طبيبي، لأنني لو لم أقم منه اليوم فلن أقوم منه أبداً، كما أنني لا أضمن ولا أطمئن إذا ما تراجعت ماذا سيفعل بي من يأتي بديلاً عني! دعنـــي يا دكتور إن صحتي بمب وسأظل أحكم هذا البلد حتي يشــيب أولادك.. ومـــن المحتمل أن أسجنك مدي الحياة حتي لاتذيع ما قلته لك الآن..

ابتسم دون أن يعرف هو ولا الدكتور هل يهزل حين ذكر السجن، أم أنه جاد فيه!

خرج الطبيب من الغرفة ناظراً إليهم جميعاً ثم أمعن تأمله في الطبيب الشاب وقال مخاطباً إياه:

- إنك لست موهوباً في الطب فقط يا بني، بل موهوب في السياســة تمامــاً ومن الصعب جداً أن تجمع بين مهنة أساسها عــلاج الناس ومهمنة أساسها خداع الناس، من اليوم ابحث لك عــن أســتاذ غــيري أو مهنة غير الطب، ثم تحول إلي مدير الجهاز وأومأ برأسه.

- إنه ينتظر بالداخل ومستعد للخروج معكم.

فـــي المساء.. كان كل شيء قد تم إنجازه علي خير وجه، وبــدا وزيــر الحــرب مــتألق الوجه، باشا وهو يدلي بصوته الانتخابي، وشاهد الناس كل ما يجب أن يشاهدوه بنفس الطريقة التي تم التخطيط كي يشاهدوه عليها وفيما عدا أن وزير الحرب كــاد يســقط مرتيــن مغشــيا علــيه، في ذهابه وإيابه للجان الانــتخابات، وفيما عدا أنه وضع تحت جهاز التنفس في نهاية الليل حوالي ست ساعات.. فلا شيء عكر خطة الطبيب الشاب وظل الرئيس حياً.

٢٦

وصـــل دكـــتور يوسف مع ريتا إلي الحي الأثري القديم، ابتسم لها وقال:

إن عمـــر بيـــت واحد هنا أطول عمرا من تاريخ الولايات المتحدة.

ردت في برود:

- إنها قسمة عادلة إذن، الماضي لكم والحاضر لأمريكا ماذا إذن عن المستقبل.. من يملكه؟

قـــال يوسف وهو يتحاشي الاصطدام بالعابرين في الأزقة الضيقة.

- أفضل ما يفعله المستقبل ألا يأتي.. فالحقيقة أن أفضل ما فعله الماضي أنه مضي.

أمسكت بيده حتي لايفلتا من بعضهما في قلب فوج سياحي قادم نحوهما يشق تقاربهما.. عبر الفوج فتنهدت ريتا لما رأت الزحام خف والأضواء الكهربائية تبزغ من البيوت والحوانيت.. قالت:

- ألست قلقا بشأن فقدان أي اتصال بأي مسئول سواء هنا أو هناك.. أكاد أشعر أنهم نسونا ونسوا مهمتنا.

ابتسم يوسف

- إننا مشغولون بدفن الميت وهم مشغولون بتوزيع الإرث، فالأمر طبيعي لاغرابة فيه.. ثم قلت لك إنهم غير مهتمين أساسا.

قالت ريتا بحماس بالغ:

- أحسن.. حتي تنزل الحقيقة فوق دماغهم كالصاعقة، إن ظهور الشيخ رزق سوف يفك طلاسم هذه القضية ولاشك.

قال يوسف ببرود يفوق بروده السابق:

- أتعشم.. وأشك.

ردت عليه ريتا وهي تعلق نظراتها علي قباب مساجد وبوابات جوامع.

- أما العشم فتشكر عليه.. أما الشك فليس بجديد عليك.

ثم وقفت أمام بوابة مسجد.

- أتعرف أن هذه البوابة هي نفسها بوابة كنيسة تم نزعها منا في العصر الإسلامي ووضعوها في مدخل هذا المسجد.

هز يوسف رأسه موافقا وأضاف:

- حدث مثل هذا كثيرا جدا، وحدث نفسه في الأندلس لما سقطت الدولة الإسلامية، الجوامع تحولت إلي كنائس بقدرة قادر.

وافقته ريتا.

- إنها طبائع الاستكبار وليست طبائع الأديان.

كان سعد سالم قد قال لهما علي أن يبقي الأمر سرا إن جهرا به نفاه وإن أكداه فلن يحصد شر ذلك إلاهما وربما بأرواحهما، إن الشيخ رزق في تكية ما في حي إمام المسلمين، ولأن هناك عشرات التكايا التي يحتلها الصوفيون حين استقرت شوكتهم بانضمام زعامات تائبة من ذوي التاريخ المسلح في العنف الديني، لم يعد مسموحا لأي من الحكومات أن تقتحم التكايا التي اكتظت بالمريدين من كل جنس وصنف، وأن مظاهراتهم الدينية حتي مسجد الإمام وتجمعاتهم في مولد النبي صلي الله عليه وسلم وفي الليلة الأولي من شهر رمضان وليلة القدر قد تجاوزت مليونا من البشر في مناسبة من المناسبات وأنهم يرسلون رضاهم عن الرئيس والحكومة في كل تجمع ويدعون لهما بالبقاء والصلاح، وقد شاهد أحدهم مرة الشيخ رزق في مرواحه وغداته لهذه التكايا وأنه اتخذ شيخا هناك إماما له وأميرا بايعه مع مريديه، وأنهم يعتكفون ليالي طوالا لا يأكلون فيها إلا التمر والحليب ويخلطون تلاوتهم وتراتيلهم بالحزن والنحيب، وقد شبت معارك شتي بينهم وبين أنصار السنة، وأخري بينهم وبين فرق الشيعة، وانتصروا في المعارك بحبهم البالغ للنبي (صلي الله عليه وسلم) وزهدهم في الدنيا وما فيها.

وقد أنفق يوسف وريتا أسبوعا بالكامل يتلصصون علي سيرة الشيخ رزق في هذا الحي ودخلوا التكايا كلها حيث لايصد

أحد أحدا إلا لو كان من الشرطة أو مثيري الشغب، ورأوا التكايا التي اكتظت بالبشر مهللين ومكبرين في أردية بيضاء وأوشحة خضراء وغناء رائع بطبول ودفوف تقطع القلب من حلاوتها ورطوبة قلبها، وتري الوجوه فعلا عليها صفاء ما وورع حقيقي وسمو رباني، والأبخرة تمخر في الأسقف والوشوش باشة محلقة، والرؤوس حليقة تميل إلي اليمين وإلي اليسار، وراقصى التنورة بشعورهم النسائية الطويلة والخشنة يلفون بها رقصا وهياما وهي تضرب الجو بأجنحة من زرقة وخضرة مع أنغام منضبطة ودافقة في حسيتها، وجسدية تماما.

انسابت ريتا في طقوس الاقتراب من الله ووجد يوسف راحة ما في الاحتشاد لليالي طويلة في دفء مثل هذه الحلقات والدوائر، وبات مأخوذا بالذهاب الروحاني في تحليقات جسدية مطوية علي غريزة مروضة حفية بالحياة، رغم زهدها الماثل، كان شراب الشاي هو الوحيد السائد في التكايا بفناجينه الصغيرة دقيقة الحواف خشنة الملمس، ولم يكن هناك إلا عسل النحل وسيلة لتحليته بدلا من السكر، وقد امتلأت التكايا كذلك بزروع من نعناع مطلوق في كل مكان، سواء عند حلبات الغناء والدروشة، أو في مداخل التكايا، علي أسوارها العالية، حتي زرع في قلب الجداريات كالنقش الحي الأخضر علي سطوحها.

مالت عليه ريتا وقد أغرقها العرق بعد احتدام راقص مدو بالتحليق إلي فراغ الروح من تمتمتها وتعقدها.. قالت ريتا وهي تنهج:

– لم تسألني أبدا يا يوسف من أنا؟

كان يوسف قد مدد ساقيه ووضع إبريقا من الشاي الأخضر في كفيه، كلما عبر شخص مد له يده بالإبريق فأخرج الآخر فنجانه فصب فيه يوسف الشاي وعاد الإبريق إلي حضنه، قال يوسف.

– الحيرة موجودة طبعا والسؤال من أنت لم يبرح ذهني.. لكن قلبي تتبع خطوات روحك، فلم أكن أعرف إلا ما أراه لكنني أخشي ما لم أعرفه.

في هيام باللحظة حتي انخلاع القلب وجداً قالت:

– أمن الممكن أن لقاءنا في زحام هذه الأحداث الأسطورية وفي مصادفة إلقائنا من سفينة فضاء إلي أرض، فقدنا فيها المعرفة، وفقدنا عليها الاتصال بسفينة الفضاء. أمن الممكن أن يكون هذا مبررا للقرب لهذا الإحساس المهووس بحنان مغمور تجاه هذا المكان.. إحساس حسي له دفق النشوة وهيجان السحر:

قال يوسف وهو يسقي رجلا شابا:

– أنت سيدة مشتعلة بالمشاعر، تستولد فيها كلما خطوت قدما تدارين بعنفك المصطنع ورجولتك المؤلفة ضعف امرأة في قلب عاصفة.

قالت ريتا:

– أوتدري يا يوسف، إنني رأيت في حياتي ما أشك أنني أتوهمه، إن جدي كان مصريا، طبيبا مصريا قبطيا سافر من

القاهرة إلي لندن لاستكمال دراسته العليا في الطب، وتعرف هناك علي طالبة فرنسية تدرس الفيزيقا، تزوجا وبعد عامين سافرا إلي أمريكا، فإذا بالسفر يتحول إلي إقامة دائمة، انجبا هناك والدي وماتا معا في يوم واحد ولحظة واحدة ودونما حادثة ولاكارثة، ناما علي سرير واحد، وماتا عن عمر طويل من الركض في الحياة والبحث عن معني، والدي اشتغل طبيبا هو الآخر، تعرف علي فتاة سورية كانت تدرس في أمريكا، تزوجا وبعد فترة من الزواج جئت أنا.. وإذا بأبي وأمي يموتان معا بنفس طريقة الجد والجدة، لكن هذه المرة عن عمر في الأربعين، فأخذتني الأيدي وتلقفتني الأسر، فنشأت علي البحث عن هوية وعالم أنتمي إليه، وألقيت بنفسي علي أصل جدي وروح أمي، علي الشرق، درست آثار الشرق الأوسط، زرت مصر ثلاثين مرة تقريبا، سكنت في دار السلام وإمبابة غالبا. تكلمت العربية والعامية المصرية كما تنطق بها بائعات السمك، كتبت كتبا ورسائل في السياسة عن الشرق الأوسط، خضت معارك ضد الصهيونية والتعصب والتفرقة العنصرية. تعرفت علي رجل أمريكي كان غرامي به خرافيا، كان ضابطا في الشرطة ملتزما وأمينا ومحبا لي، وحينما تم الاعتداء علي شخص أمريكي أسود وتعذيبه كان مسجونا متهما في جريمة ما، تعذيب الشرطة له أدي إلي قتله، إذا بالاتهام يطول زوجي مع مجموعة من الضباط، وإذا بي أعرف لأول مرة أنني تزوجت عنصريا غليظا عنيفا، فقدت المظاهرات وتقدمت

المسيرات مطالبة بتقديمه مع زملائه إلي المحكمة، وكنت حديث المجتمع الأمريكي كله بإعلامه وجنونه بالحياة الخاصة، اليمين جعل مني نموذجا للزوجة الخائنة، واليسار جعل مني شهيدة المثل العليا.. أما أنا فقد انكسر قلبي من يومها وعلا اسمي وبزغ نجمي دخلت علاقات مشوهة، وسافرت وتعبت وأرهقت وتعالجت نفسيا.. ثم لاشيء، نموذج لخليط من حضارات الشرق والغرب، العرب وأوروبا، أمريكا والعالم الثالث، البيض والصفر والسود. بالمناسبة بعد الحكم علي زوجي وطلاقي، فكل الذين دخلت معهم علاقات كانوا من السود أو ماشابه. طول الوقت في اهتمامي بالشرق الأوسط في نومي مع السود، أطارد عقدة ذنب غريب وعات.

اندلعت دفوف بأكف مترعة بالنشوة فلدغت ريتا بالجنون قامت واندفعت واندمجت في رقص محموم مع صفوف من رجال بدأوا في غمرة التفقير فاقدي الصلة بالعالم، يوسف فوجئ برجل ملتح لحية طويلة كثيفة لكنها ليست منفرة أو مشعثة ويرتدي جلبابا أبيض وشالا أخضر ويلف رأسه بعمامة بنية حولها وشاح أبيض ملفوف بعناية، هذا الرجل يمسك بيد ريتا المذهولة المأخوذة، ويقتربان منه وهو جالس بلا حركة.. همست ريتا فلم يسمعها، ابتسم الرجل بوسع فمه وبوسامة فطنة وقال:

– إنها تخبرك بأنني الشيخ رزق بركة.

٢٧

قادهمـــا إلـــي فـــناء خلفي للتكية، خرجوا إلي ممر ضيق وقصير ومسور بالحجارة إلي منزل بدرجات سلم شديدة الضيق حتي الاحتكاك والتعثر، ثم يصعدون إلي سلالم ملتوية صخرية ذات نـــتوءات حادة، وصلوا إلي سطح مشرق بأضواء شعلات من النار المحاطة بأسيجة قصيرة من نحاس، ومثبتة علي أعمدة فـــي قلب مربعات السطح، السطح نفسه بلا سور، لكن تستدير مع دورانه أشجار قصيرة متشابكة ونباتات متسلقة، جلسوا علي ســجاجيد وأكلمـــة ذات ألوان فاقعة في زهوها كان جسد رزق لايزال علي عسكرية تفصيله، ورياضية تكوينه، يبدوأكثر نحافة داخـــل الجلـــباب الفضفاض، وكانت بشرته الخمرية تتوهج في انعكاســـات حمرة النار المشتعلة وعيونه لامعة بتلك الشعلات المهتزة داخلها من استقرار نظره علي النار في طقطقتها وأكلها فحما أو خشبا.. قال بصوته الخشن الآمر:

- حسنا.. وصلتما أخيرا.

قال يوسف - نحن لم نصل- أنت الذي عثرت علينا.

ابتســم رزق - لقد أغواكم المقام في الحي وأغراكم صفاء التكايا حتي كدتما تبلغان نسيانى فقلت أذكركما بنفسي.
اندفعت ريتا وقد انجذبت إليه علي نحو مراهق ومفضوح.
- كيف وجدتنا؟
- لــيس صعبا العثور علي خواجاية رائعة الحسن وأفندي في هذا الجو، خصوصا أنتما لم تبذلا جهدا في إخفاء نفسيكما، كما سألتما طوب الأرض عني.
في هدوء العارف بمشقة تلمس الحقيقة:
- أنت تعرف طبعا من نحن و لماذا جئنا؟
رد رزق وقــد انسحبت تماما كل تصوراتهما عن دروشته وسذاجته وجنونه المنزلق في حكايات سعد سالم.
- مــن أنتما بالتحديد لا أعرف.. أما لماذا جئتما فواضح لأنكمــا اللذين حاولتما البحث عن الحقيقة فعلا فقادتكما الحقيقة إلي هنا.
قال يوسف:
- كنت أتوقع ملاقاة درويش مجذوب ملتاع يهذي بالكلمات ويخرف بالحقيقة.
تداخلت مشاعر ريتا مع حماسها.
- فوجدنا فارسا.
ابتسم رزق وقد بدا ملكا في هذا السطح الغرائبي الموحش مثيرا وغامضا.

- الكــل قرر ألا يعرف فلماذا تصران علي ارتكاب بلاهة معرفة الحقيقة.. الرجل لم يكن يستأهل أن يريق أحد دمه عليه ولا علي حقيقة من قتله!
همست ريتا كأن صوتها يرمي بنفسه من السطح:
- هل تعتقد أن هناك خطرا علي حياتنا لأننا نحاول معرفة القاتل؟
أضاف يوسف:
- أو لأننا عرفناه!
رد رزق في لهجة بريئة فيها رنة شفقة:
- لا أستطيع أن أقول إن هناك خطرا علي حياتكما.. لأن ذلــك إما أن يكون معناه تحذيرا أو تهديدا.. ولا قدرة لي علي الاثنين.
قالــت ريــتا وهــي تحــاول أن تطرد عنها حرارة النار الراقصة التي دبت في بدنها:
- هل تتوقع أننا سوف نوجه لك تهمة قتل الرئيس؟
ضحك فظهر الفلاح من حنجرته.
- تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه.
أمسك يوسف بعنق كلماته.
- هذا معناه اعتراف صريح بأنك قتلته.
تحســس رزق موضع الخشونة في نتوءات كلام يوسف.. قال:
- هذا معناه اعتراف صريح مني بأن قتله ليس جريمة.

رد يوسف حازما يشم منازلة محمومة تقرع فيها السيوف الصوارم.

– علي حد علمي كرجل قانون أن القتل لايزال جريمة وأن محاكمنا تقضي بإعدام القاتل أو سجنه مؤبدا.

منازلة مؤمن بقضية أمر ليس سهلا علي الإطلاق.. كان رزق يثبت ذلك ليوسف.. قال:

– ساعة واحدة تفصل بين أن يكون صاحب الانقلاب بطلا زعيم ثورة ورئيس أمة، أو يكون خائنا وعميلا وسجينا ومعدوما.. ماذا يقول قانونك عن هذه الساعة يا دكتور؟

لما صمت يوسف أكمل رزق.

– بالمناسبة هنا في التكايا أساتذة قانون مثلك وربما أساتذتك وأطباء وعلماء ذرة ومهندسون وفنانون.. لسنا هنا مجموعة من الصبية المغرر بهم أو دراويش مغمورة عقولهم في التفقير والنواح.. إن مدنا بالكامل تدار من تحت أرض هذه التكايا، عالم بكل تفاصيله غارق حتي الثمالة في البحث عن حل لتعقد روحه.

عادت نبرة التحدي ليوسف:

– هذه صوفية جديدة.. تقتل وتحكم هذه الأيام!

ضحك رزق ساخطا:

– أو هناك كمثري مثل كمثري زمان، إن بها بعض الطعم، بعض الشكل، لكنها لم تعد تلك الكمثري التي تجنيها من علي الشجر، هل الفراولة لها ذات الشكل والطعم القديم، حتي

الخيار يا رجل.. جينات الفواكه والخضار تغيرت، فلماذا تستكثر علي الأفكار أن تغير جيناتها.. إنها صوفية مهجنة، أو ليست صوفية علي الإطلاق وما يضيرك من الاسم.

ثم التفت إلي ريتا وقال لها برقة:

– إنك تلاقين واحدا قصيرا وأصفر وعينه ضيقة.. يطلع إنه شخص أمريكي.

وقطع جملته وأقحم فيها الأخري مباشرة.

– إلا مكربي دي يا دكتورة يعني مغربي بالعربي.

صفقت بيدها مستثارة تروي بئر حرمانها بحماس العذاري.

– فعلا.. كيف عرفت؟

ثم التفتت إلي يوسف.

– جدي فعلا اسمه إدوار مغربي.

ضحك رزق وقال ليوسف مشيرا لريتا:

– أهوه يا سيدي.. مسيحي من الشام اسمه مغربي ويعيش في مصر.

تنهد يوسف وهو يري يد ريتا تنسحب من إناء قضيتهما.

– نهايته.. كيف كانت طبيعة علاقتك بالرئيس إلي الحد الذي كنت الوحيد المتاح له دخول غرفة نومه.. وموضع ثقته؟

تراجع رزق برأسه للوراء وصرخ خالطا البلاهة علي الشيطنة.

– حامي أنت يا دكتور قوي.

حدة يوسف في عينيه التي بدت له لأول مرة مكحلة بسواد فحيم وطازج.

- كفاية يا عبدالرازق.. لقد لعبت دور عبيط القرية بكفاءة فترة طويلة.. لنتكلم الآن عن حق وبصراحة وبلا أقنعة.

زجره رزق بنظراته وطق منها طقطقة شر.

- إذن لا تعاملني كمتهم.. ولا توجه لي أسئلة تحقيق.

ثم رق وأضاف:

- اسأل كصديق تهمه معرفة الحقيقة.

أومأ يوسف دون رد، لكن دون نفي أو رفض، فأكمل رزق:

- لقد كان من الصعب أن يري الرئيس ورجاله ورفاقه زاهدا في قلب دائرتهم.. وكان عصيا علي فهمهم أن يعزف المرء عن السلطة والنفوذ والمال والقرار فلما رأوا في هذا الرجل صرت تحفة مقتنية واكتسبت ما يكتسبه عبيط القرية كما قلت أو شيخ القرية كما أقول من مكتسبات الجرأة في الكلام حتي التطاول والتندر علي الجميع والغياب والإياب كأنها مواعيد سماوية وترتيل القرآن في أي محفل دون أي سابقة.

كتم رزق ضحكة ندت - رغما - عن جديته وذكر لهما سببها.

- أبدا.. افتكرت كنا في استقبال ملكة هولندا في المطار وقد أصر الرئيس علي أن يستقبلها هناك مدعيا أنها بتكرمه قوي لما يزور هولندا، كان الموضوع أنها ملكة شابة في زهو

جمالها، وكان هو من أحرص الرجال علي ترضية نساء الحكم بدءا من الغزل وانتهاء إلي التفريط في ثروات البلاد لو أردن منه ذلك، دعني أقول لك إن هذه الملكة زارته في الحكم مرات عديدة قبل حضورها، بل منذ توليها عرشها، وحتي زيارتها للبلد وعودتها منه، كان إذا أتيح له أن يرتد مراهقا فإنه لا يتورع عن ذلك مغتنما أية فرصة، المهم كان يسير معها أمام حرس الشرف والعزف الوطني للسلامين يدوي، وإذا بي أري ميكروفونا أمامي لا أعرف من أين ارتمي عليّ، كان ميكروفونا مخصصا لأية نية للزعماء أن يخطبوا أو يدلوا بتصريحات لجمع ما في ساحة المطار، فإذا بي انتع ربع قرآن من سورة طه أمام الميكروفون، وأفسد حرس الشرف وانتابت الجميع فوضي ورعدة، وأنا أرفع صوتي بعزم في طه، طه، طه والرئيس قاعد يقول لهم حد يندهله طه يا جماعة ويخلصنا.. وفين وفين لما فهم أنني أقرأ من سورة طه وإنها إحدي نوباتي المهووسة، ولم ينقذ انفلات الموقف يومها إلا تصور ملكة هولندا أن هذا غناء ديني مقصود منه تكريمها وتحيتها وأول ما أدرك الرئيس فهمها الساذج، ابتسم لي وهو يشيح بيده.

- بركاتك يا شيخ رزق.. ادع لنا يا مولانا.

ثم مال علي بعدها ونحن في صالة كبار الزوار هامسا:

- وكان فيها إيه لو قلت ربع من سورة يوسف، حكايته مع زليخة مش كانت فرصة نشرح للملكة معاني الكلمات يا مغفل.

غرقـت ريـتا في ضحك متهتك إن لم تكن غيرة بائنة أو نقمة ظاهرة منه عليها لربما حسبه يوسف ضحكا رقيعا.. قال يوسف:

– آه لقـد كنت ممثلا مدهشا، لكن أليس في الأمر سذاجة زائدة عن اللازم، أن تخيل الحيلة عليهم جميعا من رئيس وقادة وضباط؟.

رد رزق:

– ربما يا دكتور لكنك تتصور في هؤلاء الناس ذكاء ليس فـيهم إلي هذه الدرجة وتنفي عنهم بلاهة وسذاجة موجودة إلي هـذه الدرجة، ثم من قال إنه كان تمثيلا.. إطلاقا.. كل ما في الأمـر أنني قررت أن أقول رأيي بصراحة وأفعل ما أفكر فيه دون تفكـير، وكانوا هم يتلقون هذه الجسارة علي أنها مس من الجنون يوحي بالدروشة، بالبركة، بالطيبة.

اقترب يوسف برأسه في المساحة الفاصلة بينهما.

– هـل تسـمح لـي أن أتمتع بمثل ما كنت تتمتع به من جسارة وجرأة وأقول رأيي بصراحة دون مواربة؟.

بثقة بليغة رد رزق:

– أنـا أري أنك قبضة ذراع يمكن أن تخبط، لكن لا يمكن أن تتحرك لوحدها.. أنت قفاز من يا سيد عبدالرازق؟

رزق ضـحك حتي الصخب ثم قال دون أن ترجف نقطة فوق حرف من كلامه:

– أنا قفاز من لا قفاز له.

– أشك.
– أثبت.
– أصبر.
– حاول.
– مؤكد.
– أتعشم.
– أتمني.
– واثق.
– مؤمن.
– حماقة.
– ذكاوة.
– خيال.
– احتمال.
– ستفشل.
– ستندم.
– سنري.
– ستذهل.
– كبر دماغك.
– صغرتوا دنيتي.
– تعالي معانا.
– من وراءك.
– ورائي من أمامك.

- التفت وواجهني.
- اجري واسبقني.
- لست مجذوبا ولكنك لست شيخا.
- لست جباناً، ولكنك لست شجاعاً.
- سأصل للنهاية.
- نهايتك.
- وماله.
- خسارة.
- مكسبي أن تخسروا.
- من أجل الحق.
- من يحدد الحق.
- الله.
- اسأله.

أشعراها بالإجهاد وقد تجمدت أنفاس ريتا، ولعها بغموض رزق وفتوته وروحه ورسالته وجسارته وزعامته ومشبوبة بشبوب شبابه، انحازت إلي رزق حتي التماع عينيها باليقين تجاهه، حتي رغبتها حارقة وموجوعة وشبقة في تشبيك ذراعها في ذراعه تعريها، فإذا فتول عضلاته وزغب شعره ولهب جلده يكتنفها في شمول النشوة مترعة بهذيان الروح المحلقة والوجد المفتقد حين واصلا حوارهما، قال يوسف:

- نرجع مرجوعنا لوجعنا.. كيف قتلته؟

وضع رزق قنبلته في جيب بنطلون يوسف حين قال:

- رحت أقتله لقيته مقتولا.

تناثرت الدهشة شظايا انغرست في جلد ثلاثتهم.. دوت الكلمات فطغي لهيبها علي مشاعل النار، علي طقطقة الشرر، علي رفرفة الهواء للنار.

قال رزق:

- إليكم الحقيقة كاملة كأنها نزلت هكذا من بطن أمها.. لم تقطع حيرتها ولم يمسح بللها ولم يجفف دمها ولم تلبس فستانها.

كنت قد غبت في التكية علي غير ما اعتدت أن أفعل وعلي غير ما اعتادوا أن يتحملوا، وكانت روحي قد ضاقت، وقلبي قد انخلع وهمت في هيام الحزن الوشيج، عشت أيامي مصليا دون شحذ للنفس، مرتلا قرآنا دون غموسه بالروح، أيام صدئة وخيالات غير مفضوضة ونواقص هواجس ونواقض وضوء حتي جاءني شيخي، لم يكن قد حضر للبلاد منذ عام أو يزيد، هللت ورحبت وكبرت وصليت وسافرت معه وتجولت وجبت ربوع البلاد وضياع العباد والتقينا من الناس بأسود ونمور وديكة ودجاج وضباع ودببة وثعابين وسلاحف.. ولماعدنا إلي التكية بأيام وليال وقد أقرض شيخي ربي قرضا حسنا قال لي:

- أنا جئت لأن حالك تغير، وصفوك تعكر، وفي مجيئي راحتك وهناؤك، قم نكبر وفكر ودبر والرجس فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر، حان الموعد كأنه الوعيد وحل اليوم المجيد.

ففهمت أنه إذن بقتل الرئيس بعد صبر جاوز المدي، فذهبت بصبوات عاشق لأداء المهمة وأنا أري في كل ركن من قصره قيحا مفتوحا وكل حارس شبحا مذبوحا، تملأ أذني أصداء أنات ضحاياه وفقر رعاياه.. استقبلوني كما يستقبلونني دوما مرحبين متباركين، كنت قد كلمت رئيسي أنني قادم فانتظروني، وأعدني لأداء المهمة الليلية.

- لكن زملاءك يقولون إنك خرجت قبل نهاية ليلة الخدمة وأن الرئيس خرج بعدك يسأل عنك ولم يجدك.

- فأغشيناهم فهم لا يبصرون يا دكتور.

- هل أنت النبي؟

- وما النبي؟.. أليس الرسالة، والحق، ورفع الظلم ونشر العدل.

- سأتناظر معك بما فيه كفايتي بعد انتهاء روايتك للأحداث.

- ليكن.. لقد دخلت غرفته وحكي لي حلما من أحلامه.. كان حلما يفقع في الحقيقة، كان كلما أمسك في الحلم بكرة التنس رفعها في الهواء وضربها بمضربه إذا بها تتكسر كبيضة فرخة وتنفعص في يده وتدلق السائل الأصفر علي قميصه.. ناقصة هيه بيض وفقع!!

- وفسرت له الحلم كالعادة؟

- أبدا.. لم ألحق، كان ينهج علي غير عادته وعيونه زائغة إلي حد ما، فقال لي إنه سوف يدخل الحمام لإسهال غريب لحق

به منذ ساعة، كما أنه يشعر بضربات قلبه أسرع وكأنها مسموعة في الحجرة. قلت له أأحضر الطبيب، قال لا وضحك ربما أنني زودتها حبتين الليلة، كان يقصد لقاء جنسيا ومن المؤكد أن هذا لم يكن صحيحا فلم يكن مع أحد تلك الليلة، لكن خيالاته في هذا المجال كانت قارصة في وجودها عندما تختلط السلطة بالنفوذ وبالإحساس بالذات والجنون بالعظمة مع خرف رجل في الثمانين.

تحدثت ريتا السلبية أخيرا.

- وكيف عرفت أنها تخاريف ربما كانت حقا!

- حقا إيه يا دكتورة.. إن الرجل توقف عن ممارسة الجنس منذ سنوات رغم كل الحقن والحيل والتكنولوجيا.. ثم مالذة الجنس جنب ما طاب من لذة السلطنة.. لكنه الغرور الذي يعمي ويصم.. دخل الحمام، فنمت تحت السرير نعم هكذا ببساطة كمن يستعد لسرقة مصوغات سيدة عجوز. خرج لم يجدني ففتح باب الغرفة وسأل عني أكثر من مرة علي مدي ساعة، كان يغفو وأنفاسه تتحشرج وتتلاحق ثم يصحو يسأل عني وقد بلله العرق ويعود إلي السرير.

كان في إعياء ولاشك غامض وملتبس سكنت وسكت في مطرحي ساعات حتي أدركت الساعة الرابعة تقريبا قمت بعد أن هدأت أنفاسه حتي اختفت تقريبا وتوقفت حركته حتي خمدت تماما، أخذت الخنجر وقد لففت يدي بمنديل أبيض من علي الحائط أحفظ مكانه وأعده ليوم الحدث الأكبر، بالمناسبة كنت

أفــتحه من جرابه وأتحسسه أحيانا وأقبله وأقرأ عليه آيات من القــرآن وشيئا من الأدعية، أمسكت بالخنجر واقتربت منه فإذا هو جثة هامدة بلا نبض وبلا روح خاضع كلية ميت كما الموت تمامـــا لا يتـــنفس ولا يتحرك ولا ينطق مصفر ومزرق همود وخمود وعيونه نصف مفتوحة مصبوبة في مكانها كدوائر حديد منصـــهر فـــيه سواد وفيه نار أمسكت بيده وضعت أذني علي قلـــبه، أخرجـــت لسانه رفعت ذراعه، صفعت وجهه، لاحس، لانفس.. الموت وقد حضر بكل جلاله ودلاله الذي اشتقنا إليه، كثـــيرا كانت في يدي قبضة الخنجر فلم أفكر كثيرا كأنني أتمم مهمـــة بدأهـــا غيري أو أكلل أمرا دبره غيري، طعنته طويلا وكثيرا حتي تضرج السرير بالدم، ولاذت روحي بالراحة.

تركت الخنجر في صدره.

همست ريتا ملتاعة.

- وخرجت؟

قال رزق

- لا.. نزلت مرة أخري تحت السرير..

مبهوتان يتابعان قصته التي فتتت عظام القضية برمتها.

- نزلـــت تحت السرير، وسكنت وسكت ونمت ربما ليلة وثانية وثالثة بلا حركة وبلا طعام وبلا صخب وبلا تقلب وبلا ملـــل وبلا خدر، دخل كثيرون بأحذية العسكر والمدنيين رفعوا وشـــالوا وحطـــوا وهدأوا وخرجوا.. وماتت الحركة تماما في

القصر، صحوت من النوم في أية ساعة في أي يوم في أية ليلة لا أعرف بالتحديد.. وخرجت وعدت إلي التكية.

قال يوسف:

- أولم يرك أحد!

عاد فأجاب - تحسبهم أيقاظا وهم رقود يا دكتور.

ثم بادره يوسف بالسؤال:

- لكـــن كيف مررت منهم وعبرت من البوابات دون أن يعوقك أحد؟

رد بهدوء:

- ومـــن يـــتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

لملم يوسف شتات عقله

- يعني أنت قتلته.. لكنه كان مقتولا..

- نعم

- بالسم

- أو بغيره

- من قتله؟

لست أنا.. أنا فقط وضعت الختم الرباني علي جثته.

٢٨

وحده الآن، كأنما غمام العالم كله أمطره غما حتي أغرقه فـــي نفسه البللة المبلولة بالحزن كأنما رقعة بول في ظهر طفل صـــحا مـــن نومه ليفاجأ أن إرادته مسحوبة وبوله أقوي منه، يصارع الإنسان طول عمره بوله، من يهزم الآخر؟ في الطفولة يدحـــرك البول لا إرادة لك فيه حتي إن جاءك صرخت وبكيت ليعرف أهلك أنه يغزوك ويسيطر علي جسدك وتلقاه - غالبا- بشـــعور مـــن الخزي والعار أن تمكن البول منك. في شبابك شعور بالقوة والغلبة عليه. في الكبر في المرض يردعك البول يشـــعرك جبنك وقشعريرتك، ماذا لو انتصر؟ ماذا لو جاء دون أن تقـــوي علي مقاومة تسربه؟ إنه عدو غريب منك وضدك، وجـــوده المفاجـــئ الغازي مثل غيابه واختفائه، كلاهما عدو.. رغـــم أن انبثاقه يحميك من سمه، إلا أن قرارك أنت دوما أن تطـــرد ســـمومك وكل ما تخشاه أن يكون قراره هو لا قرارك أنت!

هل اكتشف يوسف بول الحياة علي ظهره.. سمها وزعافها ناقعا واقعا في قلبه.

صرخ يوسف في الممر الضيق المعتم المفضي إلي دروب المدينة الخلفية.

- من يجفف بول هذه الدنيا.. من يمسح الخراء عن مؤخرة هذا الوطن؟

تردد صدي صرخته كأنما هي الحياة الصحراء الموحشة الخلاء.. يحسها يوسف فعلا صحراء - لأول مرة- بلا سماء.

الداهية أن يكون وراء هذا الحبوط حب مجهض.. هل أحب ريتا؟ أم أن ريتا هي صاحبة مصباحه السحري القديم الذي حكته فخرج يوسف من مكمنه من ظلمته من سلامه و تسليمه إلي العالم، إلي السعي للحقيقة الذي ينقلب سعيا إلي الحق.

مال أمك يا يوسف بديكتاتور مقتول.. ومتي تبكي الشعوب سفاحيها وظالميها؟ هذا وطن كف عن أن يبكي حكامه منذ كف حكامه عن أن يجففوا دمعه، ما يتحرق رئيس قتل اغتيل.. وآخر قادم قد يقتل، قد يغتال، وماله أحسن! إذا كان الناس لا يعرفون للنفاذ من تحت جثث حكامهم الراكبة فوق صدورهم، الجاثمة علي أنفاسهم، سوي أن يغرسوا سكينا في لحمهم حتي يتخلصوا من ثقل وجودهم.

هل هو جنون جدك.. يعود إليك في تلك اللحظة، يحوز علي عقلك ويملك وجدانك ويحرك وجودك.. لحظة ما صرخ جدك.. بعد أن سلم واستسلم كثيرا - ضد الحاكم وضد الظلم وضد النفاق وضد السيد وضد السادة. أهذا إرثك الغالي والمعز

المذل من جدودك، جاءت ريتا تنفخ في خشب متفحم فتوقده نارا ثم تمضي بكل ما تملك مما ورثته - هي كذلك - من ملكات النحل.

وقفت عند باب التكية وقد ارتجت وارتجفت من الموقف فأسرعت خطي كلماتها تضرب في كعوب كلماتها السابقة.. قالت:

- أنا آسفة يا يوسف.. حقك عليّ.. أنا غلطانة وزعلانة.. لكن أعمل إيه.. تعبانة ومهدودة من حياتي.. كارهة عيشتي وبلدي.. هنا أحسن لي.. سأجد حريتي في أسوار التكية.. واحتمال في ذراعي رزق.. عارفة أنك لن تحترمني بعد الآن.. نسيت نفسي في مكان مليء بالدخان والأبخرة وأذرع الرجال.. لكن صدقني الإنسان بيعمل حاجات كثيرة قوي في حياته لغاية مايلاقي نفسه.. أول مايلاقيها يبطل يعمل أي حاجة.. يفرح بلقيته علي الأقل شوية.. سيبني أجرب.. لا أريد أن أكذب عليك.. من أول ما دخلت التكية وأنا بأفكر أقعد.. قلبت حياتي كل ليلة قبل ما أنام أدور علي سبب أخرج منها لأجله.. لاشيء.. لا أحد.. حتي أنت كده يا يوسف لكن أنت راجل عاقل.. أنا مجنونة كما تعرف.. خلاص زهقت من الأحلام التي صارت أوهاما.. من العلاقات التي صارت ذكريات، وتركت تشوهات علي روحي وعلي جسدي، الهوية صارت سرابا، العمر راح سدي، أما حكاية قتل الرئيس فهو يستأهل.. القاتل ليس بطلا والقتيل ليس شهيدا، أنت أول واحد عارف ذلك.. ثم

ما أنت شفت وعرفت بنفسك.. الكل تخلص منه.. والكل أيضا لا يريدنا أن نصل لشيء.. كما قلت.. كانوا متحمسين ساعتها وبيهزروا بينا.. وخلاص النكتة خلصت، لكن للأسف عمر اللي عايشين في النكتة ماضحكوا.. عمرك سمعت إن مرة واحدة صعيدي ضحك في نكتة.

ومضت..

وتركته – كما كل الرجال الذين نعرفهم – واحد ووحيدا.

ماذا سيفعل الآن؟ سيواصل السعي من دونها؟ ولماذا؟

ومن القتلة الآخرون الذين يسعي إليهم؟

يوسف بقلب شتيت وعقل مراوغ وروح مخذولة كان الآن وحده أمام بناية من طوابق ثلاثة في حي بعيد من العاصمة، يطرق مطرقة حديد في بوابة جهمة وسط صمت سائد وهواء قوي وعاصف يثير في حي شبه خال مثل هذا، عواصفه وأتربته في خماسين كأنها تطارد يوسف أينما حل.

استغرق الأمر وقتا حتي خرج صبي صغير من الباب الداخلي وجاء حتي البوابة وسأل في فظاظة.

– من أنت؟

– دكتور يوسف رضوان.

– ما ذا تريد؟

– عندي موعد مع السيدة والدتك.

– محدش من اخواتي عايزها تكلمك.. وهي لن تقابلك.

كاد يعري قطعة من جسده تحت قميصه ويقول للصبي.

– هذه لم يضربها أحد حتي الآن بسهم أو سن سكين.

أداخه الموقف وحيره.. كان قد اتصل بالقصر الرئاسي وسأل عن كبير الطباخين المنوط به طبخ الأكل للرئيس وهو نفسه الذي كان موجودا ليلة الاغتيال، فقدم له إفطاره وغذاءه وعشاءه، حيث لم يكن للرئيس أي زيارات خارجية يومها.

كان يظن أن السر علي لسان هذا الرجل.. لكن اكتشف أن السر صار في بطنه.

قالوا له لقد مات.. مات بعد وفاة الرئيس بأسبوع تقريبا.

– غريبة.

رد موظف القصر.

– ولا غريبة ولا حاجة لقد جاءته أزمة في القلب مات علي إثرها في المستشفي.

أيزداد الأمر غموضا.. أم ينفجر وضوحا.

تكلم في التليفون مع زوجة الطباخ.. كان الحزن قد نهب صوتها تماما، جاء مجرد نحنحة مبهمة و غائمة.. أذنت له بالحضور للتكلم معها بخصوص زوجها ولما جاء في العنوان خرج له الصبي وأخرج له لسانه رافضا الإذعان لدعوة أمه له بالحضور.

دخل يوسف سيارته وأدار مفتاحها فدار موتورها فتحركت عجلاتها فإذا بشبح يهجم فجأة علي مقدمة السيارة، كبح مسيرها بالفرامل، ووقف مبهوتا إزاء ما يحدث. كان الشبح سيدة ممتلئة الجسد، ترتدي السواد، وتلف شعرها بطرحة سوداء شفيفة

وتلـبس نظارة غامقة كبيرة تبلع ملامح وجهها كلها.. اقتربت مـنه وخبطت علي زجاج الباب الأيمن للسيارة تعني أن افتحه ففتحته، فدخلت وهي تركب أعضاءها فوق بعضها حتي تتمكن من الدخول الآمن.

جلست وقالت:

- أطلع بسرعة وحياة أبوك أحسن يشوفونا.

تـردد فطبطبـت علي صدرها متحايلة عليه، وضربت -خفيفا- ظهر كتفه.

- أطلع يا خويا أنا مرات الطباخ.

فطلع..

عندما جلسا في مكان قصي، بات شكلهما متنافرا مع فريق العشاق الموزع علي الموائد، بادرته السيدة:

- علـي فكرة أنا ست متعلمة ومتخرجة فى معهد محترم وزوجي الله يرحمه كان خريج اقتصاد وتدبير منزلي.. كان من أحسن الطباخين في البلد وياما سافر واشتغل وراح وجاء لغاية ما اختاروه طباخ الريس.. الناس حسدونا علي الأملة، لكن والله مـن يومـيها الفلوس قلت والبركة راحت، كان يقول لي هوه طـباخ الـريس حاجة سهلة.. فلوس إيه دي جنب وجودي مع العــز والسلطنة.. لكن الشهادة لله عمره ماجاب سيرة أكتر من كـده ولاذاع حاجـة ولا حكـي حكاية وكنت لما أسأله أنا ولا العـيال كـان يقـول لـنا أنتم عايزيني أروح في داهية.. أنتم متعرفوش أن فيه مخابرات ورايا وأمن بيراقبني في كل حتة..

كنـت أنكتم أنا والعيال أول ما يزعق ونعدي الموضوع ونقعد نروق في دمه عشان مايزعلش يا روح قلبي.

ثم بدأت تنسال دموعها بغزارة فطرة الحب المدله، ببراءة الفقد العزيزة والعزيز.

فسألها:

- لكـن ألا تتذكريـن مـاذا قال لك ليلة وفاة الرئيس قبل ماتسـمعوا الخبر لم يقل لك ولا كلمة لم يحك لك أي شيء.. لم يـتوقف عند أي ملاحظة.. ألم يقل أي شيء غير عادي تعليقا علي أي شيء؟

أجلت دموعها حيث هناك وقت طويل للتفرغ لها وقالت:

- لا والنبي ما فاكرة.. لكن هوه يوميها لم يأخذ عشاءه.

- هل كان معتادا علي العشاء في البيت!

- طبعا.. هو يغرك أنه طباخ.. دا كان المرحوم (وانهالت بالبكاء وهي تتحدث) يقول عليّ طباخة أحسن من طباخ الريس.

- تعيشي وتفتكري.. لكن ليلتها لم يأكل.. لماذا؟

- قـال إن نفسه غمة عليه زي الستات الحوامل.. وبطنه مقلوبـة، الصبح سألته أخبار بطنك إيه كان ياولداه عرقه مرقه وبينهج، قلت له العرق شفا وشرب نعناع كتير وراح الشغل.. رجـع قبل ما الظهر يأذن.. تعبان زي مايكون ح يغمي عليه، وقـال لـي الريس مات وساعتين تلاتة والبلد كلها ح تعرف.. مـات إزاي يا خويا.. قال لي جاءت ساعة السر الإلهي وهوه نايم.. راجل محظوظ ربنا رحمه من سكرات الموت، علي آخر

النهار كان فرهد مننا خالص طلبنا الدكتور جاء وقال إن عنده التهاب معوي حاد لكن الحمد لله سليمة وكتب له علي أدوية وطلب يأكل شربة خضار مسلوقة بس.. ارتاح علي الدواء يومين ثلاثة، في الرابع (انفطر قلبها بكاء حتي ظن أنها سوف تلفظ قلبها علي كوب العصير أمامها) ساعة العشاء تقريبا تعب خالص نقلناه المستشفي وبعدها بساعتين ربنا رحمه برحمته.

– والدكاترة في المستشفي قالوا إيه؟

– ح يقولوا إيه.. قضاء ربنا.. هوه فيه دكاترة بتأجل قضاء ربنا.

فاجأها يوسف بالسؤال:

– انتو المدافن بتاعتكم فين يا حاجة؟

ردت بسرعة ثم فكرت بعد أن ردت.

– نعم يا خويا.. ليه!

لم يجب.. دفع الحساب وأوصلها حتي قرب منزلها وهي تهبط من السيارة ببطء ومهل.. سألها:

– ليه ولادك مانعين عليك الكلام يا حاجة؟

دمعت عيونها في صمت ثم قالت:

– خايفين.. يوم ما مات المرحوم.. اتصل بنا الجدع ده المهم اللي ماسك القصر ونبه عليّ وعلي العيال ميتكلموش مع حد علي وفاة الوالد..

وقفت كلمات يوسف علي أطراف أصابعها.

– لماذا؟

– أنا عارفة.. قال أصل البلد مولعة ومش ناقصين دوشة!

– إيه الدوشة دي؟

– أصل أنت مش عارف يا خويا.. ثالث يوم موت الريس مات إيشي مهندس شاب كان بيشتغل في اسمه إيه ده حمام السباحة في القصر.. وبعدين مات زوجي.

غامت وماهت الصور أمام يوسف برهة حتي التقط أنفاسه بعدما خرجت وظن أنها لن تعود.. قال لها:

– يا ساتر.

ثم أضاف.

– لكن ليه أنت صممت تكلميني مع إني لا ضابط ولا نيابة ولا حاجة من دول.

ردت في رقة دافئة:

– مش عارفة يا خويا.. قلبي متوغوش والمرحوم جاء لي في الحلم وسألني عنك.

– قال إيه.

– ماقلش.. سأل بس.

مضت مبتعدة في تؤدة وزنها وحزنها الثقيل، كان رأسها يميل لأسفل ويدها لا تنزل عن أنفها، لم يحرك السيارة ولم يتحرك من مقعده، دارت حمم في ذهنه حتي فوجئ بالسيدة تقف.. تلف... تعود إليه في شيء من العجلة.. قاد السيارة للخلف بسرعة خفيفة حتي يوفر عليها المشوار، اقترب منها، فتح شباك نافذته، ثم عدل عن ذلك فهبط إليها فتح الباب ونزل.

- خير يا حاجة عايزاني.

كادت تتقطع ملامحها من البكاء المحتدم وبصوت مخنوق بذل مجهودا في فك رموزه قالت له:

- والله ما أنا عارفة أقول لك إيه.. أصل فيه حاجة غريبة بس والله العظيم أنا بأكلمك جد.. مش عارفة ح تصدقني.

- طبعا يا حاجة.

- أصل المرحوم قال لي حاجة بس مش عارفة والله قالها لي قبل ما يموت ولا بعد ما مات.

- نعم بعد ما مات.

- آه.. في الحلم.. والله ما أنا فاكرة كانت بجد وهو نايم علي السرير يا حسرة قلبي ولا في الحلم أصله بيزورني كل يوم في الحلم فمش عارفة والنبي الفرق بين أيهما حلم وأيهما حقيقة..

- ماذا قال لك؟

ترددت ثم انسحبت من لسانها.

- قال طباخ السم...

٢٩

وقف يوسف بسيارته أمام القصر الرئاسي، المبني الضخم الهائل في وحشة الصحراء وصوت الصمت المدوي، ريح الخماسين تطارده هذه الأيام أينما حل، نزل من السيارة فإذا بالريح تكاد تعميه، تقلع نظارته، ترفع ذيل بذلته، ويعبئ الهواء بنطلونه، يمشي بثقل وبصعوبة حتي يصل إلي القاعدة الصوتية التي تترك فيها اسمك وعنوانك حتي يفتح الأمن لك الباب التمهيدي للقصر، لم يجد أحدا كأن المكان مهجور، ضغط علي كل الأزرة، تكلم لكل الأجهزة المثبتة في الحوائط، لاشيء سوي طعم التراب في فمه ودوي الريح مفلوت زمامها من عقال الصحراء، يضرب في أذنه، يعرف أن الكاميرات التليفزيونية تصوره الآن وصورته تظهر علي شاشات الأمن الداخلي، لكن لا أحد يعيره اهتماما ولا يبادله هما، أدار رقم التليفون المحمول ردت عليه سكرتارية القصر بعد طنين الجهاز.

- أيوه.. من.. دكتور إيه.. أيوه يا افندم.. لأ.. طب ح أحولك علي مدير مكتب مدير الرئاسة.. (طنين في الحرارة.. تقطع.. شفرات رقمية.. نغمات موسيقي مكتومة).. أيوه (جاء

الصوت كأنه خارج من الثلاجة حالا).. لأ غير موجود.. ليست لدينا تعليمات بحضور حضرتك للقصر.. لا أستطيع أن أقدم لك أسماء أحد من العاملين.. لا أعرف.. لا أعرف.. الحقيقة ليست لـــدي معلومات.. حضرتك تترك له خبرا.. لا لا أعرف.. لم يترك تعليمات.. لا أعرف.. بإذن الله.. معلهش نقوله الاسم إيه تاني.. آه رضوان.. أيوه.. العفو.. الله يسلمك.

حيـــن عودته إلي السيارة سقطت منه المحفظة.. ثم طيرها الـــريح.. لشـــد ما تكون الأمور هزلية في هذا المكان.. بدأت الـــريح تطلق محتويات المحفظة في البراح الصحراوي.. بذل جهـــدا أرهقـــه وأســـقطه علـــي الرمل الخشن بحصوات حادة وشظفات الأرض، عاد للسيارة مهدودا، جلس علي مقعده.. لملم أشـــياءه فـــي محفظته.. دمعت عيناه ثم هدأ قليلا وبلع ريقه ثم نظـــر من الزجاج طلة ثم انهار في البكاء مثل صبي في جنازة أبـــيه.. كانـــت يده ترتعش وهو يبكي محموما والدموع غزيرة ســـخية فياضـــة، تسقط علي صورة تجمع بين جديه ومكتوب علـــيها إهداء بخطهما المشترك.. إلي حفيدنا يوسف.. لا تتسنا، ثم توقيع جده مكتوب تحته الإخواني وجده الآخر مكتوب تحته الشيوعي في مرح الدعابات القديمة في زمن أكثر قدما مما هو حقيقي.

حيـــن كـــان علي مشارف العاصمة كان قد اتصل بزوجة الطباخ التي استمهلته علي التليفون حتي تستطيع الرد عليه، قال لها:

– هـــل عزيت زوجة مهندس القصر الرئاسي.. كويس.. تعرفـــي الاســـم والعـــنوان.. طيب أنا عايزك تروحي لها من الفجـــر.. اقنعـــيها تخرج معك ضروري.. عارفة المكان اللي قعدنـــا فـــيه.. آه.. أيوه.. الساعة التاسعة صباحا.. آه ولا أحد يعـــرف.. آه هناك جديد.. ضروري جدا.. حياة أو موت.. أنا معـــتمد علـــيك.. الله يكـــرمك.. حاضر.. خلي أنت بالك من نفسك.. آه بإذن الله.. لأ ولا يهمك.. مين.. لا لم أقابله.. إيه.. طيـــب.. عمومـــا مش مهم.. أنا في انتظاركم.. الله يحفظك.. وأنت من أهله.. محمد رسول الله.. أشكرك جدا.. الله يكرمك.. بإذن الله.. مع السلامة.. سلامة.

وصـــل إلـــي الفـــندق، كانـــت رغبته حارقة في الصعود لإحضـــار ديسك الكمبيوتر، وصل للاستقبال طالبا المفتاح، رد الموظف بأدب بالغ.

– آســـف.. يـــا افندم.. الغرف اتعمل تشيك بتاعها واتسدد حسابها واتسكنت صباح اليوم.

– وحاجاتي.

التفت الموظف لزملائه باحثا عن إجابة فتدخل آخر.

– الحقيقة أن الموضوع كله كان بالاتفاق مع أمن الأوتيل.. إحـــنا خلصنا الورق فقط وواضح إن الإخوة اللي حاسبوا خدوا كل حاجة معهم.

أومأ يوسف شاكرا وانطلق إلي الخارج شاعرا أن ثمة أحدا يطـــارده، تذكـــر ريتا فأخفي دمعة جديدة كأن المآقي لا يفرغ

دمعها أبدا، قرر أن يذهب إلي حي قريب عتيق، كان يحبه في صباه حتي الهوس.. هناك أوقف سيارته وجلس علي رصيف مقهي يفتح الليل كله.. طلب شايا ثم أشياء كثيرة، قضت به الليلة علي الرصيف متأملا ومفكرا مهموما ومغموما ومثارا ومفكرا وناعسا ومضطربا، ومنتعشا، وحاسما، ومترددا، ومهزوزا، وواثقا، يائسا، مندفعا، متراجعا، مؤمنا، زاهدا، ضائعا، مبددا، عازما، متوكلا، دامعا، باسما، شاردا، وصامدا.

جاءت متأخرة نصف ساعة وكان تأخرها قد أذاب نصف جسده مزقا وأحضرت زوجة المهندس شابة في أواخر الثلاثينيات أنيقة وجميلة ومتماسكة وإن كان التردد والتشكك والريبة حقا واضحين في عينيها.

تدخلت زوجة الطباخ في دائرة الصمت لتكسرها.

- أنا قلت للمدام علي كل حاجة.. أقصد يعني حضرتك رجل مهم وبتحقق في الموضوع.

قالت المدام حاسمة باردة:

- خير يا دكتور.. هل تشك في شيء؟

رد يوسف.

- هل حضرتك لاحظت أي شيء مختلف علي زوجك الراحل قبل وفاته؟

- الحقيقة.. حصلت له نفس الأعراض التي حكتها لك الحاجة عن المرحوم زوجها.. لكن كانت التطورات أسرع والموضوع لم يأخذ وقتا طويلا.

- ألم يقل لك أي إشارة ذات أهمية.. أي تلميح.. لامؤاخذة خطرفة؟

- كان زعلان بس إنه مش ح يقدر يقعد مع الخبير الأجنبي اللي جه للإشراف علي حمام السباحة يومها الصبح.

- خبير إيه.

- خبير خاص بأحواض السباحة وحاجات لها علاقة بتقطير المياه وتطهير الأحواض وتفاصيل فنية لا أفهم فيها.

- ولماذا جاء الخبير؟

- لا أعرف.. هو لم يطلبه، لذلك كان مفاجئا، وكان خايف حد يفهم مرضه علي أنه هروب من خبير مفروض عليه خصوصا أنهم شدوا مع بعض يومها.

- اتخانقوا.

- آه.. الخبير صمم إن زوجي ينزل حمام السباحة بعد ما الريس مشي، وقال له لازم تعوم قبل الريس وبعده، كي تعرف درجة دفء المياه ونقائها وحاجات كده..

- وزوجك غضب منه لهذا الطلب؟

- آه كانت أوامر وليست طلبات كما قال زوجي، أيضا هو لم يكن مطمئنا لحكاية التجارب الجديدة علي المياه.

- تجارب.

- آه قال الخبير جاب معاه مادة من الخارج لتطهير المياه عند درجة معينة.

- حد حضر هذا الحوار بين الخبير وزوجك.

- لا أعرف..
- وهذه التفاصيل كلها حكاها زوجك قبل المرض؟
- حكاهـــا كلهـــا علي العشاء.. لقد كان سر زوجي دائما معي.

تـــأمل يوســـف الزوجتين المكلومتين، غطس بنظراته في دماء قلبيهما المجروحين.

قال في هدوء وشجن وهو يعرف ماذا سيفعل هذا بهما.

- طبعا ممكن تتعاملوا مع كلامي كأنه لم يكن.. وترتاحوا وتـــريحوا أعصابكم لكن أنا لازم أقوله حتي لو كانت هذه هي النتـــيجة.. أنا أشك لدرجة كبيرة أن الوفاة في الحالتين لم تكن طبيعـــية.. وكمـــا وضع أحدهم شيئا في حمام السباحة احتمال يكـــون أحـــد آخر وضع شيئا في الطعام، لأن الطباخ - بشكل أمنـــي وعادي معا- لازم يتذوق الطعام المقدم للرئيس.. والذي وضع السم - إن كان سما- كان يعرف في الحالتين سواء مع الطباخ أم مع المهندس إنهما سوف يموتان مع الرئيس.

توقفت زوجة المهندس بنظراتها عند عيون يوسف، وباحت بسؤالها:

- ليه.. هو الرئيس مات إزاي؟

قال يوسف وهو يضرب بيده تمساحا علي وجهه.

- مات مقتولا.

٣٠

- منذ زمن لم أحضر إلي هذا المكان.

قالها الشيخ عبدالتواب بتأثر وطعم الزمن في حلقه.

رد عليه ماضي بابتسامة فيها رعدة منعشة.

- والله ولا أنا يا شيخ عبدالتواب.

كـــان النهر بزرقته ورقته و بقائه المحفور في قلوبهما، قد أيقـــظ دنـــيا غاطســـة في النوم تحت جفونهما.. المكان هادئ، ووديع وخال في هذا الوقت من النهار القائظ، في هذه المساحة المكشوفة للريح من ذلك الكازينو التاريخي الذي أكسبه التاريخ أهمية وأكسبه النسيان فوضي وإهمالا.

- لم يكن المكان علي هذا الإهمال زمان.

قالها عبدالتواب فرد عليه ماضي مداعبا:

- يـــا سلام ومنذ متي يهتم الإخوان بجمال الأماكن.. من أيـــن جاءت هذه الشاعرية؟ ضحك عبدالتواب فبان طقم أسنانه منـــتظما ونظـــيفا ومرتـــبا إلي حد أنه يشي بكونه طقم أسنان لامراء.

- أهــو أنت من يومك فاكر إن الشيوعيين من أمثالك هم الفــنانون وأنصـــار الجمال ومفكرو الحرية.. أما نحن فشوية شيوخ مخرفين من بقايا عصر معاوية بن أبي سفيان.

- لا والله وأنت الصادق يا عبدالتواب يا خويا.. من عصر المنصور السفاح.

قال عبدالتواب وهو يتحسس لحيته الخفيفة البيضاء:

- لا فـــائدة مـــنك يـــا ماضي.. بعد كل هذا العمر.. أنت عمرك كم سنة؟

رد ماضي باختصار موجز.

- أصغر منك.

رنت ضحكة عبدالتواب مع نحنحة كحة وسعال خفيف.

- صحيح أصغر مني طبعا.. لكن شوف عمري ٨١ سنة وصحتي تمام والحمد لله.. مش زي جماعة!

دافع ماضي عن نفسه بضراوة جادة هازلة.

- أنـــا.. أنا صحتي مالها يا خوي.. ماذا يعني شوية سكر علي ضغط، علي انسداد أوعية دموية.

قهقه عبدالتواب:

- لأ وإيه.. وإنت الدكتور الطبيب العلامة.

في استسلام قال ماضي:

- والله كله من المعتقلات يا عبدالتواب.

في حسم ولوم وتهكم.

- يـــا سلام.. إنت بس اللي دخلت المعتقلات.. يا واد أنا دخلـــت أكـــثر منك ييجي بسبع سنين.. عارف يعني إيه سبع سنين.. في ملامة بائنة العتاب.

- آه لكـــن الســـنين التـــي سافرت فيها السعودية، نغنغتك وروقتك وعوضت أيام الشقا.

في حروف مغموسة بالشجن.

- بقـــي أنت تقول كده يا ماضي.. أنت أكثر واحد تعرف أنـــه لا يوجـــد شـــيء في الوجود يعوضك ظلام ليالي السجن وعلامات آثار التعذيب.

في إيمان حار.

- صح يا عبدالتواب.. صح والله يا خويا.

عاد عبدالتواب إلي نفس الدعابة.

- ثـــم ســـعودية إيه يا راجل يا أهبل.. أنا اشتغلت هناك مدرس لغة عربية، مهنتي التي أحبها ويشهد الله أنني لم أتقاض ملـــيما من حكومتهم به دعم لي أو للجماعة وأنني اختلفت مع الإخـــوة الذيـــن رضـــوا برعاية سعودية لهم وقلت إنني أجمد عضـــويتي حتي نتحرر من إغراء السلطان في السعودية هناك كما نتحرر من إغواء السلطان هنا..

صمت وهو ينهج وتتقطع أنفاسه ثم واصل.

- وتعـــال هنا يا دكتور ماضي يا بتوع الاتحاد السوفيتي والحزب الشيوعي والدعم المالي والتحالف مع حكومات تسجن وتعذب.

ضحك ماضي ملء فمه.

– طبعا أنت الود ودك أغضب واتنرفز والسكر يزيد عندي.. لكن بعينك يا عبدالتواب أفندي، علي إيدك أنت والحاج زمان.. أنا كنت في المعتقلات مسجونا ومهانا والرفاق الشيوعيون وزراء ورؤساء مجالس إدارة، كنت طبيبا فقيرا علي قدي في أوسخ حتت في الريف، وهم هنا صحفيون وكتاب في مكاتب التكييف والرفاهية.. إحنا يا عبدالتواب وش فقر إذا كنت أنا ولا أنت..

خبط عبدالتواب كتف ماضي وسأله كمن يسأل طفلا في السابعة من عمره.

– أنت بتّصلي يا واد يا ماضي!

أشاح ماضي بوجهه معلنا التمرد والغضب.

– يووه.. شوف برضه بيقول لي إيه..

ثم التفت له في موضع مواجهة العين بالعين.

– طيب يا عبدالتواب دا أنا وأنت كنا فرجة بين جماعتنا، أنا الشيوعي الوحيد الذي يصوم وأنت الإخواني الوحيد الذي يسمع أم كلثوم.

ضحك مهلا كمن قبض علي جناحي عصفورة.

– كنت أنا وأنت كل واحد الفاسد علي طريقته في جماعته.

دمعت عيونهما من التأثر والشجن، أجسادهما مليئة وعريضة وملابسهما كاملة وتقليدية ونظارات ذات طراز قديم

علي عيونهما وفنجانا القهوة يلفظان أنفاسهما الأخيرة.. قال ماضي:

– تفتكر دكتور يوسف رضوان عايزنا ليه؟

هز رأسه نافيا وقال عبدالتواب:

– والله ما أنا عارف.. لكن صوته كان متضايق وليس طيبا.

متأوها ومتألما:

– الله يرحم جدوده، كانوا أعز الناس في قلوبنا أصدقاء عمر وأبناء بلد واحدة وحتة واحدة ومدرسة واحدة.. بس أنتم كنتم أكبر مننا يا عبدالتواب.

زعق فيه عبدالتواب معلنا ملله منه.

– يا واد قاعد تصغر في سنك كأنك علي وش جواز.

نظر له ماضي في تحديق وجدية.

– أنت بتقول فيها، الواحد فعلا ممكن يتجوز ويعيد أيام مجده.. هوه إحنا كنا لحقنا نتجوز في شبابنا.

دخل يوسف فانتعش قلبه وارتعش بدنه لما شاهدهما.. من الواضح أنهما جاءا معا قبل الموعد.. اتصل بهما بالأمس.. رجاهما أن يحضر كلاهما.. أعز أصدقاء جديه.. وأنبل من عرفتهم الحركة الوطنية.. كان يعرف أن له دلالة عليهما منذ طفولته.. كان يعرف أنهما – كلاً علي حدة– يعتبرانه حفيدهما (الذي تمناه من الدنيا) لذلك كان يلجأ إلي حضن عقلهما وخبرتهما وإلي قوة ذراعين تحميانه من دوامة البحر المخادعة.

امتزجت الأحضان بالدموع، والسلامات بالابتسامات، الضحكات بالآهات، التربيت علي الكتف، الطبطبة علي الظهر، الحنان يبزغ من العيون، الدفء والأبوة ينفخان في الجو رائحة الربيع.

- خير.

- مالك.

- فيه حاجة وحشة حصلت.

- أو ح تحصل.

- قول إحنا مثل أجدادك.

- قول إحنا نحميك بعيوننا.. لا يغرك أننا كبرنا وعجزنا ولا إيه يا عبدالتواب.

- عجزنا.. إلا عجزنا.. طبعا شباب يا ماضي.

أخذا يحدثانه معا وهو صامت.. حتي قرع طبلة الحقيقة وبدأ يحكي لهما.

لم يكن سهلا علي رجلين - هذا سنهما وذلك كفاحهما- أن يتعاملا مع تفاصيل الوقائع.. ضربات كالصدمات.. مفاجأة تخلع الجذور.. ريح تكسر أعواد الشجر.

قال يوسف:

- أنا أعرف أنني أتحدث عن الرجل الذي أعدم زملاء العمر، إخوة وأصدقاء، اعتقلكما وعذبكما زبانيته، ديكتاتور قضيتما في سجونه أجمل أيام العمر، أجهض أحلامكما وأحلام وطن.. سبق سابقيه في كل أصناف مطاردتكما وملاحقتكما..

رفضتما تحديدا المشاركة في مبايعته ثلاث مرات، وكاد يعدمكما، وقد بلغتما ما بعد الستين والسبعين.. قاطعتما زملاءكما الذين وضعوا أيديهم في يده، وطبقوا معه الشريعة علي هواه من الإعدام والتقتيل، وطبقوا معه العدالة علي هواه من مناصرة الغني ضد الفقير..

أن آتي اليوم وأطلب منكما المساعدة في كشف قاتله فهذا أمر صعب قطعا؟

قال عبدالتواب.

- وماذا ستستفيد من معرفة القتلة الحقيقيين.. لقد عرفت أحد القتلة فماذا فعلت؟! ثم هل تظن أنه يمكنك معرفة الحقيقة وبفرض أنك عرفتها هل يمكن أن تعلنها.. وبفرض أنك أعلنتها.. ماذا ستستفيد؟

قال ماضي:

- قبل ما ترد علي عبدالتواب، أؤكد لك وأنا الشيوعي القديم أنني فعلا مع قتل الديكتاتور واغتياله.. الكلام عن استبعاد التصفية الجسدية مع ولاد الكلب دول كلام حضاري لا يفهمونه.. لكن هذا ليس معناه أنني مع الإرهابيين ولا مع شوية المجانين بتوع التكايا اليومين دول.

رد عبدالتواب.

- ما هو الراجل ده يا ماضي اللي رمي الناس في أول عهده علي الإرهاب و في آخر عهده علي التكايا.

قال ماضي:

– لعلمك كان مبسوطا في الحالتين.. لأن الإرهابيين والتكايا ليسوا حلولا للبلد.. كانوا يبعدون الأنظار عن أن الحل هو التخلص منه ومن نظامه.. سكتا فجأة ونظرا إلي يوسف الذي همس.

– أنا لا يهمني أنه مات.. أنا يهمني أن قاتله الحقيقي غامض ومجهول وموجود وراء قفا هذا الشعب.. هم لم يتخلصوا من الرئيس لأنه حاكم ظالم.. هم تخلصوا منه حتي يحلوا محله.. حتي يستمر نظامه بكفاءة أعلي في القتل والظلم والديكتاتورية.. أنا كنت أبحث عن الحقيقة.. الآن أبحث عن الحق، كنت أبحث وراء المقتول.. الآن أبحث عن القتلة لأنهم يمكن أن يقتلوا الشعب كله كما قتلوا رئيسه.. يقتلون من يقف ضدهم وضد سياستهم ومصلحتهم.

قال عبدالتواب:

– وهل تعتقد أن مجرد تحليل جثة ولاً اثنتين وإثبات – مثلا– أنهما كانا قد تعاطيا سما تعاطاه الرئيس.. هل يعني ذلك معرفة القتلة الحقيقيين.

قال ماضي بسرعة ومقاطعا يوسف قبل أن يبدأ:

– لأ يا عبدالتواب.. بس معناه كشف الفضيحة، رفع الملاءة عنهم جميعا وهم عرايا.. خلخلة النظام.. تفكيكه أو المساهمة في تفكيكه قلب المائدة عليهم.. يخبطون في بعض.. عارف ماذا سنفعل؟ سوف نقطع الخيوط التي تربط العرائس بأيدي لاعبي العرائس الجالسين فوق، فوق خشبة المسرح.

التفت عبدالتواب ليوسف.

– الكلام الذي يقوله الراجل الأهبل ده صحيح.. يعني هذا قصدك.

صرخ فيه ماضي قبل أن يرد يوسف:

– ولو مش قصده يا أخي.. إيش فهمه هوه في السياسة دا راجل بتاع عدل وحق وسيادة المستشار وسيدي القاضي ورفعت الجلسة.. إحنا بتوع سياسة والذي أقوله هو الصح.

استبعدا يوسف من الحوار تماما وكان يوسف رغما عنه يبتسم من صراع الديكة بين العجوزين الرائعين.. أخذا يتبادلان الرأي والمشورة والمشاغبة والملاعنة الخفيفة والمداعبة.

قال عبدالتواب:

– أنت مازلت تفهم في الطب.. يعني ممكن تشرح الجثث؟

رد ماضي – يعني أنا كنت ماجستير في التشريح.. لكن عموما ح ارجع لكتابين ثلاثة.

قاطعه عبدالتواب حاسما.

– ح تفهم ولا مش ح تفهم.

قال ماضي وهو لا يقل حسما:

– يا راجل عيب.. التقرير ح يبقي عندكم ولا أحسن كبير أطباء الطب الشرعي في بلدكم.

باترا قال عبدالتواب:

– وأنا عليّ تحضير المستشفي الذي سنستخدم مشرحته وأدواته ولو عايز أيضا كم ممرض وممرضة.

والتفت ليوسف أخيرا.

- و أنت عليك تحديد الموعد.. و أيضا خبرتك بعد مانثبت الحقيقة.

لمعت عينا يوسف ثم بكي.. بكي بكاء حارا يفضح في عز هذا النهار، حاول ماضي أن يخفف عنه قال:

- لاتبك.. أنت لك حق تضحك لما تفطس علي نفسك من الضحك.. الذي لم يفلح فيه أحد أنت أفلحت فيه.. أنا وعبدالتواب سنشتغل سياسة معا.. دي ح تبقي مسخرة.. يا راجل اضحك.

٣١

كانت ريتا في تلك الحجرة الأثيرة لديها في التكية البحرية، فيها رطوبة من رائحة النهر ونسائم وادعة كأنما تتسرب من الأسقف وسرير صغير أقرب إلي الكنبة الواسعة مغطي بفرش من الألوان الزاهية لون الفطرة والوسائد القطنية الدائرية ونقوش مرسومة علي الحوائط من عبث أطفال صغار في ألوان تذهب سراعا للبهتان، كانت تنام فيها، وتستقبل فيها - تحت ستار الخلسات رزق - وتكتب فيها شيئا مما رأته وتوقفت عنده بقية نهارها وطيلة ليلها تحت دفوف الدروشة في صفوف الدائخين حبا في الله وفي الحلم بالعدل القادم في التفقير والرقص الدموي حينا في طبول وأبخرة ونيران مبعثرة علي مساحات جسدها يحرقه حنين لغموض آسر أو يأسره غموض حنون.

لعلها كانت تنتظره فجاء.

دخل رزق عليها وقد بدت شقراء مفعمة بالحيوية صبوحة مشرقة علي نحو ما، كان يرتدي جلبابا قصيرا فوقه صديري أسود بنقش أبيض.. قال لها:

- مبسوطة.

ردت في رقة وبلا مجاملة.

- جدا.

سألها:

- هل أنت هنا.

قاطعته.

- نزوة.

نفي برأسه وقال:

- غزوة.

قالت.. لا أفهم.

رد عليها وهو تقريبا يحضنها بقامته الطويلة فوجدت رأسها عند صدره.

- أقصد مجرد استكشاف للعالم، كشفا لغموض، فكاً لطلاسم حياتنا ثم تملين أو ترحلين.

شعرت قلقا في رنة صوته وحروف لغته.

- هل تعتقد أنني هنا للتجسس؟!

نفي عن نفسه تهمة هذا التفكير.

- إطلاقا.. أنا أقصد.

قاطعته.. فيه إيه يا رزق.. حصل حاجة؟

أخرج من تحت الصديري صحفا، قدمها لها علي الصفحة الأولي، كانت تتصدر الأجزاء السفلية من الصفحة صورة يوسف رضوان.. شيء ما غريب وفوري وكاسر جعلها تغيب

عن الوعي.. بعدها بساعات قرأت الصحف علي التفاصيل وكان مما قرأته:

«القبض علي عصابة للعبث في القبور يتزعمها أستاذ قانون مشهور».

والعنوان في صحيفة أخري جاء هكذا:

- اضبط.. لص القبور يعمل أستاذا جامعيا في كلية الحقوق.

وفي ثالثة علي هذا النحو.

«سر الاعتداء علي جثث النساء في المقابر.. ضبط أستاذ جامعي عاريا في مقبرة نسائية».

وجاء في التفاصيل.

نجحت قوات الأمن في كشف غموض حوادث الاعتداء علي المقابر في أكثر من منطقة في ضواحي العاصمة وأسفرت هذه الحوادث عن نبش القبور وسرقة محتوياتها والتجارة في الجثث لطلاب كلية الطب وثبت كذلك حدوث بعض الاعتداءات الجنسية الشاذة علي جثث حديثة لنساء.

وقد ضبطت مباحث العاصمة مساء أمس الأول أستاذا جامعيا «ي.ر» يعمل أستاذا بكلية الحقوق يقود عصابة لنبش القبور وأكدت التحقيقات الأولية أن هذه الهواية الشاذة بدأت بقيادة الأستاذ الجامعي منذ فترة ونجح في ضم بعض المحترفين من حفاري القبور وشحاذي المنطقة في عصابة قامت بأكثر من عملية خلال الشهور الماضية، وقد قامت النيابة بتحويل المتهم

الأول دكتور «ي.ر» إلي الكشف الطبي للتأكد من سلامة صحته العقلية والنفسية، وعلمت مصادرنا أن هناك تأكيدات علي أن الأستاذ الجامعي يعاني من مرض «النيكروفيليون» وهو اسم يطلق علي الذين يهوون نبش القبور والعبث بالموتي قد ينتهي به إلي الإيداع في مستشفي الأمراض العقلية للعلاج وتنفيذ الحكم الذي ينص القانون علي أن عقوبته قد تصل إلي عشر سنوات سجنا.

في اليوم التالي كانت عناوين الصحف كالتالي:

«النائب العام يحظر النشر في قضية نبش القبور وإحالة الأستاذ الجامعي إلي مستشفي الأمراض العقلية».

ليلتها كانت ريتا ترقص محمومة في حلبة الدفوف والطبول، وكانت تبكي بصوت عال كنحيب له دوي ووقع الجنازات البعيدة، وتصرخ ملتاعة مولولة كالأرامل.

- يالهوي.. يا خرابي.. يا عيني عليك يا خويا يا يوسف.

وانسدل شعرها مفكوكا منكوشا بصفاره الغريب وكان كحل عينيها قد ساح وساب وانسكب علي خديها مبللا بالدموع وصراخها صار مبحوحا.

- أنا اللي عملت فيك كده يا خويا.. معلهش يا حبيبي حقك عليّ يا يوسف.

وقد اقترحوا علي رزق لما كادت ريتا تجن حزنا أن يعطيها مسحة أفيون كي تهدأ وتروق وتنام.. ولكنه رفض ثم لان لما زاد نحيبها وصار خرابا نفسيا مهولا وقدموا لها فنجان

القهوة الصغير الممزوج بشعيرات من الأفيون.. بعدها نامت كثيرا وطويلا ولما استيقظت بين الإغفاءة والإفاقة قال لها رزق:

- أنا سأتزوجك يا ريتا.

ابتسمت وطبطبت علي خده برقة وقالت:

- هل لك دخل فيما حدث ليوسف.

هتف وهو يضمها في سبيله للبكاء.

- أقسم بالله العظيم مالي دعوة ولا دخل.. بل أنا متعاطف معه جدا.. لكن لا أحد يفر من قدره.

٣٢

دخل عليه سكرتير الرئاسة كان الرئيس فرحا دهشا وحده في الصالون الواسع داخل البرلمان، كان رئيسا البرلمان ومجلس الشيوخ قد انصرفا مع حشود الوزراء والضيوف الأجانب ليجلسوا في مقاعدهم بقاعة البرلمان الكبري، وكان في انتظار سكرتير الرئاسة الذي جاء في موعده تماما ليعرف منه الإجراءات اللازمة والخطوات القادمة، بادر الرئيس سكرتيره بسؤال مباغت.

- إيه رأيك.

ارتج السكرتير الذي قال:

- في إيه يا افندم.

زعق فيه الرئيس.

- في البدلة يا جدع.

تنفس السكرتير راحة، راحة جعلته يحلق، يسبح، يطير في سماء المكان، إنه نفس السؤال الذي سأله الرئيس السابق بعد استفتائه الأخير إيه رأيك، في إيه يا افندم، في البدلة يا جدع، حتي يا جدع هي نفسها ليست مثلا يا راجل، يا حمار، يا بني

آدم، لأ.. نفس الكلمة، نفس الوصف، يا جدع.. هذه المرة رد أكثر حفاوة وبلاغة من المرة السابقة مع السابق.. قال:

- رائعة يا سيادة الريس.. جميلة ومذهلة ولائقة جدا علي المناسبة وعلي القوام والشخصية.

رد بفرحة والله.. هذا رأيك بجد.

أسرع، بجد جدا يا أفندم.. هل هذه إيطالية.

رد الرئيس.. آه.. عرفت إزاي.

قال سكرتيره:

- الخامة والشياكة.

- مال علي سكرتيره وهمس في أذنه.

- أقول لك علي حاجة سر.

- في بير يا افندم.

نظر حوله وقال بفرحة طفولية غامرة.

- جاءتني هدية.

رسم السكرتير التعجب علي وجهه.

- والله.

أومأ الرئيس بفرحة أكثر طفولية مما قبل.

- من ريس مجلس إدارة شركة إيطالية.

- راجل عنده ذوق.

ضحك وهو يضرب كتف سكرتيره.

- لأ وإيه.. بعتها ومعها ترزي مخصوص لضبطها علي جسمي.

- يا عيني.

خرج من فرحته بالبدلة إلي الجدية المضطربة.

- قل لي ماذا سنفعل الآن؟

- سنخرج إلي الممر، تقف سيادتك دقيقة واحدة حتي أدخل إلي منصة البرلمان، وأعلن عن حضورك، فتدخل سيادتكم في الأول سيرغي رئيس المجلس بالشويتين بتوعه.. وبعدين يقدم سيادتك كي تخطب في البرلمان خطبتك التاريخية، هز الرئيس رأسه مستعداً خرجا معاً، سبقه السكرتير بينما كان اضطراب الرئيس باديا في عيونه التي تتحرك بسرعة وبتوتر في المكان الذي بدا خاليا إلا من بعض الحرس العابرين والمبتسمين له والمنحنين لطلعته، سمع السكرتير ينادي في الداخل.

- السيد رئيس الجمهورية.

دخل فاشتعل المكان بالتصفيق المندلع حمية، تقدم وواجه المصفقين، رفع يده اليمني تحية لهم ثم رفع يديه الاثنين وهم يواصلون تصفيقا غزيرا مدمدما كان ينظر للوجوه فلا يراها، للأكف الملتهبة تصفيقا فلا يلمحها، لشرفات المجلس حيث الصحفيين والضيوف فلا يدركهم، كان أمامه بحر هادر من الألوان والأضواء، وكان قلبه مندفعا في ضرباته ونبضاته لاراد لهديره، يتخيل دمه أمواجا من دم ثائر مرتفع تضرب في صخور قلبه فتفتتها.. أدرك أنه لابد أن يجلس فجر قدميه جرا حتى المقعد الذي يتوسط رئيس البرلمان ورئيس مجلس الشيوخ.

كان اضطراب قلبه طاغيا حين تحدث رئيس المجلس وقال فيما قال:

- إن هـذا اليوم من أجل الأيام في تاريخنا الحديث ومن أجمل الأيام في سنواتنا القادمة، اليوم نسلم واحدا من أعظم الرجال ومن أشجع الرجال ومن أنبل الرجال نسلمه مسيرنا ومصيرنا ليكون رمزا للأمة، وزعيما للوطن ورائدا وقائدا لنهضتها التي ستكون علي يديه سيرفعنا من العثرة إلي القمة، من السفح إلي السطح، يتسلم مهمته التي لم يعرف غيرها في حياته الغنية الخصبة، أن يكون قائدا لنا أن يكون نورا وكشمسنا، أن يكون فجرا بعد ظلامنا.

أقدم لكم الآن البطل القائد والرمز الرائد والهادي المنير و الفارس الشجاع، المسموع المطاع، الحاكم الحكيم، السيد رئيس الجمهورية.

كان الرئيس.. وهو لا يصدق أن هذا التقديم لم يكن لأحد الأنبياء الذي حضر هذا الاجتماع علي سبيل الصدفة.. قام مع تصفيق - لو كان صادقا حقا لأعطاهم قلبه أمانة - ومشي من المنصة إلي سلمتين تقودانه إلي المنصة الأخري التي سيقف عليها وحيدا يلقي خطابه حين وقف أمامها توقف التصفيق، وران صمت، ورأي الملف مكتوبا عليه «خطاب السيد الرئيس» ذلك الذي تركه السكرتير منذ لحظات، عندما حركه تحرك معه ملف آخر تحته كان بنفس اللون والشكل والحجم، جذب دهشته من يدها ففتح الملف الغامض (من الذي وضع هذا

هنا.. كيف جاء به إلي هذا المكان) أول ورقة كانت بالإنجليزية، وخلفها ورقة بالعربية مكتوب عليها نص ترجمة التقرير الأول، عاد للصفحة الأولي إنها صادرة من المستشفي الذي كان يعالج فيه، آه، إنه ملفه الطبي عند الصفحة الأولي رأي سطرا مكتوبا بخط اليد يقول: اقرأ صفحة ١١ السطر رقم ٩، ١٠ بسرعة فرّ الورق بينما البرلمان كله صم بكم ينتظر الرئيس ليتنحنح ويبدأ خطابه وصل الرئيس إلي صفحة ١١ جري بعيونه فإذا بالسطر التاسع والعاشر محطوط تحتهما خط أصغر وقرأ بنظرات أوشك أن يشعر أنها آخر ما سوف ينظر إليه في الحياة.. قرأ:

- وحالة القلب بعد إجراء العمليات تمنح المريض فرصة للحياة شبه الطبيعية بين ستة إلي ثمانية شهور وهي المدة التي يمكن أن يتحملها القلب، بعدها سيكون الموت وشيكا في أي لحظة.

٣٣

كان الممر طويلا، معتما رغم ضوء النهار القادم من فتحات السقف الزجاجية، كان يوسف يمشي ببيجامته البيضاء ويجر حذاءه الكاوتش الأبيض علي البلاط البارد العاري وتظهر لحيته التي بدأت في الكثافة، ونظارته التي كسرت عدستها اليمني وبان شرخها واضحا، ورغم ذلك لا يخلعها أبدا، ازداد نحولا وانفضح قصر قامته بجوار ممرضين عملاقين في جسدهما الضخم يقودانه من ذراعه إلي غرفة جانبية، لما دخلها بلعه اتساعها الشديد وخلاؤها الكامل، أجلساه علي مقعد حديدي مطلي بالبياض وقيدا ذراعيه في مسندي المقعد بسلسلتين من الحديد فيه ملامس الصدأ، تركاه وخرجا، تجول بنظراته في المكان، سقفه المرتفع حتي كأنه سقف السماء هو الذي انخفض، الحيطان عالية كجدران القلاع، الغرفة باردة كأنها ثلاجة للموتي، فجأة انفتح الباب ودخل عليه العجوزان الرائعان عبدالتواب وماضي، نهشت المفاجأة قلبه، أهو حلم أم حقيقة؟ خيال ومرض أم حدث وحق؟ كان علي وجهيهما حزن بلا حل، والتجاعيد و ضعف النظر خلف النظارات التقليدية، النبت

الأبــيض للشــعر في الذقن غير الحليقة والبياض الثلجي لشعر الــرأس، وقطرات الدموع المصبوبة في العيون ورجفة الشفة ورعدة اللسان ورعشة الكف وهي تحضنه وتقبله وتمطره حنانا حتــي الامــتلاء، أخــذ نحيبهما يشتد وارتدا طفلين لا يملكان لصــراخهما رادعــا، جفت دموعه منذ فترة، لم يعد يعرف كم طالــت، لكــنه يحــس قدوم دمعة من مكان سحيق في جوف ذكــرياته تندفع في جري محموم ولاهث في قناته الدمعية تبلل جفافها الجدب، كالفيضان كالطوفان هاهي وصلت أخيرا، هاهي انفجرت موجا عاتيا عاليا رهيبا، هاهي تنزلق ساخنة لهيبة من تحــت جفنه إلي خده فصرخ طويلا موجوعا وناطقا في عودته من رحلة الخرس الطويلة.

– آه.. آه.. آه.

حيــن أمــرهم الممرضــان بالخروج وانتهاء مدة الزيارة المتاحة والمسموحة قام العجوزان وئيدين ضعيفي الجسد واهني العظم، اقتربا برأسيهما يقبلانه كل في خد.. همسا في أذنيه (كل في أذن).

– لا أحد عرف أنهم قبضوا عليك وأنت تعيد الجثث وليس وأنــت تخــرجها.. لقد شرحناها فعلا وحللناها.. المادة لم تكن سما، لقد عملنا البدع.. لا يغرك أننا «مهكعين».. اكتشفنا أنهما مادتــان تؤديــان نفس الغرض.. اضطراب في الدرة الدموية يــؤدي إلــي هــبوط حاد ثم موت صادم، المادة لم تعط علي جــرعات في الطعام إنما اتحطت كلها في حوض السباحة مرة واحــدة وهي يمكن دخولها من الجوف أو الجلد.. هذه المادة لا تملكهــا إلا معــامل المخابــرات وفــيه مافــيا ورجال أعمال اشتروها.. والمخابرات ورجال الأعمال وغيرهم استخدموا ناسا مسئولة داخل القصر والبركة فيك لما تخرج تفضحهم.

ثــم اســتدارا ومضــيا إلي الباب تاركين يوسف مقيدا في مقعــده، قلــبه يــرتجف، وعقله يزوم، وأذنه تسمع دوي رياح الخماسين القادمة.

همس عبدالتواب وهو ينظر له نظرة نهائية.

– ربنا يخرجك بالسلامة يا يوسف يا بني.

أما ماضي فقد ضحك عاليا وصرخ علي يوسف:

– أســكت.. مــش أنا ضبطت الشيخ عبدالتواب الإخواني بيغنــي مع نفسه بصوت عالي (وبدأ يغني هو بصوت مبحوح وخلفــه عبدالــتواب مرحا بأصوات سن الثمانين معا): يا أهلا بالمعــارك.. يا بخت مين يشارك.. ملايين الشعب تدق الكعب تقول كلنا جاهزين.

النهاية

٢- ٢٩ أبريل ١٩٩٩

مقاهي واشنطن وسان فرانسيسكو وبيركلي

الساعة الثالثة ظهراً بتوقيت واشنطن

مقهي ستار بلكس

تسمر بدنه وتثبتت أنفاسه وهو يرى الرئيس نائما علي سريره الواسع والفسيح وقد نفض عنه غطاءه وتبعثرت ملاءاته،لكن النومة مستلقية وهادئة تماما .. فقط غزير الدم ينبثق من صدره وبطنه ويمضى لينسكب على الملابس الحريرية والملاءات ثم يقطر قطرة وراء أخري حنفية دم خربة على السجادة المفروشة حول السرير كله،

الرئيس واضع ذراعيه بجانبه مفرودين فى راحة وملامحه بلا غضب أو فزع وخنجر كبير عريض مشرشر ولامع مغروس فى بطنه ومقبضه الفضى بلا آثار دماء.تلقى رئيس الحرس مكالمة على هاتفه المحمول عرف من الرقم أنه هاتف السكرتير الشخصى للرئيس رد عليه:

- يا صباح الفل يا بك.

تكلم السكرتير دون أن ينتظر آخر" حروف كلمات رئيس الحرس.

- تعال بسرعة لوحدك غرفة نوم الرئيس.

شعر رئيس الحرس بنبرته الملتاعة وهمسه المحفوف بالمخاطر، تساءل:

خير.. الريس زعلان من حاجة؟

في اقتضاب أجاب:

- الرئيس مقتول فى غرفة نومه وغارق فى دمه على سريره.



تصميم الغلاف د. أحمد محمود